

جمال حمدان

وتراثه الفكري

إعداد وتقديم

الدكتور عبد الحميد صالح حمدان

عالم الكتب

مقـــدمة

لقد كانت نكسة يونية ١٩٦٧ بكل قسوتها وشدتها هى الشرارة التى أثـــارت لدى جمال حمدان مشاعر الألم والغضب التى اجتاحت كل المصريين، ولكنها لـــم تسلمه أو توصله إلى حالة اليأس أو القنوط، بل إنها قد دفعته إلى الإسراع بإخراج كتابه "**شخصية مصر": دراسة فى عبقرية المكان**"، لتعريـــف المـــواطن العـــادى والمثقف العام بجوهر وطنه الأصيل وعظمة شخصيته ومعدنه القـــومى الصـــلب، ودوره الإنسانى والحضارى.

وقد صدر هذا الكتاب عن دار الهلال فى يوليه ١٩٦٧، ضمن سلسلة "كتـــب الهلال"، ولم يحاول جمال حمدان فى هذا الكتاب أن يدافع عن مصر أو يمجـــدها، وإنما جاء هذا الكتاب الصغير الحجم تشريحا علميا موضـــوعيا يقـــرن المحاســـن بالأضداد، ويشخص نقاط القوة والضعف سواء بسواء فتلقفه المثقفون الذين كانـــت الهزيمة قد حطمت معنوياتهم، فأعادت إليهم بعض الثقة التى فقدوها بعد أن تعددت الرؤية وضاعت الآمال.

ولم يكتف جمال حمدان بهذا، بل عكف على التوسع فى دراســـته وأبحاثـــه، بحيث لم تمض عدة سنوات إلا وكان قد أعد طبعة جديدة صدرت عام ١٩٧٠ فـــى نحو نيف وخمسمائة صفحة من القطع لكبير، فجاءت مانعة، وشملت موضـــوعات ودراسات جديدة عالج فيها جميع جوانب الشخصية المصرية، سواء مـــن الناحيـــة الطبيعية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، فكانت هذه الطبعة هى "زبدة" ــ إذا ما صح التعبير ــ ما سيخرجه بعد ذلك فى موسوعته أو ملحمته الكبرى التـــى صدرت فى أربعة أجزاء، والتى صارت صرحا فكريا شامخا وأثرا من تلك الآثار

العلمية العظيمة التى ظهرت فى عالم الفكر العربى فى القرن العشرين وقد احتوى الجزء الأول على:

الفصل الثانى عشر ــ **مورفولوجية الوادى**

الفصل الثالث عشر ــ **الوادى والفيوم**

الفصل الرابع عشر ــ **الدلتا**

واحتوى الجزء الثانى على:

شخصية مصر البشرية

الباب الرابع ــ التجانس

الفصل الخامس عشر ــ التجانس الطبيعى

الفصل السادس عشر ــ التجانس المادى

الفصل السابع عشر ــ التجانس العمرانى

الفصل الثامن عشر ــ التجانس الحضارى

الفصل التاسع عشر ــ التجانس البشرى

الباب الخامس ــ الوحدة، والحضارة، والنظام

الفصل العشرون ــ الوحدة السياسية

الفصل الحادى والعشرون ــ من السبق الحضارى إلى التخلف

الفصل الثانى والعشرون ــ من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية

الباب السادس ــ شخصية مصر السياسية

الفصل الثالث والعشرون ــ من إمبراطورية إلى مستعمرة

الفصل الرابع والعشرون ــ الاستعمار الأوربى الحديث

الفصل الخامس والعشرون ــ شخصية مصر الاستراتيجية

الباب السابع ــ البناء الحضارى والأساس الطبيعى

الفصل السادس والعشرون ـــ قلب العالم: موقع مصر الجغرافى

الفصل السابع والعشرون ـــ هبة النيل

وناقش الجزء الثالث ما يلى:

الباب الثامن ـــ شخصية مصر الاقتصادية

الفصل التاسع والعشرون ـــ خريطة الاقتصاد المصرى

الفصل الثلاثون ـــ الزراعة المصرية من الخريطة إلى التخطيط

الفصل الحادى والثلاثون ـــ من التوسع الرأسى

الفصل الثانى والثلاثون ـــ إلى التوسع الأفقى

الفصل الثالث والثلاثون ـــ مصر الصناعية

الفصل الرابع والثلاثون ـــ صناعات مصر: الصناعة الزراعية الأم

الفصل الخامس والثلاثون ـــ صنع فى مصر: من الصناعات الكيماوية إلى المعدنية

الفصل السادس والثلاثون ـــ ثروتنا المعدنية وصناعة التعدين

وتناول الجزء الرابع موضوع:

شخصية مصر الحضارية

الباب التاسع ـــ خريطة المجتمع المصرى

الفصل السابع والثلاثون ـــ كثافة بلا هجرة: سكان مصر

الفصل الثامن والثلاثون ـــ سكان مصر: بين المشكلة والحل

الفصل التاسع والثلاثون ـــ مركزية رغم الامتداد: قاهرة مصر

نبذة عن تاريخ حياة د. جمال حمدان

(١٩٢٨ . ١٣٤٩ هـ . ١٩٩٣ . ١٤١٤هـ)

ولد جمال محمود صالح حمدان فى ٤ فبراير ١٩٢٨ بقرية (ناى) إحدى قرى مركز قليوب بمحافظة القليوبية (مصر) ويرجع نسب عائلته إلى قبيلة (حمدان) التى نزحت من الجزيرة العربية واستقرت بالديار المصرية بعد الفتح الإسلامى.

وكان والده مدرسا للغة العربية بمدارس القاهرة، ومن ثم أتم جمال حمدان دراسته الابتدائية بمدرسة شبرا الابتدائية، والثانوية بمدرسة التوفيقية الثانوية، وكان طالبا متفوقا منذ حداثة سنه، وعقب اجتيازه مرحلة الدراسة الثانوية توجه صوب قسم الجغرافيا بكلية الآداب ــ جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا).

وحصل جمال حمدان على درجة ليسانس الآداب بامتياز، وكان عمره آنذاك لا يتجاوز العشرين سنة، فعين معيدا بهذا القسم بعد تخرجه أى فى أكتوبر ١٩٤٨، ووقع الاختيار عليه لاستكمال دراساته العليا فى الخارج، حيث التحق بجامعة ريدنج بإنجلترا، وعمل مع الأستاذ أوستين ميللر، وأنهى تحت إشرافه درجة الماجستير والدكتوراه وعاد إلى عمله بكلية الآداب جامعة القاهرة، فظل فى العمل بها حتى استقالته منها فى عام ١٩٦٣ للتفرغ للبحث والكتابة.

وقد أصدر جمال حمدان أثناء عمله كأستاذ مساعد للجغرافيا فى كليته كتبه الثلاثة الأولى: "جغرافية المدن" و"دراسات عن العالم العربى"، "وأنماط من البيئات"، وقد نال عنها جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٩.

مؤلفاته:

فى عام ١٩٦٣ أصدر كتابه "**المدينة العربية**" كشف فيه العلاقة بين التكوين الثقافى والاقتصادى العربى الأصلى (فى القرون الوسطى) وبين العلاقـــات الاجتماعيـــة والسياسية والإدارية داخل بنية المجتمع العربى.-

وفى عام ١٩٦٤ أصدر كتاب "**بترول العرب**" ألقى فيه الضوء للمرة الأولـــى على أهمية النفط الاستراتيجية والسياسية ــ لا الاقتصادية المجردة.

وفى عام ١٩٦٦ أصدر "**إفريقيا الجديدة**".

ثم أصدر بعد نكسة ١٩٦٧ الصياغة الأولى لملحمته العلميـــة الضـــخمة ــ والتى كانت بمثابة مشروع عمره الأساسى على حد قوله ــ وهى كتاب "**شخصـــية مصر: دراسة فى عبقرية المكان**" حيث تناول حتمية التوحيد والتجانس دون تسطيح ولا تحجير على مستويات الموقع وعلاقته بدوائره، والتكوين الســـكانى والثقـــافى والاجتماعى، وقد شخص فيها نقاط القوة والضعف وقرن المحاسن بالأضداد علـــى حد سواء، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية فى مصر.

ثم قدم كتابه "**اليهود أنثروبولوجيا**"، وقد كشف فيه التشتت الثقافى والبشـــرى لهم، وهو الأمر الذى يحتم التعصب والعدوان كوسيلة من وسائل التوحيد المصطنع والتكتل المنافى للتطور الطبيعى للحقائق التاريخية.

وفى العام التالى أصدر كتابه التاريخى "**استراتيجية الاستعمار والتحريـــر**"، تحدث فيها عن جدلية العلاقة بين تطور النظم الاقتصادية والثقافية والسياسية وبين أسس قيام نظام عالمى متوازن وعادل وواقعى.

وفى عام ١٩٧٠ أصدر الصياغة الثانية لكتابه "شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان"، حيث بدأت محاوره الأربعة فى الاكتمال والنضج: المحور الجيولوجى المكانى، والمحور البشرى والمحور الاقتصادى، ثم المحور الحضارى.

وفى العام التالى ١٩٧١ أصدر كتابه البالغ الأهمية "العالم الإسلامى المعاصر، وألحقه فى عام ١٩٧٣ بكتابه التاريخى الثانى "**بين أوروبا وآسيا: نظائر جغرافية**".

وفى عام ١٩٧٤ أصدر كتابه الذى استوحاه من نصر أكتوبر ١٩٧٣ وهو "**(٦) أكتوبر والاستراتيجية العالمية**"، ألقى فيه نظرة مستقبلية صائبة على ما أصبح بداية للتغيير الجذرى فى التوازن العالمى بعد ذلك، وذلك تأسيسا على معطيات الانتصار العربى الجيوستراتيجية والحضارية والاقتصادية.

وتفرغ جمال حمدان إثر ذلك لإنجاز صياغته النهائية لكتاب "شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان" الذى استغرق عشر سنوات، وصدر فى أربعة آلاف صفحة من القطع الكبير ضمن أربعة مجلدات.

وفى عام ١٩٨٥ حصل جمال حمدان على جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية.

وفى العام التالى حصل على جائزة التقدم العلمى من الكويت.

وبلغت مؤلفاته أكثر من ٢٠ كتابا ينقسم بعضها إلى عدة مجلدات ضخمة، وكتابين باللغة الإنجليزية بالإضافة إلى أكثر من ٢٥ دراسة مطولة محكمة نشرت فى المجلدات والدوريات العلمية وعدة مجلات بريطانية وفرنسية، وعشرات من المقالات التى نشرت بالصحف المصرية والعربية، وذلك قبل وفاته المأساوية محترقا داخل شقته فى إبريل ١٩٩٣، رحم الله جمال حمدان رحمة واسعة جزاء ما قدم لمصر وأبنائها.

مؤلفات تناولت أعمال حمدان:

١ ــ صاحب شخصية مصر وملامح من عبقرية الزمان، دكتور عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، ١٩٩٣م.

٢ ــ جمال حمدان فى ذمة التاريخ، الدكتور محمد الغنيمى مقلد، القاهرة، ١٩٩٣م.

٣ ــ ثلاثية حمدان، دكتور عمر الفاروق، القاهرة، ١٩٩٥.

٤ ــ جمال حمدان، صفحات من أوراقه الخاصة، جمعها د. عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، ١٩٩٦م.

٥ ــ جمال حمدان، عبقرية ضد الانحناء، أستاذ محمد عبد الغنى علام، القاهرة، ١٩٩٧م.

٦ ــ جمال حمدان، عاشق مصر العبقرى، إعداد الأستاذ محمد نوار، القاهرة، ٢٠٠٣.

7 – Salih Hamdan: Gamal Hamdan, Collected works (1-2), Cairo 2000.

كما صدر له العديد من البحوث والمقالات فى المجلات والصحف المصرية والعربية والأجنبية.

ويسعدنى أن أعرب عن خالص شكرى وامتنانى للأخ العزيز الشاب النابه الأستاذ محمد عبد الرحمن الشاغول الذى بذل جهدا ضخما فى تجميع المقالات والبحوث والدراسات وفى مراجعة الكتاب مراجعة علمية دقيقة، ودعائى له أن يوفقه الله سبحانه وتعالى وأن يسدد خطاه.

د. عبد الحميد صالح حمدان

الفصل الأول

نظرة على رسالة جمال حمدان العلمية

انتهج العلامة الراحل الدكتور جمال حمدان، ومنذ مطلع حياته العملية، منهجا علميا يقوم على البحث الدقيق والفكر العقلانى السليم، ومن هذا المنطلق جاب جميع مجالات العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والزراعية وغيرها من المجالات الأخرى، وذلك للوصول إلى استنتاجات علمية وعملية لصالح الوطن والمواطن، وكان علم الجغرافيا ـ وهو تخصصه الدقيق ـ بمثابة المدخل إلى فهم شخصية الأمم والدول، وفى مقدمتها بلده مصر التى كرس لها ملحمته الخالدة "شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان"، وهو يقول فى مقدمة هذه الملحمة: "إننا فى المرحلة الحالية من تطورنا فى حاجة ماسة إلى فهم كامل لوجهنا ووجهتنا لكياننا ومكاننا، لإمكانياتها وملَكَاتنا".

ولقد أقام جمال حمدان فى هذه الملحمة صرحا علميا شامخا ودرة ثقافية نادرة، تغنى فيها بكل ركن من أركان مصر، حيث خلد عبقريتها إنْ مكانًا أو زمانًا، واستخدم فى كل ذلك طرُق البحث العلمى الحديثة ومناهج التأصيل الأكاديمى الرائدة، مازجا فلسفة الجغرافيا بفلسفة التاريخ، وجامعا بينهما وبين علوم وفنون شتى لكى يصل فى نهاية المطاف إلى نوع من المعرفة بأسلوب مبتكر يخرج عن المفهوم التقليدى لهذا العلم أو ذاك، وفى هذا المقام يقول حمدان فى مقدمته لهذه الملحمة الخالدة:

"اجتمعت فى هذا العمل كل "الثنائيات" المعروفة فى الجغرافيـا: الأصـولية والإقليمية: الطبيعة والبشرية؛ التاريخية والمعاصـرة.. وإن عمـلا بهـذا الحجـم والطبيعة قد يبدو موسوعيا بالضرورة، غير أنه فى الحقيقة أبعد شيء عن أن يكون موسوعة، بل هو بحق النقيض المطلق للموسوعة، قل ضد ـ موسوعة، وإنما هو ملحمة بكل معنى الكلمة، إلا أنها ملحمة علمية بالدرجة الأولى، وهو أيضا وبطبيعة الحال بحث علمى أكاديمى ومصنف صافٍ يعتمد على مئات المصادر والمراجـع، إلا أنه قبل ذلك وبعده نظام فكرى، ونسق منهجى، ومعمار بنيوى، هدفه الأصـالة والخلق والجِدَة والحداثة والابتكار أساسا".

ومن الصعب، بل ومن المستحيل أن نأتى هنا فى هذه العجالة على دراسـة كل أفكاره ونظيرياته، فالأمر يحتاج إلى مجلدات طويلة، وقراءة متأنيـة ومتعمقـة لمؤلفاته بصفة عامة.

ولقد كان كتاب "شخصية مصر" من أحب الكتب إلى نفـس جمـال حمـدان وأقربها إليه، فهو بالنسبة له موضوع وطنى وقومى، وهو فى هذا الكتاب تطـرق إلى رسم صورة عريضة ولكن دقيقة لشخصية مصر، ومصر لا شـك موضـوع مثالى لذلك، نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود والتقاطيع ولمـا تملكه من تاريخ ألفى حافل ـ فقد جاء منهجه فى هذا العمل الفذ متشابكا ومتعـدد المداخل، وقد جمع فيه بين الجغرافيا والتاريخ وعلم البيئة، بل والاقتصاد والزراعة والسياحة والسياسة فى نهاية المطاف، ومن هنا اسـتناده الأساسـى إلـى الـنهج التاريخى باعتبار أن للشخصية المصرية جذورها التاريخية، فأصبحت الجغرافيـا التاريخية عنصرا جوهريا فى دراسة الشخصية الإقليمية لمصر، والواقع أنه وظف كل مناهج الجغرافيا ولواحقها فى خدمة جغرافية الحياة اليومية والأشـياء، كيمـا تضفى الحيوية والاهتمام على الحقائق الجامدة الصماء وتحيلها حية نابضة ناطقـة كما يقول.

وهذه تماما هى عبقرية الإقليم فى نظره، عبقرية تتجلى فى خصوصية ثقافته وعملية تكونها وتتمثل فى نسيجها الوظيفى وتجسيدها لشخصية المكان، وظل جمال حمدان يتساءل عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، فى محاولة للنفاذ إلى روح المكان ليستشف عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة، إلى الهيكل المركب لها أو ما يعرف كاصطلاحٍ عام بعبقرية المكان، التى يتم فيها تشريح كائن عضوى ضخم إلى أعضائه الكامنة الدقيقة، وإعادة تركيبه لصنع عالم صغير نسبيا فى مكانه الدقيق والصحيح من عالم أعظم، وكان من المنطقى بالنسبة له التعرض بالتقييم لنقاط القوة ومكامن الضعف التى قد تنكشف فيها، وهذا ما يقودنا رأسا إلى الجغرافيا التطبيقية، جغرافيا التخطيط ورسم السياسات الإقليمية والاستراتيجية القومية، وبهذا الشكل تصبح جغرافيا التخطيط فى واقعها بمثابة جغرافيا المستقبل، توظف الماضى والحاضر، فى كشف الطريق أمام مستقبل أفضل، وهو ما ركز عليه حمدان فى الجزء الأخير من سِفْره الجليل.

ويقرر جمال حمدان أن النظرية العامة التى يفسر بها شخصية مصر إنما تقوم على التفاعل بين بعدين أساسيين فى كيانها وهما الموضع والموقع، ويعنى الموضع: البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها، أما الموقع: فهو صفة نسبية تتحدد طبقا لتوزيعات الأرض والناس والإنتاج حول مصر، وتضبطه العلاقات المكانية التى تربطه بها، أى أن الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة، وهو يرى مع ذلك أن حجم الموضع لا يتكافأ بالضرورة مع خطورة الموقع، وبينا يدفع الأول إلى قدر من العزلة، يدعو الثانى إلى فيض من الاحتكاك، ولكنه تناقض يفضى إلى التكامل أيضا، وبصيغة رياضية، فإن معادلة القوة فى شخصية مصر هى الموقع × الموضع، وبمعنى آخر، فإن توظيف إيجابياتها يحول التناقض إلى تناسق، ويفجر مكامن القوة.

واستدل حمدان على ذلك بمتابعة مراحل مصر الحضارية، هذه التى تثبت ذبذباتها بين سُمُوق إلى حد الإمبراطورية، وهبوط إلى حد المستعمرة، حقيقةَ التكامل بينهما، فحين تزدهر مصر داخلياً(الموضع) يصبح الموقع محميًّا.... ويصب موارده فى بنيتها وتظفر مصر كقوة إقليمية، أما إذا ضعفت بنيتها تدافعت القوى إليها، لتسيطر على الموقع، ومن ثم الموضع بعده، وبهذه الفرضية يفسر تاريخها، ويقرر أن كيان مصر ومصيرها هى وظيفة مباشرة للعلاقة المتغيرة بين قوتها كموضع وقيمتها كموقع، ذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل، وبالنسبة للموقع تتبدى لنا فى المحصلة العامة أبعاد أربعة فى توجيه مصر، الآسيوى والإفريقى على مستوى القارات، والقبلى والمتوسطى على المستوى الإقليمى، وهو يرى أن مصر بكل بساطة هى أقدم وأعرق دولة فى الجغرافيا السياسية للعالم، غير قابلة للقسمة على اثنين أو أكثر مهما كانت قوة الضغط والحرارة، فمصر هى "قدس الأقداس" فى السياسة العالمية والجغرافيا السياسية، ومن المتصور تماما، وإن بدرجات متفاوتة، أن تنكمش أو تنقسم كل دول العالم بلا استثناء إلا مصر! لماذا مرة أخرى؟ لأن مصر هى ببساطة من خلق الجغرافيا الطبيعية لا التاريخ ولا السياسة ولا الصدفة ولا القوة، إنها نبت طبيعى بحت.. وتلك حقيقة لا جدال فيها، وهى تبقى نابضة بالحياة وتظل كمثيلاتها من حقائق واستنباطات جمال حمدان صالحة لكل زمان مهما تغير حال الدنيا أو طال الأمد.

***

ولم يكتف صاحب شخصية مصر عندما تناول بالبحث حضارة مصر، باعتبارها إحدى ركائز تلك الشخصية وأحد وجوهها المضيئة، بنقل أو سرد ما قيل أو كتب عن هذه الحضارة شرقا وغربا، بل اجتهد بتفكيره العلمى الأصيل، وبمنهجيته الموضوعية المعهودة، فى التغلغل عبر أصول هذه الحضارة وجذورها، وفى سبر أغوار مكوناتها وحقائقها، وفى البحث عن كنوزها ومقوماتها، كل ذلك

بأسلوبه السهل الممتنع، وسنحاول هنا وبإيجاز شديد عرض بعض ما كتبه عن هذه الحضارة، فقد أرجع فى كتاباته ودراساته تاريخ هذه الحضارة أولا إلى النتيجة المتغيرة على مر العصور للشد والجذب بين قوتى العزلة والاحتكاك، أى الموضع والموقع على الترتيب، واتباعا منه لهذا النهج، قام بتقسيمها إلى أربع مراحل هى: مرحلة صناعة الحضارة، ثم مرحلة تصدير الحضارة، ثم مرحلة الاكتفاء الذاتى وأخيرا مرحلة استيراد الحضارة.

فأما مرحلة صناعة الحضارة فتتفق مع مرحلة التاريخ النهرى حين كانت مصر مشتلا ممتازا لتأصيل حضارة مبكرة سباقة مادتها الخام هى فيض النهر، وبذلك كانت مصر مصنعا لحضارة انبهرت لها الشعوب المجاورة، كما كان لها طابع خاص يتسم بقوة الشخصية والتفرد، وقد كان طبيعيا مع توسع شبكة الاتصالات فى العلم أن يزداد احتكاك مصر بالخارج بعد خروجها من مرحلة الأنهار إلى مرحلة البحار، وأخذ هذا الاحتكاك شكل "تصدير الحضارة" فأصبح "مصنع" الحضارة "متجرا" لها أيضا، وتلك حقيقة عرفتها فينيقيا والشام حتى ميديا وأرض الحيثيين، بل وامتدت عناصرها إلى بابل وآشور، فأخذت هذه الشعوب فن الملاحة عن مصر، كما كانت توجد هناك جاليات مصرية من التجار أو الموظفين أو المحاربين فى العصور الفرعونية. كما ظهر نفوذ مصر الحضارى على يهود العهد القديم، والذين كانوا تابعين لمصر سياسيا أغلب تاريخها سواء أكانوا داخل أرضها أو فى أرض فلسطين، فالحضارة المصرية دمغت ـ كما يؤكد جمال حمدان ـ كل وجودهم المادى والأدبى بل والدينى نفسه المشبع بتأثيرات مصرية عميقة ابتداء من معمار سليمان إلى مزامير داود، كما أن تشتت اليهود وانتشارهم فيما بعد، كان عامل نشر وتمديد غير مباشر للمؤثرات المصرية على نطاق العالم الأوروبى، وإن كان ذلك بدرجات مخففة أو مختلفة.

وهو يرى، والحال هذه، أن العصر العربى الإسلامى ما هو إلا امتداد لمرحلة تصدير الحضارة المصرية، فرغم أن مصر تمثلت الثقافة العربية كلية، فإن النهضة الحضارية العربية التى حدثت من تفاعل العرب مع أبناء البلاد التى دخلوها هى نتاج مشترك أساسا، وكانت اللهجة المصرية دائما أقرب لهجة عربية إلى الاستقامة والاعتدال.

بل إن ممارسة الإسلام نفسه فى مصر بلغت على يد هذه الحضارة العربية درجة من الرصانة والاستواء جعلت من أزهرها قلعة الإسلام وكعبة العلوم الإسلامية، وتكونت فيها طليعة سَدَنَة الإسلام وحفظة تراثه والقوامين عليه.

وبعد أن تحولت مصر مع بقية الشرق العربى إلى العزلة مع بداية العصر المحيطى فكانت مرحلة الاكتفاء الذاتى فى حدود الدائرة الإسلامية، وحين انتقلت قبلة الحضارة العلمية من الشرق إلى الغرب، واقتحمت الحضارة الحديثة أركان الأرض، وراحت تغزو الشرق كله حضاريا، لم يعدْ للعزلة مكان، ومن هنا بدأت قصة مرحلة "استيراد الحضارة". غير أن هذه العملية لم تكن عملية إحلال أو ذوبان، بل كانت أساسا عملية تبادل حضارى خرجت منه الشخصية المصرية، كما كانت دائما ذات طابع قوى دفين، ولم تفقد قوامها الأصيل.

ويخلص جمال حمدان من كل ذلك إلى نتيجة أساسية، وهى أن دور مصر الحضارى لم يختفِ عبر العصور وإن اختلف من عصر إلى عصر، فكانت إما صانعة الحضارة وإما حافظتها، وفى ذلك يقول: "من المرجح أن مصر فى النهاية قد أعطت العالم على مدى تاريخه عموما أكثر مما أخذت. والعبرة الآن أن مصر تأتى بالضرورة فى وضع وسط على خريطة العالم، ولا ننسى أنها بمقياس الشرق سباقة ومتقدمة، وكانت منذ أوائل القرن الماضى رائدة فى كثير من وجوه التحضر، بل وكادت أن تلاحق الغرب فى بعض إنجازاته الحضارية الجديدة".

ويعود ليؤكد أن "مصر وإذا لم تكن على عتبة الدول العصرية بعدُ، فالثابت أنها لم تعد بعيدة كل البعد، وربما لن تأتى سنة ٢٠٠٠ (كتبت هذه الدراسة فى الثمانينيات وجاءت وفاته المفجعة فى أوائل التسعينيات) إلا وهى كذلك بالفعل، فالموقف كله إنما يذهب ليؤكد توسط موقع مصر بين العالم النامى والمتقدم، قبل البترول كما بعده، إنها قمة، أو على الأقل إحدى قمم العالم النامى، سواء أكان عالما ثالثا فقط أو ثالثا ورابعا معا".

ولقد كان جمال حمدان من أوائل من استشعروا الخطر الداهم المتمثل فى قيام دولة إسرائيل تأسيسا على مبادئ الأيدلوجية الصهيونية التى نادت بإسرائيل الكبرى واغتصاب أرض فلسطين، والتى نجحت فى زرع هذا الإسفين الخطير فى قلب العالم العربى والإسلامى.

ولم يأت هذا من فراغ أو عن تعصب وتحيز، بل استنادا إلى دراسات علمية موضوعية متعمقة تناولت هذه الظاهرة الاستعمارية الجديدة أنثروبولوجيا وتاريخيا وسياسيا واستراتيجيا، وقد نبه جمال حمدان فى العديد من كتاباته وأبحاثه إلى هذه القضية، فكتب يقول: "من الصعب أن تجد بين المجتمعات البشرية المعاصرة مجتمعا يقارب المجتمع "القطيعى" الذى حشدته الصهيونية فى إسرائيل.

وذلك فى مدى تمزقه وتهالكه واعوجاجه، وأن اليهود جملة وتفصيلا ليسوا من بنى إسرائيل، وليس هناك "يهودى تائه" أو متجول، وإنما هناك ببساطة يهودى متحول. فالصهيونية مجتمع دخيل تماما على فلسطين، وليس لهم فيها جذور أو أصول سواء بالتاريخ أو الجنس سواء باللسان أو الدين، وإن الصهيونية اليوم هى أكبر خطر وتحد يواجه العالم العربى وأن تحرير فلسطين "هو" وحدة العالم العربى السياسية.

وأما أن إسرائيل دولة عنصرية فإن أبواق الصهيونية والاستعمار تحاول أن تقلب الحقيقة رأسا على عقب وتصورها ضحية للعنصرية لا مشتلا لها، والحقيقة أننا لا نعرف جانبا فى دعاوى الصهيونية يجتمع فيها التضليل بالغفلة كما يجتمعان فى هذا الجانب، فحقا كانت النازية "دولية جنسية" كما وصفها علماء السياسة، وحقا كان اضطهاد اليهود هو الوجه الآخر للعنصرية الآرية، لكن أن نسمى هذا "بضد السامية" فهذا هو الخطأ الشائع الذى نجحت الصهيونية فى إدخاله وتمويهه على العالم، وتقبله هذا بلا تفكير، بل ونردده نحن بحسن نية.

ومن هذا كله لا يتبقى من وحدة مشتركة بين اليهود إلا الدين ـ تماما مثلما بدأت، وإذا كان هذا هو الأساس الوحيد لشعورهم المتضخم بأنفسهم ووعيهم الحاد بالذات، فما هو إلا نتيجة للاضطهاد الذى تعرضوا له تقليديا، فقد كان وعى اليهود نوعا من التحدى إزاء الرفض، ولكنه وعى لا يجعل من صاحبه أمة، بل مجرد طائفة: إما مضطهدة وإما متعصبة.

وليس هناك بعد ذلك سر أو معجزة أو لغز خطير فى بقاء اليهود، فالذى حفظ اليهود هو الاضطهاد الخارجى، والصهيونية إنما هى رد فعل لضد السامية، أو هى "ضد ضد السامية" أو كما قال ماركس: "لقد حافظت اليهودية على نفسها بواسطة التاريخ وليس على الرغم منه" أو أخيرا، ما وضح سارتر، أن عدو السامية هو الذى يصنع اليهودى.

وليس هناك إذن شعب أو أمة يهودية، كما قرر بالفعل لينين، وكما عبر ستالين فى كتابه "الماركسية والمسألة اليهودية" حين تكلم عن اليهود "كأمة من الورق" لا، وليس الأمر شبه أمة كما ساوم البعض، وباختصار، فكما اعترف الصهيونى ليون بنسكر شاكيا "لسنا معدودين كأمة عند سائر الأمم".. وليس ثمة قومية يهودية، والصهيونية ليست آخر مشكلة من مشكلات القومية فى أوروبا كما

يوهمون، ولكنها ببساطة آخر موجة استعمارية خرجت من أوروبا وأفرزها القرن الماضى.

لا، وليس ثمة شيء كقومية إسرائيلية – كما يريد البعض أن يساوم بعد إنشاء الدولة اليهودية الغاصبة – أكثر مما هناك قومية يهودية، وتظل إسرائيل دولة "مصطنعة"، أنشأتها حركة صهيونية "يوتوبية"، هى نفسها منبثقة عن شعب يهودى "وهمى" فإن قيل: كيف يمكن لشعب وهمى غير موجود أن ينشئ فى النهاية دولة مصطنعة، بينما أن كليهما قائم واقع، فليس فى هذا تناقض ينقض الحقيقة، وإنما هو ينقلها ببساطة إلى منطق ومنطقة الاستعمار.

وإنما التناقض المثير والمغالطة حين تتهم الصهيونية "القومية العربية" بأنها "قومية سلبية" (كذا!)، بمعنى أنها لم يجمعها ويدفعها إلا عداؤها لإسرائيل، ولكن الحقيقة أن الصهيونية كما هو ملاحظ تحارب بضراوة وعصبية على المستوى الفكرى ضد النظرية التى تعتبرها رد فعل لضد السامية، وذلك لأنها تجردها من أى مضمون ذاتى وتجعلها مجرد رد فعل سلبى بحت.

حق القوة والأمر الواقع:

على أساس من الدين والتاريخ – إذن – قامت ادعاءات الصهيونية فى فلسطين، وكما رأينا فلقد ثبت عقم وخواء هذا الأساس تماما، سواء الحق الإلهى المقدس أو حق الوراثة القومى، أو الحق التاريخى كما يمكن أن نسميها معا، ولقد أدرك الصهيونيون أنفسهم أن الحق التاريخى، أو الصلة بين بنى إسرائيل وأرض إسرائيل، "أقل استيحاء للمنطق مما يظن" أى أنها لا تقيم بناء عقليا مقنعا أو متماسكا، ولذا بحثوا عن "العقلانية" كواجهة لدعاويهم ودعاياتهم، تبريرا للاغتصاب أو ليدفعوا بها تهمة الاغتصاب والاستعمار.

وليس هنا متسع لتحليل هذه المحاولات، ولكنا نكتفى بأنها جميعا فشلت، واضطرت الصهيونية وإسرائيل إلى أن تكشف عن حقيقة موقفها ومبرر وجودها الحقيقى والأخير، وهو نطق القوة البحتة والأمر الواقع، أى منطق الاستعمار المباشر بلا مواربة، ومن هذا المنطق يقدمون رؤية مزيفة، مغلوطة، مقلوبة إلى حد لا يكاد يتصور لكل الأحداث والصراعات التى وقعت منذ بدأ الاستعمار الصهيونى وعبر حرب فلسطين حتى اليوم الحالى، والرد على هذه الرؤية المكذوبة يحتاج إلى دراسة خاصة، ولكن يمكننا أن نقرر أن تهافت وتداعى كل حججها وزيفها يدفع بهم فى النهاية إلى موقف التبجح الاستعمارى الكالح سافرا ومعلنا بلا مواربة، وإلى رفض المنطق تماما، وهو ما فتئوا يتهمون به العرب تقليديا!.

فإذا هم يتحولون عن الحديث عن الحق التاريخى إلى الحديث عن حق الوجود: إسرائيل حقيقة واقعة، وليس هناك اختيار، فالاختيار قد تم بالفعل وقد قامت إسرائيل، سواء كان معنى هذا حق الغزو والفتح فإن العلاقات الدولية تقوم على صراع القوى والمصالح لا الأخلاق أو المنطق، والحدود مرسومة بحسب قوة الشعوب، واليهود قد اكتسبوا حق الاحتلال فى إسرائيل، ولو كان العرب قد انتصروا لما قامت، فالصراع قانون الحياة والبقاء للأقوى، ونحن لا يمكن أن نأخذ على الإسرائيليين أنهم يواجهون مشكلة ندبوا أنفسهم لحلها"! "وليس على الإسرائيليين أن يبرروا وجودهم تحت الشمس، أى أن يبرروا أنفسهم، ويقدموا حسابات لأى محكمة عربية فى التاريخ"!.

هذا حقيقة هو الموقف النهائى والدفين لإسرائيل، وهو اعتراف صريح متحد بأنها ظاهرة استعمارية بحتة، من الناب والظفر برهانها الوحيد، قامت على قانون الغاب ومبدأ القوة، وكل حديثهم وعروضهم عن السلام بعد ذلك تنبع أصلا من هذا الموقف الجذرى، ولذلك يمارسونها كمناورة تكتيكية بحتة، فمنذ وايزمان وهم يعرضون الصداقة على العرب، ويطلبون السلام معهم ــ دائما وفقط بشرط واحد:

"أن يعترفوا بحقنا فى الوجود كدولة قومية فى فلسطين" وليس من المسموح لأحد بأن يناقش وجود إسرائيل ولا حقها فى البقاء، وبعد ذلك لم تنقطع "حملات" السلام ولا دعوات "الحوار" الحارة، بنفس الشروط: الوجود الإسرائيلى وحده هو الذى لا يقبل الجدل، ومنه يمكن المناقشة مع العدو فى أى شيء عداه، والعكس صحيح، لا يمكن بناء أى شيء خارج الاعتراف بهذا الأساس الواقع.

ومن هنا نجد أن عرض السلام مقرون دائما باستعراض القوة: "عند الحاجة، نحن نملك من القوة والوعى ما يكفى للدفاع عن أنفسنا" إنه إذن "التعايش أو الحرب" (اقرأ: الركوع والحرب) كما يعبر روبير مزراحى الذى يفلسف الموقف بأسلوب نادر فى التواتيته، الساذجة من ذلك، فهو إذا يتحدث عن "الحل الجدلى" أى التفاهم السلمى والنضج الفكرى، يفسره على أنه "الاعتراف بالعلاقة المتبادلة بين الوجودين العربى والإسرائيلى، بمعنى تجاوز الأمر الواقع المحض نحو حق ذى أساس تاريخى، أى حق نابع من الوجود الفعلى لكلا الموضوعين المعنيين"، وهو بهذا يضع يدنا على آخر مراحل التبرير الصهيونى، أخفاها وأشدها افتضاحا فى الوقت نفسه، وهى تحويل الأمر الواقع إلى حق تاريخى (جديد مكتسب) بدلا من تحويل الحق التاريخى (القديم الساقط) إلى أمر واقع!.

هذا، فى الحقيقة، كل محتوى "السلام الإسرائيلى" (اقرأ: الاستسلام العربى). وليس هناك متطرفون ومعتدلون، حزبيون وإسلاميون، أو صقور وحمائم، فى إسرائيل كما يصور البعض خبثا أو يتصور البعض جهلا، فالطرفان يلتقيان فى النهاية على أن الوجود الإسرائيلى خارج المناقشة، "تابو، سياسى لا يمس، وإلا فإنها الحرب، بل حتى إعادة اللاجئين، لا يختلف موقف الطرفين إزاءها كقضية أولية، "فلا لاجئ واحد" هو شعار أقصى اليمين وأقصى اليسار.

وبعد، فالحقيقة أن من يطلع على دعايات العدو وتدبيراته جدير عدا الصدمة المذهلة، أن ينتهى إلى أن الهوة العقلية والفكرية بين الجانبين المتصارعين أعمق من كل خيال، وأننا إزاء عقليتين متناقضتين متصادمتين إلى الحد الذى يشكك فى إحداهما أصلا، وكل محاولة للحوار والتفاهم عقم بل سفه عريض. ومن الخير للعرب أن يدركوا أن الحل بالقوة لقضية فلسطين حل لا بديل له فى نهاية المطاف، لا حبا فى الحرب من أجل الحرب، وإنما لأن العدو وحده هو الذى يفرضه فرضا، وليس هذا "غباء وشوفينية وجهلا" كما يتهمنا الصهيونيون، ولكنه حق بل واجب للدفاع الشرعى ضد استعمار سكنى، عنصرى، طائفى، إبادى رجعى، بربرى، (حق، وليس "تزويرا وقحا للتاريخ وتجديفا وتزييفها معيبا" كما تسبنا الصهيوني مرة أخرى"..

منذ أواخر الثمانينات وحين انتهى جمال حمدان من إخراج ملحمته العلمية "شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان"، ظهرت عدة كتابات فى الدوائر الجامعية الأجنبية تناولت بالدرس والتحليل ما جاء فى هذه الموسوعة الفذة من آراء وأفكار، وسلطت الضوء على ما ذخرت به من إنجازات إبداعية استكشف فيها المؤلف عبقرية مصر إن مكانا أو زمانا، وناقش على مدى أربعة آلاف صفحة من القطع الكبير هذه العبقرية وخصائصها ومرتكزاتها الحضارية. فصدرت عدة كتابات يذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الدراسة التحليلية النقدية التى كتبها الأستاذ أولريش هارمن، الأستاذ فى جامعة فرانكفورت ونشرها عام ١٩٨٧ فى المجلة التى تصدرها فى أمريكا عن رابطة دراسات الشرق الأوسط، كما قام أحد أساتذة جماعة ماجكيل بكندا بنشر دراسة بالفرنسية فى نفس السنة تناول فيها ما كتبه جمال حمدان حول القومية العربية.

وكان لرحيل هذا المفكر العالم صدى كبير فى الدوائر العلمية فى الداخل والخارج وامتلأت الأدبيات بتعليقات ودراسات حول فكره وأعماله بعد وفاته.

وسنقتصر فى هذه العجالة على الدراسة التى صدرت مؤخرا فى اليابان بقلم الأستاذ إيجى ناجاساوا، الأستاذ بجامعة طوكيو تحت عنوان: مركزية مصر: دراسة حول "شخصية مصر لجمال حمدان"، وقبل أن نشرع فى تفصيل ما جاء فى هذه الدراسة القيمة، تجدر الإشارة هنا إلى أن الدراسات العربية الإسلامية تحظى فى الوقت الراهن بمكانة متميزة فى الجامعات والمراكز البحثية فى طوكيو وفى غيرها من مدن اليابان الكبرى. فجامعة طوكيو على سبيل المثال تضم معهدا للثقافة الشرقية يعمل به عدد كبير من الأساتذة المتخصصين فى الدراسات العربية والشرق أوسطية، وأنشئت منذ عدة سنوات الرابطة اليابانية لدراسات الشرق الأوسط تحت رئاسة يوزوايتا جاكى. ويبلغ عدد أعضائها نحو ستمائة عضو، وتصدر مجلة دورية تهتم بالبحوث والدراسات المتعلقة بالثقافات والحضارات العربية الإسلامية.

وقد اهتم الأستاذ ناجاساوا بظاهرة جمال حمدان، وقام بزيارة مصر عدة مرات منقبا وباحثا وجامعا لكل مؤلفاته وما كتب عنه بعد وفاته، فاتصفت دراسته بالجدية والعمق، فبعد مقدمة مطولة عن مصر وأبعاد الحركة الثقافية المعاصرة فيها، ختم المؤلف هذه المقدمة بقوله: "يخيل للمرء وهو أمام مؤلفات وكتابات جمال حمدان أنه يخوض فى لجة محيط متلاطم الأمواج يعج بالمعارف والأفكار والآراء والاستنتاجات، بحيث يصعب عليه أن يستوعبها أو يسبر أغوارها من أول وهلة، ولذا فقد اكتفيت فى هذه المرة بسباحة هادئة على شاطئ هذا المحيط الهادر آملا أن أعود فى القريب للغوص فى أعماقه واستخراج درره بعد زيارتى القادمة لمصر". ثم أورد فى الفصل الأول نبذة عن تاريخ حياة حمدان تحت عنوان "سيرة جغرافى الوطنية المصرية: جمال حمدان" وأتى فى الفصل الثانى بعرض شامل لموسوعة "شخصية مصر" وما جاء بها من دراسات وأبحاث، ثم تطرق فى الفصل الثالث إلى ما كتبه عن التجانس فى البيئة المصرية، كما تحدث فى الفصل الرابع عما كتبه فى هذه الموسوعة عن الوحدة والمركزية والاستبداد الفرعونى.

وقد خلص الأستاذ ناجاساوا فى خاتمة بحثه إلى وجود نوع من التأثير الضمنى لتجربة جمال حمدان الشخصية مع النظام السياسى الذى ساد مصر فى الستينيات والسبعينيات، وأرجع ذلك إلى ما ورد فى الفصل الخاص "بالفرعونية الجديدة" والذى تساءل فيها حمدان عن مدى تغير مصر المعاصرة عن مصر الحديثة، والحديثة عن القديمة فى قضية التركيب الاجتماعى – السياسى، ونظام الحكم والسلطة، ونقل عن جمال حمدان قوله "التغير الجوهرى فى الشكل، أما الجوهر فلم يكد يتغير، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقى، الطغيان الفرعونى، بكل أعمدته التقليدية، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم الذى يجرى خلال تاريخ مصر كلها من مينا إلى اليوم، والمتغير الوحيد هو الشكل: ملكية أو جمهورية، وراثية أو انتخابية، مدنية أو عسكرية، وذلك بحسب الظرف أو العصر"، وقد استشف الدكتور ناجاساوا من ذلك أن المؤلف قد تأثر بالبواعث الشخصية عندما كتب ما كتبه فى هذا الصدد، وربما كان هذا الانطباع ما يدخل فى باب التقديرات الشخصية، فالواقع أن جمال حمدان لم يتقيد فى كتاباته بضغوط البيئة المحلية، ولم يسطر قلمه خطا واحدا تحت أى دافع شخصى، فقد كانت صرامته العلمية لا تسمح له بأن تطغى الأمور الشخصية على الموضوعية والمنهجية التى اتسمت بها كتاباته ومؤلفاته، مما ساعده التأمل الحر والإبداع المستنير والرؤية العميقة، وقد كان يستخلص ويستقطر أعمق وأخطر النتائج النظرية والعملية، ثم يرسم أهم وأدق الدروس والمؤشرات التطبيقية والمستقبلية المتعلقة بقضايا مصر المصيرية، وذلك اقترابا من الحقيقة العلمية الخالدة لا بحثا عن الأمر الواقع الزائل لا محالة، والذى بالمقابل لا مستقبل له، ولقد تجاوز جمال حمدان ذاته فى دراساته وكابد فى ذلك ما كابد دون أن يفقد قطرة واحدة من حسه الوطنى والقومى، وكل ما فعله هو أنه نطق بالحقيقة التى سكت عنها الآخرون.

الفصل الثانى

مجموعة من البحوث والدراسات المنشورة

اتحاد الجمهوريات العربية

الدولة والرسالة[1]

اليوم يعود المد الوحدوى إلى الارتفاع ويعود إليه نبضه وقوة اندفاعه فبإعلان قيام دولة اتحاد الجمهوريات العربية، تكون الأمة العربية قد حققت حدثا تاريخيا تجاوزت به نكسة الانفصال، وبه تتحدى نكسة الهزيمة.

ولهذا، ورغم كل الظروف العامة القائمة والتخلخلات المؤسفة الجارية على المسرح العربى، بل بسببها، يعدُّ قيام الاتحاد بحق منعطفا تاريخيا ونقطة تحول لها مغزاها ولها ما بعدها، تضع نهاية لمرحلة كانت قاسية ومفحمة، وتؤذن ببزوغ وانبثاق مرحلة جديدة على طريق النضال التحررى والوحدوى، ملؤها الأمل والانطلاق، والثقة فى النصر.

نعم، إن الاتحاد يضع نهاية لمرحلة حزينة مظلمة فى تاريخ المسيرة العربية، بدأت بالانفصال وانتهت بالنكسة، وقد استمرت هذه المرحلة عقدا بالضبط.

فمن الملاحظات اللافتة أن ١٠ سنوات تمر اليوم تماما على جريمة الانفصال (١٩٦١ ــ ١٩٧١)، ولعلها أكثر من صدفة أن يكون سبتمبر، شهر الانفصال، هو نفسه شهر الاتحاد.

كذلك فإن من الملاحظات الدالة أن الوحدة الأولى سنة ١٩٥٨ قد جاءت فى أعقاب معركة الصمود والانتصار ١٩٥٦، وترتبت عليها بصورة مباشرة وغير مباشرة والآن يجيء الاتحاد فى أعقاب نكسة يونيو، كرد فعل مضاد لها، من هنا، فإذا كانت الأولى ابنة معركة، فإن الثانية وليدة معركة كذلك، إلا أنها أيضا سلاح معركة قادمة.

---

[1] جريدة الأهرام - ١٩٧١/٩/٢م.

رسالة مزدوجة:

وهذا يحدد على الفور وظيفة ورسالة الاتحاد الوليد: فهى بكل وضوح وظيفة مزدوجة: وظيفة عاجلة مباشرة هى التحرير، المعركة، أى معركة تحرير الأرض المحتلة وهزيمة الهزيمة، ووظيفة آجلة بعيدة المدى هى استكمال الوحدة العربية الشاملة.

ويتضح من هذا توًّا أن الاتحاد، وإن يكن أمل المعركة، فإن المعركة بدورها هى حَكَمَهُ والفيصل القاسى بالنسبة إليه، ينجح بنجاحها كما تنجح بنجاحه، وبعبارة أخرى فإن الاتحاد هو بوابة المعركة، ولكن المعركة عند ذلك هى بوابة الوحدة الشاملة.

ولقد أصبح الموقف الأساسى فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى واضحا الآن للجميع ـ كان واضحا دائما للبعض منذ النكسة ـ بما لا يدع مجالا للشك أو تحفظ.

وبإيجاز شديد جدا، يمكن أن نقول: إن العدو كان يحاول أن يحول ١٩٦٧ إلى ١٩٤٨ أخرى، بينما نحاول نحن أن نحولها إلى ١٩٥٦ أخرى، كان العدو يعمل بكل السبل والحيل على أن يحول النصر العسكرى إلى نصر سياسى أيضا، وكنا نعمل بكل صبر وإصرار على أن نقلب الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسى.

والآن بات محققا أنه لن يفل الهزيمة العسكرية إلا نصر عسكرى مضاد لها فى الاتجاه ومساو لها فى القوة على الأقل وأن ما أخذ بالقوة، بالقوة وحدها يسترد. واتحاد الجمهوريات الثلاث هو الآن بمثابة القوة الضاربة فى هذه المعركة المحتومة والماثلة على الأفق القريب والوحدة التى تمثلها هى من هذه الزاوية وحدة حشد: وحدة معركة وحدة تحرير.

سيقول العدو ـ قالها بالفعل ـ بل وحدة حرب ، إلا أن هذا رد فعل متوقع من عدو متوتر كما هو موتور، وقاتل محترف مثلما هو مأجور، وهو رد فعل إن

دل على شيء فإنما يدل على القيمة الحقيقية والثمينة للاتحاد بالنسبة للعرب. فلقد أعلن قادة العدو وزعماؤه أن إعلان دمشق هو بمثابة "إعلان حرب"، وأن الاتحاد هو خطوة إلى "الحل العسكرى" يهدد إسرائيل التى "وجدت لتبقى" كما يهدد السلام (كذا!).

وإذا كان ثمة حقيقة وحيدة فى خضم هذه الأكاذيب، فإن العلاقة العضوية والوظيفية الحميمة بين قضية الوحدة وقضية فلسطين هى تلك الحقيقة. إن من المنطقى جدا أن الاتحاد ــ بنصوص دستوره ــ قد كرس أهدافه الأساسية والعاجلة من وعى وإدراك لمعركة التحرير لأن الوحدة وفلسطين هما صنوان ووجهان لشيء واحد، ولا معنى ــ فى المدى البعيد ومن حيث المبدأ ــ للوحدة العربية الشاملة بدون فلسطين محررة ومستردة فلسطين الكاملة والوحدة الشاملة هدفان مصيريان حيويان للعرب، تستحيل المفاضلة أو الفصل بينهما.

ولا يعنى هذا قط دعوة إلى تحويل معركة التحرير القادمة إلى معركة التحرير الشاملة، ولكنه يؤكد العلاقة التصاعدية والمتناوبة بين مراحل التوحيد ومراحل التحرير. فلكل منهما ــ الاتحاد والتحرير ــ هدف محدود محدد، ولكن كلا منهما يفتح الطريق إلى منتهاه بلا حدود.

وهذا التحديد يحسم أيضا الجدل الطويل والقديم حول طبيعة العلاقة بين قضية فلسطين وقضية الوحدة والأولوية فيها. فليس فيهما أسبق كلية وعلى الإطلاق، وإنما العلاقة بينهما كالأصابع المتشابكة، متداخلة، متبادلة، ومرحلية، كل مرحلة منها تخدم وتدعم الأخرى جزئيا.

رسالة الاتحاد إذن مزدوجة: فهو عتبة ونواة الوحدة العربية الكبرى سياسيا، وهو بوابة النصر والتحرير عسكريا، ومن هنا بالدقة يكتسب الاتحاد قيمة ومغزى، ونتائج قد تتجاوز حدوده الدستورية الراهنة.

ولكل ما يمثله هذا الأمل الشاهق حاضرا ومستقبلا، فإن من الضرورى ومن الأهمية بمكان أن ينجح الاتحاد، وعلى شعوب الأمة العربية أن تحرص عليه حرصها على وجودها وحياتها.

إن حركة الوحدة تماما كمعركتنا المسلحة مع العدو الإسرائيلى، لا تحتمل قط المزيد من نكسات الانفصال أو هزات الفشل، ولقد أخطأنا جميعا حين ظننا وظن البعض منا أن الوحدة نزهة سياسية إنما الوحدة معركة، معركة نضالية حقيقية طويلة وشاقة، تحتاج إلى كل رصيدنا من الصبر والوعى القومى والحكمة السياسية، وإلى كل طاقتنا من الكفاح الصلب المستميت.

هيكل الدولة الجديدة:

٤٢ مليون نسمة، فى ٢,٩٤٣,٠٠٠ (قل ثلاثة ملايين) كيلو متر مربع، ونحو ١٠ ملايين هكتار أى ٢٣ مليون فدان زراعية، تغل أكثر من نصف مليون طن من القطن الممتاز (تشمل أكثر من نصف أقطان العالم طويلة التيلة)، ونحو ٨ ملايين طن من الحبوب إلى جانب ثروة بترولية عظيمة تنتج الآن قرابة ١٧٠ مليون طن، تقدم كلها فى النهاية ما يساوى ٧٠٠ مليون جنيه من الإنتاج السنوى ــ ذلك باختصار شديد هو الأساس الطبيعى و المادى للدولة الجديدة.

أو بصيغة عربية نستطيع أن نقول: نحو خمس العرب، فى نحو ثلث مساحة الوطن العربى، على ربع رقعته الزراعية تعطى أكثر من نصف قطنه، وأقل قليلا من نصف حبوبه، وزهاء ثلث بتروله، أو أخيرا بصيغة العدو وبألفاظه صحت أو لم تصح ــ اقرأ: ١٢ مرة عدد العدو، وعمق استراتيجى يمتد من خليج الإسكندرونة إلى خليج قابس أو من جبال طوروس إلى جبال أطلس، ثم مليون مجند، ١٠٠٠ طائرة، ٢٥٠٠ دبابة!.

وذلك وحده يكفى لأن يضع الوزن السياسى للدولة الجديدة فى مكانها الدقيق من حسابات القوة الجيوبوليتيكية، إنها الدولة الرابعة عشرة فى العالم سكانا، إذ ليس هناك إلا ١٣ دولة ترجحها تعدادا، وهى بعد ثالثة أكبر دولة متوسطية من بين دول البحر التى تبلغ ١٢ دولة، ثم إنها الوحيدة التى تقع على ساحلين من سواحله، كما تكاد تسيطر بحريا على الحوض الشرقى منه، هذا فضلا عن ساحل طويل متنوع يمتد زهاء ٣٩٠٠ كيلومتر، ويترامى على أهم بحرين فى العالم القديم، المتوسط والأحمر.

وهنا يبرز إلى المقدمة الموقع الاستراتيجى الحاكم والأمر الذى تسيطر عليه الدولة، فهو قطب الاستراتيجية التقليدية فى العالم، وواحد من أخطر مواقعه الحساسة فى الاستراتيجية غير التقليدية.

والدولة الجديدة بعد هذا ممر البترول العربى بامتياز، يمثل ما تعد أكبر منتج عربى له، فهى تتولى مسئولية مرور ٩٠% من بترول المشرق إلى أوروبا.

ففى جانب تمثل سوريا مخرج بترول المشرق العربى حيث تحتشد فيها حزمة من الأنابيب تربو طاقتها على ٥٥ مليون طن، وفى جانب تجمع مصر بين القناة، التى وصلت طاقتها إلى أكثر من ١٧٠ مليون طن قبل العدوان، وبين الأنابيب التى ستحقق فى السنوات القادمة طاقة ٤٠ مليون طن ترتفع بعدها إلى ٨٠ مليونا.

وأخيرا فإن الدولة الجديدة هى شريان التجارة العالمية الأول ومحور تجارة المرور على البر وفى البحر، مثلما هى عقدة خطوط الطيران الحاشدة فى العالم القديم فإذا كانت مصر هى همزة الوصل وعنق الزجاجة بين الشرق والغرب، حيث تستقطب قناة السويس وحدها فى الظروف العادية ١٤% من التجارة الدولية، فإن

سوريا هى ممر التجارة العابرة ليس فقط للمشرق العربى ابتداء من الأردن (راجع مثلا الأحداث السياسية الأخيرة) حتى الخليج، ولكن أيضا حتى إيران وأفغانستان شرقا، وعلى الجانب الآخر، فإن ليبيا، التى يتقدم قطاع من ساحلها إلى الأمام كثيرا نحو أوروبا، ويتعمق قطاع آخر كأكثر ما يتعمق نحو قلب إفريقيا، تمثل حلقة أخرى هامة فى منتصف البحر المتوسط.

أما داخل الأسرة العربية الكبيرة، فواضح أن الدولة الجديدة هى بسهولة كبرى الدول العربية مساحة، وأضخمها سكانا، وأغناها اقتصادا، وطليعتها سياسيا، ورأسها حضاريا، وأخيرا قلبها جغرافيا.

وهنا نلاحظ أن الدولة تشمل الوحدتين السياسيتين العربيتين اللتين كونتا معا أول دولة عربية موحدة فى العصر الحديث، واللتين كانتا دائما منطقة النواة فى الوحدة العربية عبر العصور السابقة، ومثلتا خط الدفاع الأول والأخير عن العروبة، وهما سوريا ومصر، ولكن الدولة الجديدة تعد بعد هذا وفى آن واحد امتدادا لدولة الوحدة الثنائية، فقد اتسعت لتضم إلى جانب إقليميها الجمهورية الليبية لأول مرة.

وهنا تبرز مصر وهى القاسم المشترك بين الوحدتين، الوحدة الثنائية القديمة، والاتحاد الثلاثى الجديد، هذا بينما تبرز الدولة الجديدة بتكوينها الثلاثى وهى تضع قدما فى آسيا وقدما فى إفريقيا، وتعد بذلك أول تجمع عربى فى التاريخ الحديث يربط بين المشرق والمغرب العربيين فى وحدة سياسية لاحمة، ناسخة بذلك الثنائية الشكلية التى قامت طويلا داخل الوطن الكبير، ودولة الاتحاد فى ذلك كله ترمز إلى كيان العالم العربى كله بعامة، وتعد تصغيرا جغرافيا له، يمثل ما تشكل بذرة ونواة الوحدة الشاملة المأمولة.

أما من حيث الحدود، فإن الدولة بتكوينها تتاخم وتشترك فى الحدود مع جميع الدول العربية الأخرى، فيما عدا المغرب فى أقصى الغرب ودول الجنوب العربى فى أقصى الجنوب، وفيما عدا العدوة إسرائيل، فإن مصر وحدها هى التى لا جيران لها إلا عربا، ولا حدود لها إلا مع عرب، بينما تتاخم كلا من سوريا وليبيا جارة غير عربية، ولكن من حسن الحظ فى الحالين أن التخوم تمثل عوائق طبيعية فاصلة وقوية، هى جبال طوروس وجبال تيمى على الترتيب، بينما لحسن الحظ الأكثر لا توجد عوائق مماثلة على الضلع العربى المقابل.

قضية الفاصل الأرضى:

ولعلع أبرز حقيقة بعد هذا فى تركيب الدولة الجديدة هى شكلها الجغرافى، الذى يثير قضية الفاصل الأرضى.

انظر إلى ساحل الركن الجوبى الشرقى للبحر المتوسط، تجده يرسم عند رفع سيناء ضلعين مستقيمين متعامدين فى زاوية قائمة، ثم تصور الآن قوسا يوازى هذا الساحل ويزداد ابتعادا عنه كلما اتجهنا غربا. تلك هى الحدود العريضة لجسم الدولة السياسى.

غير أنه بعد ذلك ينقسم داخلها إلى كتلتين منفصلتين: كتلة صغرى شبه مثلثة هى سوريا على الضلع الشرقى، وكتلة ليبيا ــ مصر الكبرى المستطيلة الشكل على الضلع الجنوبى، وبين الكتلتين ليس ثمة اتصال أرضى، فعدا البحر، هناك الفاصل الأرضى فى منطقة فلسطين المحتلة وما حولها، بعمق يناهز ١٧٠ ميلا كما يطير الطائر، فهل لهذا من مغزى جيوبوليتيكى أو جيوستراتيجى؟

نبادر فنقول إن هذا الانشطار الأرضى لا يشكل نقطة ضعف فى كيان الدولة الطبيعى، كما قد يرجف أعداؤها فى الخارج والداخل، وليس الاتحاد ــ مثلا ــ "باكستانا عربية" بأى معنى. ذلك أن الفاصل الأرضى هنا ليس أصيلا فى النسيج

الجغرافى للمنطقة، بل عارض دخيل هو مهما استفحل وطال، مجرد إسفين سرطانى ما قام ولا أقيم أصلا وأساسا إلا ليمزق هذا النسيج بعينه وليدمر صميم الوحدة الجغرافية للوطن العربى، بينما بالمقابل ما قام الاتحاد الجديد إلا ليحتويه، ليصححه وفى النهاية ليصفيه.

وإذا كان هذا الفاصل عقبة اتصال فى الوقت الراهن بين جناحى دولة الاتحاد، فإن الطريق البحرى أرخص وأسهل، وهو الطبيعى دائما، وفى هذا فإن حكم الدولة الجديدة لا يعدو ــ مؤقتا ــ أن يكون حكم الدول الأرخبيلية المتعددة الجزر، بل والبسيطة منها كبريطانيا التى لا تقاس بتلك الأرخبيلات المعقدة التى تتفتت بين مئات الجزر وربما آلافها.

ومن الناحية الأخرى فإن هذا الانشطار الجغرافى هو بعينه الذى يضع العدو بين فكى كماشة، ويمزقه وقواه على جبهتين عسكريتين متراميتين وفى الوقت نفسه متباعدتين بقدر ما لكل منهما من عمق استراتيجى كثيف، وإذا كنا من أسف لا نستطيع فى الوقت الحالى أن نقول، كما قال يوما كاهن إسرائيل ورجل السحر الأسود فيها بن جوريون، أن الدولة الجديدة تجعل العدو "كالبندقة فى الكسارة"، فإن الوظيفة الأساسية والرسالة العاجلة لها إنما هى بالتحديد والضبط أن تضع الأمور فى نصابها الطبيعى، وتضع معها العدو فى مكانه الطبيعى.

ولنا أن نقول بأمل إن لم يكن بثقة: ليست دولتنا الجديدة جزيرتين مشطورتين سياسيا بقبضة العدو، وإنما دولة العدو هى الجزيرة المحصورة بين جناحينا وفى قبضتنا.. والأيام بيننا.

هذه الجغرافية[1]

من أبرز خصائص التفكير الجغرافى المعاصر الاهتمام الملتهب بهذا السؤال البسيط ما هى الجغرافية؟ وهذا فى الواقع رد فعل طبيعى لحالة البلبلة الفكرية والخلط الذى يَرِين على معظم الأعمال الجغرافية، فكلنا يدرك تماما أن الجغرافية علم يدرس ظاهرات عديدة قد تختلف تماما، وبذا لا يصبح موضوعه متجانسا بل متنافرا يجمع الأضداد، كما أنه كذلك ولذلك يجمع مادته الخام من كل العلوم على الإطلاق، ولهذا وجد أصحاب الجغرافية أنفسهم متهمين أمام أصحاب العلوم الأخرى كلها باتهامات خطيرة حقا تهددهم فى صميم كيانهم:

الاتهام الأول: كيف يمكن لعلم واحد أن يدرس فى وقت واحد كل الظاهرات المتنافرة كالصخور والقبور، والأديان والسكان، والسلالات والعادات، والسياسة والفراسة والغابات والغزوات، إن العلم الذى يجمع بين كل ذلك لا يمكن أن يكون علما متجانسا لأن ظاهراته متنافرة متناقضة! بمعنى آخر، أين الوحدة الداخلية الأساسية فى هذا العلم؟ إن لكل علم موضوعا معلوما فللاقتصاد ظاهراته الموحدة وللكيمياء مجالها الموحد وهكذا.

الاتهام الثانى: إذا كان هذا العلم المزعوم يستمد مادته الخام بلا استثناء من العلوم الأولية المعنية، فما وجه الأصالة والجدة فيه؟ ما الذى يميزه عن تلك العلوم الأولية؟ بمعنى آخر ما الذى يعطيه استقلاله وتفرده كعلم؟ ومن هنا جاء الاتهام بكونه علم عالة على غيره، علم طفيلى متلصص.

إن العلم الصحيح تماما كالدولة السليمة يقوم على أساسين: الوحدة الداخلية بين أجزائه المختلفة، والاستقلال الخارجى عمن سواه.

---

[1] **مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – عدد ديسمبر ١٩٥٧م.**

هذه الاتهامات الموجهة إلى الجغرافية لم تأت من الخارج فحسب، بل إن كثيرا من الجغرافيين النابهين أعلنوا شكوكهم الخطيرة، بل إن جغرافيا كبيرا أعلن فى خاتمة حياته أنه بعد طول المطاف والرحلة فى المادة انتهى إلى أنه لم يجدها وقرر أن يبحث لنفسه عن عمل آخر!!

إزاء هذه الشكوك واليأس والسخط كان طبيعيا أن يطغى الاهتمام بالميثودولوجيا أى بفلسفة المادة والمسائل المنهجية على المادة نفسها، وقد كان للمدرسة الألمانية وعلى رأسها فيلسوف الجغرافية الأكبر الفرد هنتر القَدَح المُعَلَّى فى ميدان هذا الجدل المنهجى، فقد بدأ هذا الجدل منذ أوائل القرن الحالى وتوجه هنتر بكتابه المشهور عام ١٩٢٧ Die Georgaphie Ihre Geschiche, Ihr Wesen und Ihre Methoden وبه تحددت ماهية الجغرافية فى تحديد جمع المدرسة الألمانية جمعاء على كلمة سواء بحيث أصبحت تمثل جبهة واحدة، وأصبح هذا العمل بمثابة إنجيل المادة.

والآن ما هى الجغرافية؟

١ ــ قالوا: إن الجغرافية هى علم الكوكب الأرضى وذلك لأنهم اتبعوا المعنى الحرفى لكلمة Erkunde فى الألمانية والمقطع Geo فى جغرافية، ومعنى هذا أن تدرس الأرض ككل أو ككوكب أى من وجهة نظر فلكية. وهذا خطأ واضح، ولا زال أثره باقيا فى شكل الجغرافية الفلكية أو الرياضية المزعومة فهى ليست جغرافية ولكنها جزء من العلوم الفلكية وقد ألقى بها الجغرافيون منذ أمد طويل، والمهم أن اهتمامنا بالأرض فى الجغرافية لا يأتى من ناحيتها الفلكية ككوكب وإلا لماذا لا نسمع جغرافية المريخ، إن الأرض تنفرد بين الكواكب بعنصر هو الذى يعطيها قيمتها للجغرافى: الحياة والإنسان، ولهذا فإن الجغرافية لا تدرس الأرض ككوكب ولكن تدرس فقط سطح الأرض الذى نعيش عليه فى حدود ما "نخبر" فى

الغلاف الغازى من أعلى وفى أعماق الأرض من أسفل، وهكذا نجد أن المدلول الحرفى لكلمة جغرافية هو اسم على غير مسمى.

٢ ــ قالوا أيضا: إن الجغرافية هى علم وصف الأرض، ويكفى أن نذكر كلمة الجغرافية الوصفية ولكن الوصف ليس بعلم، فهو يرتد بالجغرافية إلى جغرافية الرحلات والطبوغرافيا أو جغرافية الرءوس والخلجان بما فيها من غرائب الأقطار، ولو أن الوصف أساس لكل علم لأنه يقدم المادة الخام إلا أنه وحده لا يكفى لأنه سطحى أجوف غير تعليلى تحليلى، ولا يعطى وحدة داخلية للظاهرات المختلفة كما أنه يدعو إلى الذاكرة لا إلى العقل.

٣ ــ قالوا: إن الجغرافية هى علم العلاقات أى العلاقة بين البيئة والإنسان، وهذا تعريف أخطر من سابقيه، لقد حاول كثير من الجغرافيين طوال تاريخ فهم العلاقات المركبة التى تقوم بين الظاهرات المختلفة التى يدرسونها فى المكان الواحد، العلاقات المركبة بين النباتات والفواكه والحيوان والمناخ والسكان والصخور والرياح.. إلخ، والواقع أنه كان لا محيص للجغرافيا منذ أن اتخذت مبدأ النسبية العلمية أساسا من أن تهتم بالعلاقات السببية التى تقوم بين ظاهراتها المختلفة، وحين ظهرت اتجاهاتنا إلى طرد الإنسان من الجغرافية اشتد الإقبال على فكرة العلاقات لأنها الضمان الوحيد لإعادة الإنسان إلى حظيرة الجغرافية. ولقد بدأ هذا الاتجاه والتوجيه على يد راتزل وإن لم يعرف هو الجغرافية بعلم العلاقات، واستمر التيار جارفا على يد من تبعوه حتى جاء باروز بتعريف الإيكولوجيا البشرية وقبله فلير وغيره، والغريب أن الاهتمام بالعلاقات فى ألمانيا مهد الجغرافيا عامة ومهد هذا التوجيه خاصة ولم يطل إلا لبضعة عقود، انقرض بعدها تماما فى كتابات الألمان المنهجية، هذا بينما انتشر التعريف خارج ألمانيا انتشارا هائلا وظل حتى وقت قريب جدا فى الجامعات ولازال متفشيا فى المدارس الثانوية التى تعتبر معقلا حقيقا لتعريف الجغرافيا كعلم العلاقات بين البيئة والإنسان، ولكن أثبتت

المدرسة الألمانية فساد هذا التعريف، وإن يكن الاعتراض ليس على دراسة العلاقات فى الجغرافية، ولكن على اعتبار هذه العلاقات وحدها موضوع العلم، ويمكن تلخيص نقد تعريف علم العلاقات فى أربع:

أ ـ يخلق هذا المذهب بطبيعته تعارضا لا مفر منه بين البيئة والإنسان، فإذا اعتبرنا البيئة الطبيعية هى العامل الجغرافى كما قيل فإن الجغرافية تصبح تأثير هذا العالم على الإنسان ـ أى تصبح جغرافية التأثيرات وجغرافية الضبط التى تتألف من سبب ونتيجة، من فعل ورد فعل، ضوابط طبيعية واستجابات بشرية: مثال البيئة جبلية إذن الحرية والاستقلال أساس التنظيم السياسى. البيئة بحرية إذن الديمقراطية أساس الحياة السياسية.. وهكذا.

ومعنى هذا أننا نبدأ بفكرة قبلية من الحتم البيئى الساذج والقدرية الميكانيكية لأن البدء من اعتبار العوامل الطبيعية لا يمكن إلا أن يؤدى إلى احتمالات فقط أما التقرير النهائى فمتروك أخيرا للإنسان، وعلى هذا فالطريق السوى هو العكس: أن نتخذ نقطة الابتداء من الظاهرات البشرية نفسها فنصنفها ونتتبعها إلى جذورها الجغرافية، فهذا أدنى إلى أن نتعرف على كل العوامل التى تدخل فى العلاقة وتقلل من خطر أن ننسب تأثيرا حتميا غير موجود حقا إلى العوامل البيئية.

ولهذا بعد أن كنا نسمع عن تلاؤم الإنسان للبيئة سمعنا عن ملاءمة الإنسان لبيئته وظهرت مدرسة الإمكانية محل الحتم. ولكن لا ننسى فى خِضَمِّ التعارض بينهما أن كلا منها مدرسة إيكولوجية، وأنه سواء أخذنا بالأولى أو الثانية فإن علما يدرس العلاقات إنما يأمر طالبه بالبحث عن مثل تلك العلاقات وإيجادها لأن النجاح هنا هو فى إبراز تلاؤم بيئى لا نفيه! وهذا يستلب الطالب موضوعيته وعدم تحيزه ويقوده به إلى الدوجماطيقية، وعلى العموم فإن الجغرافية كعلم العلاقات لا يمكن إلا أن تلقى إلى الغموض بعنصر النسبية الذى هو أساس فى فكرة السببية العلمية، فإذا

كان بعض غلاة الحتم قد أبرزوا هذا الخطر فإن رد الفعل بين بعض غلاة الحرية كاد يؤدى إلى خطر أشد وأنكى وهو نكران السببية العلمية بإنكار أى فاعلية للبيئة الطبيعية، والغريب أن منهج البيئات للصف الأول الثانوى يوجه المدرس إلى دراسة الصراع بين البيئة والإنسان!! ولكن لماذا الصراع إذ ينبغى ألا نخاطب التلاميذ عن البيئة كفاعل والإنسان كمفعول به أو العكس – إنما هما مضاف ومضاف إليه!!

ب – إذا كانت الجغرافية هى علم العلاقات والإيكولوجيا البشرية فإنها منطقيا لا تهتم بأى من الظاهرات الطبيعية أو البشرية إلا فى مدى علاقاتها بعضها ببعض، وحيث إن الجغرافية البشرية هى بالضرورة مشبعة بالعوامل الطبيعية فهى تحقق هذا الشرط ولذا تستقر فى صميم الجغرافية. أما الجغرافية الطبيعية فهى فى حد ذاتها ليست دراسة علاقات ولا تتعرض بالضرورة للإنسان وارتباطه بها. ولذا فليس هناك ما يفرض على الجغرافية منطقيا دراستها. بمعنى آخر تصبح الجغرافية هى الجغرافية البشرية، بينما تخرج الجغرافية الطبيعية طريدة من نطاق علم الجغرافية، فالجغرافية إذن هى بشرية على الإطلاق، وهذا الانتهاء المنطقى وصل إليه وعبر عنه بكل وضوح وقوة مجموعة من الجغرافيين اليابانيين الذين أعلنوا أن الجغرافية الطبيعية لم تعد جزءً من الجغرافية وأن مكانها فى العلوم الأخرى وأن ما يتبقى للجغرافية هو على الإطلاق الجغرافية البشرية، ويعلق البعض على هذا بأننا نريد أن نأخذ الـ Geo من الجغرافية! فهل هناك من هو مستعد لتحمل تبعة إلقاء الجغرافية الطبيعية كلية خارج الحظيرة!! إن استبعاد الجغرافية الطبيعية لا يمكن أن يكون دعوة جدية لأن دراسة تلاؤم الإنسان والبيئة تتطلب معرفة البيئة، وأى جغرافية بشرية لا تقوم على أساس صلب من الجغرافية الطبيعية لا يمكن إلا أن تكون قائمة على الرمال. وهل قبل ظهور الإنسان من ناحية، وفى المناطق الخالية تماما من السكان من ناحية أخرى، أليس هناك "جغرافية"؟ ألم يكن للأمازون

جغرافية بحتة قبل الكشف؟ كيف نعلق وجود علم "أشياء" على وجود أو عدم وجود الإنسان، أفى البدء كانت الجغرافية أم التاريخ؟..

جـ ــ هل يمنح تعريف العلاقات العلم وحدته التى لا غنى عنها، إن التنظيم الوحيد الممكن لمادة علم العلاقات هو تصنيف مجموعات العلاقات وتأثيرات البيئة على الإنسان إلى فئات بحسب كل واحد من العوامل الطبيعية فيكون هناك فصل لتأثير المناخ على الإنسان وآخر للتضاريس.. وهكذا ولكن فى كل من هذه الفئات لا نجد أساسا لتنظيم موحد لكل أنواع العلاقات المختلفة ولذا لا يمكن لهذه الفئات أن تتميز بوحدة فيما بينها كذلك يتمخض هذا التنظيم عن موسوعات ضخمة أشبه بالكاتالوجات وأخيرا يؤدى إلى تشتت العلم. فمثلا نجد فى كتاب البيئة المقرر على الفرقة الأولى الثانوية أو فى أى كتاب مشابه إما أن الشيء الوحيد الذى يربطه بالبيئات هو العنوان الخارجى وإما مادتها فبينما نجد الكتاب يتكلم عن بيئة الجبال (أساس طبيعى) نجده يتعرض للبيئة الزراعية (أساس اقتصادى حِرَفِى) ثم عن بيئة البحر المتوسط (مجرد منطقة معينة) فأين الوحدة فى كل هذا الخلط؟!

د ــ هل يمنح التعريف الإيكولوجى للجغرافية استقلالها وكيانها المستقل كعلم منفرد متمايز عن بقية العلوم، إن كل العلوم الأولية التى تدرس الإنسان لابد أن تقيم علاقتها مع طبيعة سطح الأرض إن أرادت أن تتفهم الأحوال الاجتماعية المختلفة للمناطق والأماكن المختلفة ــ فللتاريخ بل عليه أن يدرس العوامل الطبيعية لتفهم الحوادث المنفردة كخط سير حملة أو التغيرات الإقليمية فى معاهدة صلح.. أو لتفهم مجرى التاريخ عامة. ولا يمكن لعالم الاجتماع أن يتجاهل البيئة التى يقع فيها المجتمع. فدراسة العلاقات الإيكولوجية لا يمكن أن تكون حكرا لعلم.

وهذه النظرة الإيكولوجية إلى الجغرافيا هى التى أدت إلى اعتبارها فى الدوائر العلمية الخارجية طفيلية فضولية لا كيان لها أو استقلال لها.

والخلاصة أن علما مستقلا لا يمكن أبدا أن يتخذ موضوعه مجرد العلاقات السببية، ولكن ينبغي أن يضع نفسه نصب دائرة معينة من الحقائق يحددها أولا ثم يسعى بعدها وراء العلاقات السببية، ولا شك أن فكرة الجغرافية كدراسة للعلاقات قد فشلت فى أن تمد المادة بأهداف ملموسة كافية أى بظاهرات محسوسة لدراستها أو بنظام أو منهج خاص متميز، والسبب فى هذا حقيقة كبرى أهملت تماما فكان الخلط والبلبلة، وهى أن الإيكولوجيا ليست علما ولكنها منهج بحث علمى.

٤ ــ هل الجغرافية بعد ذلك هو علم التوزيعات كما قالوا؟ اقترح البعض أن الجغرافية هى أساس علم التوزيعات ــ علم هدفه دراسة توزيع الظاهرات المختلفة منفصلة أو متصلة على سطح الأرض، ولكن لهذا التعريف مثالب ثلاثة:

أ ــ إذا كانت الجغرافية علم التوزيعات فما حدودها، إن كل شيء على سطح كوكبنا يقع بالضرورة فى مكان! أى أن لكل شيء توزيعا! وهكذا تصبح الجغرافية بحرا لا ساحل له، من دخله كان مفقودا ومن خرج منه كان مولودا! إذ تشمل كل ما على الأرض وكل ما تحت الشمس ويصبح لا مانع من أن ندرس فى الجغرافيا توزيع المدارس الأدبية أو توزيع حقوق المصير فى العالم أو توزيع الجوارب النايلون!! بمعنى آخر هذا التعريف لا يخبرنا أى الظاهرات يمكن أن تعتبر ذات مغزى جغرافى أى أنه فاقد للأساس الانتخابى للظاهرات وهو بذلك جدير بأن يخرجنا عن نطاق الجغرافية. فهذا التعريف أكثر من جامع وأقل من مانع، وفى ظله تصبح الجغرافية علم سطحى لا يمكن أن يكون محترما لأنه يستهدف معرفة كل شيء عن كل شيء.

ب ــ لا يعطى هذا التعريف الجغرافية وحدتها فالتوزيعات تجمع بين ظاهرات متنافرة كل التنافر بين صخور ومياه وهواء وتيارات ومحاصيل وعادات ولغات وأجناس.. والتوزيع فى حد ذاته لا يمدنا برباط مشترك من الاهتمام، وفى

ظل هذا التعريف يفتح الباب على مصراعيه لاتهام الجغرافية بأنهـا مجـرد علـم مركب وأنها ليست أكثر من أجزاء من العلوم الأخرى.

جـ ـ لا يعطى هذا التعريف للمادة استقلالها العلمى لأن التوزيع ليس حكرا للجغرافية بل هو خاصية للأشياء ولذا ينبغى أن تدخله العلوم الأولية فى دائرة بحثها وعرضها فعالم الحشرات أو النبات أو الجيولوجيا أو الاجتماع أو هاوى الطوابع أو العملة فى حاجة إلى التوزيع إذ من الممكن توزيع ظاهراته على خريطة للعـالم أو لجزء منه، وذلك حتى يصل إلى فهم أكمل وأفضل لقوانينها العامة، فالعلوم الأولية وإن تكن قياسية إلا أنها تحتاج إلى استعمال الطريقة التوزيعية الاسـتقرائية لسـبب منطقى بسيط: وهو أنه لابد للقياس من الاستقراء. فالعلماء الأصوليون إذا وزعـوا ظاهراتهم مكانيا لا يصبحون بذلك جغرافيين، ودعوى التـوزيعيين مـن احتكـار دراسة التوزيعات تناظر تماما دعوى الإيكولوجيين من احتكار دراسة العلاقات، فلا العلاقات ولا التوزيع بحكرٍ للجغرافية، بل كلاهما مشاع بين كـل العلـوم، لا ولا يمكن لأى منهما أن يمنح الجغرافية كيانا مستقلا، وكلاهما ببساطة مـنهج للبحـث العلمى، والتوزيع والإحصاء صِـنوَان: فالجـدول الإحصـائى خريطـة رقميـة، والخريطة التوزيعية جدول مرسوم! وليست الخريطة التوزيعية حكـرا للجغرافـى أكثر من الإحصاء للإحصائى..

ما هى الجغرافية إذن؟

بعد رحلة طويلة مضطربة عادت سفينة العلم على أعقابهـا لتسـتقر علـى تعريف كلاسيكى قديم للجغرافية ـ علم الكورولوجيا أو الكوروجرافيا كمـا قـال سترابو، والكلمة مشتقة من Chore الإغريقية أى منطقة أو إقليم، ومن حسن الحظ أن هذه الكلمة لا تعتبر غريبة على اللغة العربية بعد أن دخلتها عن طريق الفارسية على الأرجح وتعربت فى صورة كلمة كورة، وكانت الكورة كمـا هـو معـروف

أساس للتقسيم الإدارى لمصر فى كثير من فترات العصور الوسطى، ولازالت تستعمل فى بعض أجزاء العالم العربى حتى اليوم، وقد بعث التعريف الكورولوجى هذا هتنر، ومعنى هذا أن كل قصة الجغرافية تتلخص فى كلمة واحدة عود على بدء! ومعنى التعريف الكورولوجى أن عمل الجغرافى هو أن يطالع سطح الأرض المتفارق المختلف بطبيعته من رقعة إلى أخرى، فيستشف منها ويتعرف فيها على كل واحدة تفارقية ذات شخصية متميزة عن سواها فيحددها ويحدد محتوياتها ومقومات تلك الشخصية وأسبابها، والإقليم منطقة متجانسة داخليا متنافرة خارجيا، فهو يضمن الوحدة الداخلية للعلم، فلم يعنيهم عدم تجانس الظاهرات المختلفة العديدة، سواء الطبيعية أو البشرية، التى تملأ "الإقليم"، وهو يضمن استقلال العلم لأنه ليس هناك علم آخر يختص بدراسة الإقليم وتباين الأرض فى أقاليم. والكورولوجيا بهذا تناظر التاريخ فوحدة الجغرافية الإقليم ووحدة التاريخ الفترة كلاهما يستعيد حقائقه اللامتجانسة من العلوم المختلفة ولكن يوحد بينها ويمنحها استقلالها فى هذا الإطار المكانى أو الزمانى. فلا تنساح الجغرافية كلعلم التباين الأرضى إلى مالا نهائية لأننا ننتخب الظاهرات التى تساهم فى إعطاء الشخصية للإقليم فإذا كانت بشرية ننتخب تلك التى لها علاقة إيكولوجية ثابتة بالأساس الطبيعى، ومعنى ذلك أن الكورولوجيا تستوعب وتستخدم العلاقات الإيكولوجية كمقياس لتحديد المغزى الجغرافى للظاهرة البشرية التى تعرض لنا، فمثلا تعدد الزوجات حقيقة اجتماعية إلا أن هذا التعدد قد يختلف من منطقة إلى أخرى، فهل لهذا الاختلاف قيمة جغرافية؟ وهل ندرسه كأحد العناصر والمقومات التى تساهم فى تمييز المنطقة عما سواها؟ إذا لم تكن الفوارق فى نسبة تعدد الزوجات راجعة إلى أسباب وأصول جغرافية قائمة فى البيئة الطبيعية، ولكنها مجرد فوارق عشوائية بالصدفة، فليس لها أى قيمة جغرافية وتنبذ من عناصر دراسة الإقليم. ولكن لابد أن نبحث العلاقة الإيكولوجية أولا ولنضرب مثلا: فى وسط الدلتا ترتفع النسبة فى

الشمال، فى مراكز (البرارى)، ويمكننا بالاستقصاء والاستفتاء أن ندرك تماما أن السبب فى ذلك هو الحاجة إلى الأيدى العاملة لاستصلاح الأرض، وأن القيمة الاقتصادية للأسرة تكاد تتناسب تناسبا طرديا مع حجمها، ولذا يلجأون بوعى هادف إلى تعدد الزوجات، هنا تقوم للظاهرة الاجتماعية دلالة جغرافية، فهى تعبير بشرى عن قوى طبيعية كامنة، وكثيرا ما تكون الطبيعة خرساء، ولكنها تتكلم خلال الإنسان وعلى لسانه.

هكذا تتحدد العناصر التى تدرس فى الإقليم، ولا شك أن تركيب العناصر المختلفة على بعضها البعض لتكون الإقليم عملية صعبة معقدة ولكنها لا تمنع من أن الإقليم هو قلب الجغرافيا، ويجب أن يسود فى جميع مراحلها وفروعها، فمثلا فى الجغرافية الاجتماعية لا ندرس العلاقة المطلقة بين البيئة والإنسان فهذا علم الاجتماع، وإنما نسعى إلى تمييز أنماط اجتماعية متمايزة محددة فى إطارات إقليمية، أى نسعى إلى استجلاء وتحديد الشخصيات الاجتماعية إقليميا، بشرط أن نرد مقومات هذه الشخصية الاجتماعية إلى أصول بيئية مباشرة أو غير مباشرة فمن منها لا ارتباط إيكولوجى له استبعدناه من هذه الشخصية باعتبارها غير ذات موضوع أو دلالة جغرافية.

تخطيطنا الإدرى

فى ضوء نظام الحكم المحلى

الإقليمية والحكم المحلى[١]

قل أن تعرض كاتب من الشرق أو الغرب للتاريخ المصرى أو لشخصية الإقليم المصرى دون أن يصر بإلحاح – إن عرضا أو تعريضا – على طغيان المركزية العنيفة فيه، ويتلمس الكثيرون تفسيرا لهذا إما صورة الإقليم كوادٍ واحىٍ وإما طبيعته الجغرافية كبيئة فيضية. وكانت المركزية الإدارية هى الترجمة الاجتماعية لتلك المركزية الطبيعية. فكانت البيروقراطية – كما يقول عالم جغرافى كبير[١] – عنصرا أساسيا فى موكب الحضارة المصرية منذ القدم، وكانت المركزية قديمة قدم الأهرام.. وفى عصرنا الحديث ومع احتكاكنا الحضارى بالعالم الغربى لم يحدث سوى أن تضاعفت هذه المركزية كما لو كانت بالربح المركب حتى أصبحت خطرا حقيقيا على التوازن الإقليمى فى البلد، وباختصار اتخذ هذا التركيز صورة تضخم مرضى فى العاصمة أو العاصمتين مع ضمور وهزال فى الأقاليم، مثلا كانت العاصمتان القاهرة والإسكندرية تحتكران فيما بينهما فى ١٩٤٧ نحو ١٥,٨% من سكان مصر، ارتفعت فى تعداد ١٩٦٠ إلى ١٨,٧% أى نحو خمس الإقليم بمجموع قدره نحو (٥) مليون نسمة، وهكذا يبدو أن الدولة كانت تختزل بسرعة متزايدة إلى مدينة عاصمة كبرى تحيط بها الأقاليم كضاحية شاسعة لها، ومثل هذه فلسفة إقليمية ضيقة الأفق، قصيرة النظر: إنها اللاإقليمية Irregionalism فى أعلى – أم هى أدنى؟ – مراحلها. ذلك لأنها لا تؤدى إلا إلى وأد الأقاليم وذبولها، وتجعل منها أعضاء من الدرجة الثانية أو الثالثة فى جسم

---

(١) **مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – عدد يونيه ١٩٦١م.**

(1) Stamp, L.D., Arfica, 1959. p. 208; Cf. Issawi, Ch., Egypt At Mid – Gentury, p. 5.

الدولة، إنها تحول المعادلة الإقليمية ببساطة إلى رأس كاسح وجسم كسيح، ولقد كانت الشكوى دائما من تأخر ريفنا وتخلفه الحضارى مجرد تحصيل حاصل، فكان ريفنا بلا مغالاة صحراء حضارية ــ كان "صحراءنا الخضراء" كما قد نقول..

فى ضوء هذا الإطار يمكننا أن ندرك مغزى التنظيم الجديد للحكم المحلى، إنه يمثل نقطة تحول جذرى فى الفلسفة الإقليمية للدولة، ويرسم بوضوح الخطوط العريضة "لجغرافية إدارية" جديدة، ويعيد تشكيل ما يمكن أن نسميه "بالجغرافيا السياسية الداخلية"(١) للإقليم. فالدولة تنظر الآن إلى وحداتها الصغرى ــ أى أقاليمها الإدارية ــ التى يتألف من مجموعها نسيج الدولة، تنظر إليها نظرة أفقية لا رأسية، نظرة تعطى لكل أجزائها وأعضائها ــ يعنى أقاليمها ــ قيما بشرية ومن ثم تشريعية متكافئة، وما من سبيل إلى هذه "العدالة الإقليمية" إلا بأن نعيد توزيع الأوزان والأثقال الحضارية والبشرية بين أجزاء الإقليم، وليس من سبيل إلى تحقيق هذا إلا بالحكم المحلى Local Government إن الحكم المحلى أساسا هو عملية "إدالة Devolution" للسلطة من مركز واحد إلى عديد من المراكز الثانوية، إنه ــ بلغة هربرت سبنسر ــ عملية من إعادة التوزيع Redistribution عن طريق اللامركزية، وبمقتضاه يعود جانب من السلطة والتقرير إلى حيث ينبغى له ــ وحيث ينتمى ــ إلى الأقاليم وأبناء الأقاليم. فالحكم المحلى هو الشكل القانونى لمبدأ "الإقليمية Regionalism" الذى هو مبدأ جغرافى جوهرى فى فلسفة المكان السياسية ويعد الترجمة الجغرافية للاشتراكية السياسية، والنتائج البشرية والعمرانية لهذا الشكل الإدارى الجديد لها خطرها العظيم، فهى ستخلق نويات جديدة للحضارة والثقافة، للمرافق والخدمات، للعمران والنشاط، تلك هى عواصم المحافظات الجديدة، منها تنفث الحياة الاقتصادية والتوجيه الفكرى فى أقاليمها مما يرفع مستوى المعيشة والدخول ويرقى بالمناخ الحضارى ويرسب خميرة حية للحياة الإقليمية

---

(1) Moolie, A. E., Geog. Behind politics, Lond., 1947, p. 34.

المزدهرة هذه العواصم البراعم لا شك ستأسر جزءً من النمـــو والتضـــخم الـــذى تحتكره المليونية ــ أو المليونيرية! ــ الضخمة كالقاهرة والإسكندرية لتعيد صـــبه فى أعصاب الأقاليم وشرايينها، وبذلك تحل مشاكل التخمة العمرانية والاكتظاظ بل الاختناق البشرى والاقتصادى فى الأولى كما تحل فى نفس الوقت مشاكل التنميـــة الإقليمية" و"التطوير الإقليمى" فى الأقاليم، ولعل أروع نتائج ومظاهر الحكم المحلى باعتباره فى التحليل الأخير عملية من إعادة التوزيع أنه إعادة توزيـــع للميزانيـــة القومية، ففيما عدا بنود الميزانية الخاصة بالدولة ككل كالدفاع والشئون والتجـــارة الخارجية، فإن ميزانية الخدمات ستتخذ نمطا جغرافيا جديدا ينقل قطاعا كبيرا مـــن الاستثمارات الرأسمالية للدولة إلى الأقاليم. إن الحكم المحلى يعنى تـــوًا جغرافيـــة جديدة لتوزيع ميزانية الدولة توزيعا إقليميـــا هـــو أدنـــى إلـــى العدالـــة المكانيـــة والديمقراطية الإقليمية.

أهمية التخطيط الإدارى:

ولسنا نريد فى هذا المقال أن نحلل بأكثر من هذا الإيجاز المغزى الإنســـانى لمبدأ الإقليمية والواقع العملى للحكم المحلى على الحياة اليومية للمواطن(١). ولكنـــا نود أن نوضح أنه مادام هدف الحكم المحلى هو خلق وحدات إقليمية حية Viable متطورة، فإنه يصبح من الضرورى أن تكون الإطارات التى تقع فيها هذه الوحدات صالحة لتحقيق هذا الهدف، بمعنى آخر: أن الحكم المحلى يثير موضوعا هاما هـــو التقسيم الإدارى، إن النمط الإدارى هو بطبيعة الحال الإطار الشكلى الذى يحتـــوى مضمون الحكم المحلى، وهذه الإطارات والقوالب أى حدود الأقسام الإدارية ينبغى أن تكون مرنة كل المرونة متطورة غاية التطور. إنها ليســـت أقفاصـــا حديديـــة

---

(١) يمكن مراجعة الموضوع بتفصيل فى: جمال حمدان، جغرافية المدن، القاهرة ١٩٦٠م، الفصـــل الخامس عشر.

"Procrustean beds" تخضع لها الحقائق البشرية وواقع نشاط المجتمع وحركاته ومصالحه، بل هي تابع لشكل تركيب المجتمع وتوزيعه وتشكيل حياته اليومية ومصالحه المتغيرة، ولذا يجب أن تكون حساسة جدا تعكس صورة الغطاء البشرى ولا تعاكسه، وتلائمه ولا تؤلمه، ولهذا أيضا لا ينبغي لها أن تكون إرثا جامدا محافظا، بل يجب أن تمثل شبكة ديناميه "متعضونة" ــ كما يقول البيولوجيون ــ مع حقائق المجتمع المعاصر وتوزيعات الحياة المتغايرة، فالخطة الإدارية إذن تتحدد في التحليل الأخير بنمط السكنى وخطوط العمران الرئيسية بشقيها من أساس قاعدى (وهو توزيع السكان) ومن قمم بؤرية (وهى المدن الكبرى) ويترتب على هذا أن تحليل وتقييم ــ إن لم يكن تخطيط ــ التقسيم الإدارى في منطقة ما هو جزء من عملية تنضيد المجتمع في إطاره المكانى ومن ثم جزء أساسى في عمل الجغرافي؛ هو جزء من "الخبز اليومى" للمخطط الإقليمى، ونوع من "الهندسة الجغرافية" للجغرافى التطبيقى، ولنا على هذا الأساس أن نتساءل عن مدى صلاحية تقسيمنا الإدارى الحالى كإطار يحقق فيه الحكم المحلى وظيفته.

ولكن لنبدأ أولا من البداية؛ ما هى الوحدة الإدارية المثلى؟ هل لها شروط ومعايير موضوعية ومواصفات عالمية واضحة السمات والقسمات؟ لن نفعل في هذا الصدد خيرا من أن نستعير من فوست Fawcett أسسه الستة الموجزة التى حددها منذ أكثر من ٤٠ عاما ــ دون أن تفقد جدتها أو جديتها ــ في عمله الريادى التاريخى Provinces of England[١].

---

(1) Fawcett, G.B., Provinces of England, Lond., 1919, pp. 70 – 82.

ـ ينبغى ألا تتدخل الحدود فى حركة السكان ونشاطهم اليومى، فلا تفصل بين مكان العمل والسكن وتعطل بذلك نمو ولاء محلى مفيد، ولهذا ينبغى أن تتبع خطوط أو مناطق تخلخل السكان لا كثافتهم.

ـ ينبغى أن يكون لكل وحدة عاصمة حاسمة تكون مركزا "وخميرة" للحياة الإقليمية بكفاءة وفاعلية حضارية عالية، ويجب أن تتوسط العاصمة الوحدة ليسهل الوصول إليها من كل أجزائها ضمانا لتحقيق التكامل الاقتصادى للوحدة.

ـ ينبغى لأصغر وحدة أن تكون من الحجم بحيث تبرر الحكم المحلى، فيجب أن تشمل من الموارد والإمكانيات والخبرات ما فيه الكفاية.

ـ لا ينبغى لأى وحدة أن تكون من الضخامة فى عدد سكانها بحيث تسيطر على غيرها، بل يحسن أن تتساوى الوحدات بقدر الإمكان فى المساحة والسكان.

ـ ينبغى للحدود أن تتبع خطوط تقسيم المياه لا مجارى الأنهار أو أن تقطع الأودية، وحيث السطح مستوٍ ينبغى على الأقل أن تتعرج الحدود بلا داع أو تعقيد.

ـ ينبغى للتقسيم الإدارى أن يحترم الولاءات والتقاليد المحلية ويشجعها وأن يعمل على بلورة شعور الفخر والعزة الإقليمية الصحية وهى غير النعرة المحلية المريضة(١).

وواضح أن مجموع هذه الأسس يجسم لنا الوحدة الإدارية المثلى كرقعة من الأرض والسكان تتشابك مصالحها أكثر ما تتشابك فيما بينها وأقل ما تتشابك فيما بينها وبين غيرها، فيجب أن تتبلور حول، وتنطلق نحو، رأس مركز يتوسطها جغرافيا ويحقق لها التكامل الاقتصادى المعقول، والمدينة الكبيرة العاصمة هى نواة الوحدة الإدارية فى مجتمعنا الحديث وفى كل مجتمع حديث، ويجب لذلك أن تكون

---

(1) Dickinson, R.E., City Region & Regionalism, Lond., 1949, pp. 245 ff.

نقط الابتداء ومحاور الأساس فى التخطيط والتقسيم الإدارى، وينبغى لكثافة السكان داخل الوحدة أن تقل تدريجيا كلما بعدنا عن هذه البؤرة المركزية وأن تدق نحو الأطراف حيث يحسن ــ مثاليا ــ أن تتخلخل تماما عند الحدود.

تخطيطنا الإدارى فى البؤرة:

ويستطيع الناظر إلى خريطة التقسيم الإدارى لمصر فى ضوء هذه الأسس أن يرى بسهولة أن نمطنا الإدارى سليم فى مجموعه وبصفة عامة، فلقد كان دائما حساس يعدل من حين لآخر بحسب تغيرات السكان وحركاتهم ونموهم. فنرى وحدات جديدة تخلق مع تزايد السكان وزحف جبهتهم كما فى شمال الدلتا خاصة حيث انشطرت محافظتان جديدتان هما كفر الشيخ ثم دمياط.

هذا عدا تعديلات جوهرية فى حدود المحافظات وفيض متصل من التعديلات فى حدود المراكز وأعدادها مثلا نجد أنه كان هناك ٧٩ مركزا فى مديريات مصر ١٩٠٧ ارتفعت حتى وصلت إلى ١١٧ فى الوقت الحالى فانشطار وتكاثر الوحدات الإدارية وظيفة مباشرة لزيادة السكان والكثافة حتى تظل كفاءة الضبط الإدارى والخدمات مكفولة، كذلك نرى أن وحداتنا تتبع بعامة منطق السكان وكثافتهم: فكلما زادت الكثافة قلت مساحة الوحدة. والعكس ــ أى تتناسب الكثافة والمساحة تناسبا عكسيا وذلك لتحقيق أمثل حجم سكانى ومساحة أرضية. وهذا مبدأ عالمى وأمر طبيعى. وتتضح هذه الظاهرة فى الدلتا حيث تزداد مساحات المحافظات كلما اتجهنا شمالا، وفى الصعيد نجد أن أسوان وهى أكثر المحافظات تخلخلا فى السكان، أعظمها امتدادا بصورة خاصا جدا.

ولكن من الناحية الأخرى لا يمكن للعين الفاحصة إلا أن تتعرف على بعض المثالب فى تخطيط شبكتنا الإدارية. فيؤخذ على تعديلات الحدود الإدارية المتواترة أنها كثيرا ما تحدث جزئية "وبالقطاعى" Picemeal بحيث تبدو ترقيعية أكثر منها

أصيلة جريئة، ثم هناك حالات معينة يبتعد فيها النمط الإدارى عن شروط الوحدة المثلى أو يتمسك فيها بالخطوط القديمة بصورة محافظة رغم "سيولة" الغطاء البشرى الحديث، ومع ذلك فمن الإنصاف أن نقرر أن الوراء الجغرافى والغطاء البشرى كثيرا ما يجابهان المخطط بحالات معقدة يصعب الاختيار فيها أو تتساوى إزاءها الآراء المتعارضة، وسنعرض لأهم هذه الحالات، وأغلبها ينصرف إلى دلتانا، أما الصعيد فلا يمثل بطبيعته مشكلة معقدة.

فالصعيد يمتاز بمورفولوجية شديدة البساطة ــ وربما بالغ البعض فقال ساذجة كما يرى مارش فيليبس الذى يقول "إن جغرافية الوادى صنعت للأطفال"[(١)]! فالوادى يمتد امتدادا خطيا وحيدا unilinear كالشق الضيق slot- Like بين هضبتيه، مع وقوع تسعة أعشار المساحة الزراعية ــ والسكان كذلك تقريبا ــ على الضفة الغربية، بينا يقع العشر الباقى فى الضفة الشرقية فى عقد منفرط الحلقات من الأحواض الطويلة الهلالية المنعزلة[(٢)] وعلى طول "شارع" السكنى الطويل المتصل فى الضفة الغربية، تنتثر المدن الرئيسية بتباعد منتظم انتظاما غريبا حقا، فالمدن فئة ٥٠ ألفا تتباعد ابتداء من بنى سويف إلى المنيا إلى أسيوط إلى التوأم المدنى ــ سوهاج ــ أخميم إلى قنا، تتباعد عن بضعها البعض بما يقرب جدا من ١٠٠ كم كما يطير الطائر، ولكن مع اختناق الوادى فى "الجنوب الأقصى" وضيق المعمور وانخفاض الكثافة يتضاعف هذا الفاصل إلى ٢٠٠ كم بين قنا وكوم امبو[(٣)].

---

(1) Philips. L.M., The Works of man, Lond., 1932.

(٢) جمال حمدان، نمو توزيع السكان فى مصر، القاهرة، ١٩٥٩.

(٣) راجع هذا بتفصيل فى:

- Hamdan, G., Studies in Egyptian Urbanism, Cairo, 1959, pp. 70- 1.

راجع أيضا نقدا لهذا العمل فى:

- Melamid, A., "Economic Development & Urban Geog.", Geog. Review, Jan., 1961, pp. 137 – 9.

بهذه الصورة المبسطة يتحدد التقسيم الإدارى، فأما الجنوب الأقصى قنا وأسوان فحالة خاصة، فتمتد محافظة قنا نحو ٢١٢ كم طولا بينما تزيد أسوان كثيرا على ٤٠٠ كم إلا أن جزءً كبيراً من هذا الامتداد الأخير يقع فى اللامعمور تماما، وفى كلا الحالين لا تأخذ العاصمة موقعا متوسطا، ولكن لا مفر من هذه الابتعادات عن مثل الوحدة الإدارية لأنها هنا جزء من الهيكل الجغرافى البحت للاندسكيب.

أما فى جذع الوادى الرئيسى بين القاهرة وثنية قنا فينبغى نظريا لكل محافظة أن تتركز حول إحدى المدن الكبرى كقطع أو شريحة من الوادى وأن تمتد نحو ١٠٠كم من الشمال إلى الجنوب وهذا هو مجموع نصفى فاصل التباعد الموحد السابق ذكره والواقعين على جانبى كل مدينة من المدن القواعد السابقة، وفى مثل هذا القطاع شديد الاستطالة ينبغى للعاصمة نظريا أن تتصف هذه المسافة حتى لا تضعف كفاءتها وفاعليتها فى الضبط الإدارى على الأطراف وحتى لا يسبب تطرفها الصعوبات والمشاق لسكن الأطراف فى حياتهم العامة وعلاقاتهم بالأجهزة الإدارية والواقع يتفق مع هذه المثل إلى حد بعيد. فكل من محافظات بنى سويف وأسيوط وسوهاج يمتد بطول متشابه جدا قدره نحو ١٠٦ كم، وفى كل من بنى سويف وسوهاج تكاد العاصمة تنصف طول المحافظة تماما، ولكن أسيوط تجنح كثيرا إلى الجزء الجنوبى من محافظتها. والشذوذ النسبى هو محافظة المنيا التى تمتد نحو ١٢٩ كم تجنح فيها العاصمة كثيرا إلى الجزء الجنوبى منها، وهنا يبدو أن التصحيح الوحيد الممكن لهذا الوضع هو فى ضم الطرف الشمالى الأقصى لمحافظة المنيا (مركز مغاغة) إلى محافظة بنى سويف. وسيلاحظ أن هذا ليس اقتراحا ثوريا: فمن قبل حتى سنوات مضت كان مركز الفشن من المنيا ثم اقتطع لحساب بنى سويف[1] وإذا كان الاعتراض هو أننا نخفف عن عاصمة أكبر (المنيا) لنحمل عاصمة أصغر (بنى سويف)، فإن هذا أفضل على علاته من تطرف هذا لمركز

---

(١) خريطة مصر الطبوغرافية ١: ٢,٠٠٠,٠٠٠، ١٩٣٧، مصلحة المساحة.

بالنسبة لعاصمته الحالية المنيا بينما هو أقرب إلى مدينة بنى سويف. كما أن تحويل هذا المركز من شأنه أن يقلل من الفارق العنيف فى حجم السكان وامتداد المساحة بين محافظتى المنيا وبنى سويف ويحقق بقدر الإمكان شرط مساواة الوحدات الإدارية الكبرى، فمن الغريب حقا أنه فى جذع الوادى الرئيسى من الجيزة حتى قنا نجد أن أصغر المحافظات سكانا هى بنى سويف (٨٥٩ ألفا بحسب النتائج الأولية لتعداد ١٩٦٠) بينما أكبرها تقريبا هى الجارة المباشرة المنيا (١,٥٦٠,٠٠٠) أى نحو الضعف، ومن الناحية الأخرى لا يبدو أن من الصواب أن يقترح لتصحيح شدة استطالة المنيا بتر الطرف الجنوبى الأقصى منها وضمه إلى شمال أسيوط على الرغم من أن مثل هذا كان الوضع الرسمى فى وقت ما، ففى خريطة تعداد ١٩٠٧ يظهر مركز ملوى كأول مراكز أسيوط بينما اليوم نجده هو مركز ديرمواس جنوبه آخر مراكز المنيا – والعيب فى مثل هذا التعديل أنه يضاعف تطرف العاصمة فى كل من محافظتى المنيا وأسيوط على السواء.

وسنلاحظ بعد هذا أن للجيزة وضعا خاصا، فهى تناهز فى امتدادها طول بنى سويف أو أسيوط أو سوهاج إذا اعتبرنا الجزء الفعال منها وذلك باستثناء شريط ضيق جدا لا يكاد يبين طوله نحو ٢٠ كم فى مركز إمبابة ويحاذى فرع رشيد بين عرض "بطن البقرة" عند رأس الدلتا وثنية بنى سلامة، وعلى الحالين فالعاصمة متطرفة جدا نحو الشمال ولا مفر من هذا الوضع فى الحقيقة، إذ ليس فى المحافظة مدينة متوسطة الموقع تصلح بديلا لبندر الجيزة، وقد بدا هذا واضحا بجلاء حين اقترح منذ وقت قريب ضم بندر الجيزة إلى مدينة القاهرة باعتبارها جزءً لا يتجزء من مجمع القاهرة الكبرى Greater Cairo ولنذكر أنه فى فترات من تاريخها الإدارى، كما قبل ١٩٠٧، كان بندر الجيزة يتبع العاصمة إداريا، وقد وجد أن العودة إلى هذا الوضع سيترك محافظة الجيزة بلا رأس فعال، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كل محافظة الجيزة برمتها تبتلعها القاهرة فى ظهيرها الريفى

(الهنترلاند). ومهما وجد أو أوجد من قاعدة متوسطة الموقع لمحافظة الجيزة مصيرها بلا جدال إلى الذبول والأسن فى ظل العاصمة الكبرى الطاغية، ومصالح سكان محافظة الجيزة تجد فى إمكانيات بندر الجيزة بفضل ارتباطه الوظيفى التام بالقاهرة فرصا ومكاسب اقتصادية وحضارية تعوض وزيادة مثالب ومشاق تطرف موقعها.

وأخيرا يمكن أن نرى فى جذع الوادى الرئيسى بين القاهرة ونجع حمادى أن حدود المحافظة الواحدة على جانبى النهر لا تتوازى دائما أى أنها لا تمتد على عروض واحدة بصرامة بل يغلب أن "تنزلق" حدود الضفة الشرقية إلى الجنوب قليلا عن حدود الضفة الغربية الأساسية كما يبدو بوضوح فى حالات محافظات الجيزة وأسيوط وسوهاج، هذا الوضع الخاص يؤدى إلى تطرف زائد فى الزوائد الجنوبية القصوى على الضفة الشرقية بالنسبة لعاصمة المحافظة فى وقت قد تكون فيه تلك الزوائد أقرب إلى عاصمة المحافظة التالية-جنوبا على الضفة الغربية، ومع ذلك فإن هذا وضع سليم لأنه يتفادى شطر أو تمزيق حوض رئيسى من الأحواض الشرقية الهلالية المنعزلة بين أكثر من محافظة، كما أن قلة الكبارى بين الضفتين، تحتم أحيانا مثل هذا التخطيط الإدارى، ولا يمكن الإسراف فى إقامة الكبارى هنا لأن فقر البر الشرقى يجعلها غير اقتصادية(١).

إذا انتقلنا إلى الدلتا وجدنا أن الخطة الإدارية أكثر تعقيدا نوعا لأن الأرض هنا تنفرج إلى رقعة مساحية areal لا خطية Linear كما فى الوادى. ولهذا لم يكن غريبا أن التقسيم الإدارى هنا أكثر دينامية وتغيرا منه فى الوادى حيث الخطة العامة محافظة إلى حد كبير، ومن ناحية أخرى تمثل هذه الرقعة المنفرجة سهلا شديد التجانس فى سطحه بحيث يخلو من علامات أو معالم طبيعية بارزة يمكن أن

---

(1) Said, Alphonse, The Growth & Development of Urbanization in Egypt, American Univ. at Cairo, 1960, p. 39, (typescript).

تقدم حدودا واضحة ثابتة ــ وذلك فيما عدا فرعى الدلتا ومن الأوليات فى التخطيط الإدارى أن التحديد أسهل وأكثر دواما فى المناطق المضرسة، بينما هو اصطناعى ــ وقد يكون اعتباطيا ــ فى السهول الرتيبة، وفوق هذا يشكل العمران غطاء متصلا، سميكا حقا فى الجنوب دقيقا كلما اتجهنا شمالا نحو البرارى وشرقا وغربا نحو الأطراف الصحراوية، ولكنه على العموم "بقعة زيت "Tache d'huile" واحدة، مما يجعل كل تقسيم إدارى عملية اصطناعية تتعامد على، وتقطع فى، حقائق هذا الغلاف البشرى وتمزق وحدات مجتمعية متصلة، ولهذا ينبغى للحدود الإدارية هنا بقدر الإمكان أن تتحاشى التعقيد والتعرج بلا داع، كما أن هذا الإطار يضاعف بالذات من دور اعتبارات تكافؤ أحجام ومساحات الوحدات وتوسط العواصم حتى لا يتأثر تماسك مصالح وترابط الوحدات المجتمعية إلا بأقل قدر ممكن، وهنا نجد أن مدننا الكبيرة نسبيا والتى لها كفاءة حضارية وفاعلية اقتصادية تؤهلها لأن تخدم كعواصم للوحدات الإدارية إنما يقع كثير منها على فرعى النيل بحكم طبيعة الدلتا ــ كدمياط والمنصورة وبنها على فرع دمياط، ولما كان من المستحسن أن تكون الحدود الإدارية واضحة فى معالم الطبيعة وعلى صفحة الإقليم إن أمكن، فقد أصبح من القواعد التقليدية لدينا أن نتخذ الفرعين حدودا إدارية "طبيعية" ولكن هنا ينشأ تعارض بين المبدأين: فتصبح عواصم المحافظات غير مركزية الموقع بالنسبة لوحداتها الإدارية، فتعطيها ظهرها من ناحية، ومن ناحية أخرى تتجاهل إداريا المنطقة التى تقع على الضفة المقابلة والتى هى فى واقعها عاصمة "طبيعية" لها، وبهذا تتصنَّف وتمزق وحدة إدارية "طبيعية" ولقد ظل هذا هو الوضع طوال العقود الأخيرة حتى قريب. فكان فرع دمياط حدا تقليديا بين كل من "مديريات" وسط وشرق الدلتا، كما كان فرع رشيد حدا بين مديريات وسط وغرب الدلتا، هكذا كانت المنصورة كعاصمة للدقهلية تعد متطرفة جدا، لا سيما بالنسبة لأطراف الوادى والبرارى فى الشرق والشمال، بينما المواطن الفلاح الذى يسكن ــ

مثلا – على الضفة اليسرى[1] لفرع دمياط فى الغربية القديمة على مرمى حجر أو على بعد عدة كيلومترات بسيطة يدرك أن المنصورة هى محله الطبيعى المختار لنشاطه الحر – ليسوق أو يتسوق ليتعلم أو يتنزه.. إلخ. ولكنه يجد نفسه مضطرا إلى قطع أضعاف هذه المسافة ليذهب فى شئونه الإدارية المرتبطة بالأجهزة الحكومية – إلى المحكمة أو مركز البوليس أو بنك التسليف أو مركز القرعة العسكرية – إلى طنطا لأنها العاصمة الإدارية لمحافظته، وهذا الوضع يقلل فى نفس الوقت من كفاءة الأجهزة الحكومية فى طنطا ويقلل من قبضتها على مثل هذه المناطق المتطرفة ويزيد من متاعبها فى "الضبط والربط" الإدارى، فهناك إذن تعارض بين طبيعة مواقع العواصم النهرية وبين طبيعة الحدود الإدارية النهرية، وقد يكون تغليب الثانى على الأول مفهوما فى العصور الوسطى والماضى حين كانت الكبارى قليلة بدائية والمدن مهما كانت صغيرة محدودة الجاذبية، أما اليوم والكبارى والمواصلات الميكانيكية موفورة ودوائر نفوذ ومجالات المدن والعواصم قد اتسعت، فليس ثمة ما يمنع من أن يصبح الفرعان – على الأقل فى قطاعات معينة منهما – محاور لا حدود لنفس الوحدة الإدارية تمتد على كلا الشاطئين.

بل إن هذا المبدأ عرف فى فترات من التاريخ العربى فى مصر ولو أنه كان يرتبط غالبا بحالات تناقص السكان depopulation والخراب نتيجة لكوارث المجاعات والأوبئة – حالات "الموتان" كما كان يعبر مؤرخو العصر، فبعد هذه الفترات كان يعاد تجميع "الأعمال والكوارث" فى وحدات أكبر تمتطى فرعى الدلتا وتدور حول المدن الواقعة عليهما، مثلا هذا ما حدث فى "الروك الحسامى والروك الناصرى" (أى مسح الزمام) فى أيام الفاطمية. والتعديل الإدارى الأخير الذى حدث

---

(1) Allix, Adre, Limites administratives et la Fixation de l'homme dans le paysage geog.". Comptes Renus, Gongres International de Geog., Varsovie, 1934, t. III, pp. 18.

منذ بضعة سنوات قد أعاد ــ مع الفارق السببى ــ بعث هذا المبدأ وكــان بــذلك ابتعادة جريئة عن الخط التقليدى والخطة القديمة. وهذه خطوة لها مبرراتها ولهــا مميزاتها، ولكن تطبيقها يستحق بعضا من إعادة النظر فى التفصيلات ويثبت أنها لا تزال فى مرحلة تجريبية[١].

هكذا أصبح هناك لأول مرة محافظتان تركبان فرع دمياط: محافظة جديــدة تماما وهى دمياط وهى صغيرة المساحة لكنها تخدم كتلة سكانية تبدو بوضوح أكثف من عروضها المألوفة وذلك لأن مصب الفرع ــ فى الواقع مصبى الفرعين فى هذا الصدد ــ كان دائما "جزيرة بشرية" متميزة وسط نطاق البرارى حتى توطن فيهــا وعى وولاء محلى وشعور بالعزة الإقليمية الصحيحة يبرر تخصيص وحدة إدارية مستقلة. كما أن المحافظة الجديدة تحاول أن تستفيد من وجود مدينة كبيرة بؤريــة نشطة وطموحة (٥٠ ألفا) لا يجوز ــ وهى تتوسط هذه الجزيرة الســكانية كقمــة طبيعية ــ تجاهلها والالتجاء إلى قاعدة متطوحة بدرجة أو بأخرى مثل المنصــورة أو طنطا كما كان الأمر قبل التعديل. والمحافظة الجديدة محافظة "مصبية"، وهــى ككل ليست إلا إسفينا فى جسم الدقهلية الجديدة الكبير، ولكن من الناحيــة الأخــرى نرى أن شكل المحافظة الجديدة ليس مثاليا فحدودها معقدة غير متناظرة، ورقعتهــا غير "ململمة" بل ترسل إسفينا طويلا شديد الضيق على طول الفرع فــى مركــز فارسكور. وهذا اللسان الثانى ينتمى طبيعيا إلى مدينة المنصورة فهى أقرب إليه من حيث المسافة ــ هذا عدا كفاءة عاصمية أكبر فى المنصورة.

أما الدقهلية الجديدة فقد أرادت أن تتحاشى مشكلة تعارض العاصمة النهريــة والحد النهرى فاقتطعت مثلثا من الغربية القديمة لينضم إلى ما هو شــرق الفــرع، ولكنها بصورتها الحالية خلقت تطرفا جديدا، فهى أولا شــديدة الانفســاح ــ بــل

---

(1) Hamdan, G., Population of Nile Mid – Delta, Ph. D. Thesis, 1953, Vol. I, pp. 134 ff. (Typescript).

الانسياح ــ بحيث أصبحت من أكبر المحافظات مساحة بعد الشرقية التـــى تشـــمل قطاعا صحراويا كبيرا) والبحيرة (التى لم يقتطع منها شيء). وهى الآن باســـتثناء القاهرة أكبر المحافظات سكانا والوحيدة التى تخطت المليونين. وأهم من هذا تعدد الأذرع والألسنة التى تنفرج كالأسافين شمالا وجنوبا، بحيث لم تعد رقعتها ملمومة، والمثل الواضح هنا هو مركز ميت غمر فهو أقرب مسافة إلى أى من مدن طنطـــا أو الزقازيق منه إلى المنصورة، ولا يمكن تصحيح هذا الشكل "الأخطبوطى" غيـــر الهندسى فى الحقيقة إلا باعتبار التخطيط الإدارى لشرق الدلتا برمته. فشرق الـــدلتا رقعة واسعة فسيحة، وقد لا نرى بأسا فى حدود القليوبية، ولكن حدود الشـــرقية ــ الدقهلية لا يمكن إلا أن تدعو إلى التساؤل فهذه الحدود تقسيم الرقعة الباقيـــة علـــى محور مواز لفرع دمياط تقريبا، أو قل تجاوزا تقسمها رأسيا، وبهـــذا تتـــرك كـــلا المحافظتين مسحوبتين على شكل طول يترك عاصمتيها بالضرورة علـــى هـــامش رقعتيهما وفى موقع متطرف يضاعف المتاعـــب الماديـــة والحضـــارية للســـكان، ويضعف العلائق المتبادلة بين الرأس والأطراف، وفى التعديل الأخير حين ضم من الغربية قطاع إلى الدقهلية، اقتطع من الدقهلية مركز ديرب نجم وضم إلى الشرقية بحيث أصبح يبدو كخليج embayment فى جسم الدقهلية ويضاعف من اصطناعية ميت غمر كمركز تابع للدقهلية الجديدة، ويلاحظ أن القطاع الشـــرقى مـــن لســـان الطميلات قد سلخ من الشرقية لتطوحه عن كتلتها وضم إلى الإســـماعيلية القريبـــة والتى يرتبط بها ارتباطا وثيقا حتى يعد ظهيرا لها، والواقـــع أن هـــذه التعـــديلات الثانوية هى وحدها مؤشر كاف نحو الوضع الجغرافى السليم الذى يقترح نفسه بكل بساطة وإلحاح، وهو أن تقسم رقعتك فى شرق الدلتا على محور عرضى أفقـــى لا رأسى عمودى، وذلك بأن تتصف هذه المساحة تقريبا بخط مباشر تقريبا يبدأ مـــن الفرع غربا إلى الصحراء شرقا، وهذا من شأنه أن يعطى شكلين مضلعين ورقعتين ملمومتين يحقق كل منهما شرط التوسط المركزى للعاصـــمة والقـــرب والتماســـك

للأطراف، وهذا سيوصل الشرقية إلى النيل، وهى المحافظة الوحيدة فى الدلتا التى لم يكن لها عليه جبهة، ومن الضرورى أن نوضح أن مثل هذا التعديل لن يمـــزق بالضرورة استمرار تنظيمات مجارى الترع والمصارف فى شرق الدلتا، كما أنه لن يخل بالتوازن بين المحافظتين من حيث المساحة وعدد السكان والثروة والمـــوارد الاقتصادية، وعلى أية حال، فسواء بهذا التعديل أو بدونه، تظل حقيقة هامة وهـــى أن رقعة قلب شرق الدلتا الواسعة يعوزها، قلب مدنى قوى بارز، فهو يبعد كثيـــرا عن أقرب مدينة مائة ألفية كالمنصورة والزقازيق، وفيما بينهما لا تجد مدينة تصل إلى ٣٠ ألفا أى لا نجد إلا مراكز متواضعة ضعيفة الكفاءة الحضارية، والواقع أن توزيع المدن الإقليمية الكبرى فى الدلتا يعد سيئا إلى حد ما من وجهة نظر أغراض ومصالح التقسيم الإدارى، فبينما نجد تركزا واضحا فى قطاع معين بشمال وســـط الدلتا إذ تتقارب كثيرا المنصورة والمحلة وطنطا على محور واحـــد، نجـــد علـــى ضلعى هذه السلسلة "منخفضين" مدنيين من شرق الدلتا من جهة وشمال غرب الدلتا من الجهة الأخرى.

وهذا ما ينقلنا إلى وسط الدلتا التى كانت تنقسم تقليديا إلـــى الغربيـــة أكبـــر المديريات مساحة وسكانا وإلى المنوفية الصغيرة الكثيفة، ولكن التعـــديل الأخيـــر أصاب الغربية بتغييرات جوهرية، ولا شك فى أن الغربية القديمة كانت بعيدة عن الوحدة الإدارية المثلى. فكان تطرف العاصمة فيها مثلا صـــارخا: فطنطـــا تكـــاد تلاصق المنوفية ولا يفصلها عنها إلا برزخ ضيق لا يزيد على ٥ كم فـــى إحـــدى نقطه، هذا بينما تترامى المديرية شمالا نحو ٨٠ كم معمورة ونحو ١١٠ كم فى أبعد نقطها عن العاصمة (المسافة المباشرة بين طنطا ورأس البر)! فهى كانت تفتقد كل مركزية فعالة فى رقعتها لا سيما بالنسبة لنطاق البرارى النامى، وقد اقتطع التعديل الأخير منها أكثر من نصفها الشمالى ليكون محافظة كفر الشيخ وليكمل الدقهليـــة،

حتى أصبحت من محافظات الدلتا الأصغر مساحة ـ وإن لم يكن سكانا. وهى المحافظة الوحيدة التى تضم مدينتين كبيرتين ١٠٠ ألفا (طنطا والمحلة)، وهى المحافظة "الوسطى" أكثر منها "الغربية" أما كفر الشيخ فقد كان إنشاؤها منذ سنوات ضرورة طبيعية نظرا أولا لانفراج الدلتا واتساعها الكبير بين الفرعين فى عروضها الشمالية وثانيا لزحف جبهة السكنى والتعمير شمالا فى البرارى مع الاستصلاح، ولكنها بلا شك "محافظة" بلا عاصمة إذ ينقصها مدينة عاصمة معقولة الحجم، فهى جسم ريفى بلا رأس مدنى، ولذا ينبغى أن نضع لنا هدفا تخطيطيا ٥٠ ألفا لعواصم المحافظات على الأقل لتوفر أداة فعالة حقة للتكامل الحضارى والاقتصادى لريف المحافظة، وبينما نرى كفر الشيخ "محافظة بلا عاصمة" نجد بالقرب منها "عاصمة بلا محافظة" وهى المحلة الكبرى، وهذا التناقض يرجع إلى ما ذكرناه من تحيز المدن الكبرى وميلها إلى التكدس فى قطاع معين فى شمال وسط الدلتا، وعلى العموم فإن التقليم الذى أصاب الغربية باقتطاع كفر الشيخ وتتمة الدقهلية قد خفف من حدة تطرف طنطا فى هذه المحافظة، ولكنه لم يلغه تماما. ولا شك فى أن وجود المحلة فى الجانب المتطرف من المحافظة يصحح من نتائج هذه التطرف بالنسبة لمصالح السكان الاقتصادية والمادية، ولكن ليس كل الإدارية، هذا بينما نجد على الجانب الآخر من الغربية أن الجزء الأكبر من مركز تلا بالمنوفية هو أقرب إلى طنطا منه إلى شبين الكوم عاصمة المنوفية. وهذا ـ بالإضافة إلى الجاذبية والكفاءة المدنية الكبرى التى لطنطا ـ حرى بأن يدعو إلى تعديل حدود المنوفية لتتراجع جنوبا إلى خط يتبع تقريبا منتصف المسافة بين كل من طنطا وشبين الكوم منصفا بذلك مركز تلا، وهذا قَمِينٌ بأن يقدم تسهيلات إدارية وحضارية كبيرة للنصف الشمالى لهذا المركز كما يقلل نوعا من تطرف موقع طنطا فى الغربية.

أخيرا فى غرب الدلتا فى البحيرة، وهى الآن أكبر محافظة بعد الشرقية مساحة، فإن الأطراف الغربية هى وظيفيا واقتصاديا ضاحية للمدينة المليونية الإسكندرية، وهى من الناحية الجغرافية ـ المسافية ـ البحتة أقرب إلى الإسكندرية منها إلى دمنهور، دعك من النفوذ الاقتصادى والجاذبية الطاغية للإسكندرية، ولهذا فليس هناك ما يمنع من ضم هذا القطاع الغربى كمركز كفر الدوار إلى محافظة الإسكندرية لا سيما مع تجانس الوظيفة النسيجية فى كل منهما، أما التفرقة والفصل التقليدى بين نقط المدن الضخمة ومناطق الريف المجاور فإرث من عصر التفرقة بين "مديرية" و"محافظة" ومبدأ أصبح باليا فى التخطيط الإقليمى بوجه عام.

أسماء الأماكن فى العالم العربى[1]

كما نمت بيئة الصحراء النزعة الفلكية فى العرب، نمت العرب لنفسها حاسة جغرافية قوية شحذتها بيئة الصحراء وصقلها نمط حياة الترحل الدائم، فحياة الترحل جعلت من العرب البدوى رحالة بالطبع، والرحالة فى أى زمان أو مكان "مشروع" لجغرافى بالقوة، أو هو "مسودة" لجغرافى محتمل، ففى بحر الرمال الذى عاشه البدو فى الجزيرة وخاضوه بسفينة الصحراء كانت معالم اللاندسكيب الطبيعى الأولية والثانوية كالأعلام والمنارات للملاح، كان الجبل كأنه "علم فى رأسه نار"، وبوصلة ثابتة على الطريق[1].

وكما كانت العرب تتطلع إلى القبة الزرقاء "وعلامات وبالنجم هم يهتدون" كانوا يجدون فى عناصر اللاندسكيب وعلامات الطريق خريطة ذهنية محفورة فى الذاكرة، ولذا حفلت اللغة بقاموس كامل وثروة خصبة من الكلمات والألفاظ الدقيقة أو الطليقة التى تدخل اليوم تحت عنوان الجيومورفولوجيا والتى ينبغى أن تكون نقطة البداية فى أية جيومورووفولجيا عربية جديدة، بل ويمكن لمن شاء أن يتقصى ـ بتعبير الأستاذ جلبرت ـ مدرسة كاملة من "الأدب الجغرافى والقصة الإقليمية فى الشعر والتراث العربى تبدأ من "سقط اللوى" "ومغانى الشعب" إلى "جارة الوادى" و"جبل التوباد". ولسنا ندعى بهذا أن "العربى جغرافى بالطبع" أو أنه ـ مثل مسيو جوردان فى مثل النثر الفرنسى المشهور ـ كان جغرافيا دون أن يدرى! ولكنا نقصد أن وعيهم بالمكان وحاستهم الجغرافية كان ضرورة بقائية فى الوسط الطبيعى الذى عاشوا فيه ومن ثم كان نتجا أو نبتا طبيعيا.

---

[1] **مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – المجلد(٦) – العدد(٢) – مارس ١٩٦٣م.**

(1) E.W. Gilbert, The Idea the Region", Geog., vol. 45, 1960, pp. 157.ff; preston E. James, The Region as a Concept, Geog. Review, Jan. 1962, p. 130.

ولقد تفجرت هذه الطاقة الكامنة حين خرج العرب من مهدهم لينسابوا في وسط متجانس كاد أن يكون امتدادا طبيعيا للمركب الطبيعي في الوطن الأم. فاتسعت دائرة الرحالة من "المسالك" إلى "الممالك"، ومن الكورات إلى الأقاليم، وتحولت الشحنة الجغرافية الكامنة بالقوة إلى شحنة مفرغة بالفعل على شكل "المدرسة الجغرافية العربية" التى تخطت بلا جدال كل الآفاق والقمم التى سجلتها "المدرسة الجغرافية الإغريقية" من قبل. بل إننا نقرر حقيقة مسلم بها حين نقول إن هذه المدرسة العربية هى تاريخيا أخطر مدرسة جغرافية سبقت المدرسة الحديثة التى بدأت منذ رائدى الكلاسيكية ريتر وهمبولت. هكذا واكبت النهضة الفلكية العربية نهضة طموحة فى الجغرافيا، ولكن بصرف النظر عن الجغرافيين "المحترفين"، فإن العربى العادى فى المهجر أو فى "دار الإسلام" أدرك مباشرة وحدة الوسط الطبيعى وتكرار العناصر الكبرى فى اللاندسكيب ما بين بيته القديم بلاد العرب والجديد بلاد العرب الكبرى Greater Arabia، وبتلقائية وانطلاق راح يكرر أسماء الأماكن حيث تتشابه المعالم ما بين الأصل والفرع، من هنا نجد اليوم "عائلات" كاملة من أسماء الأماكن كل منها سمى للآخر homonym أو اشتقاق منه قريب أو تحريف له عائلات تنتثر على رقعة العالم العربى برمتها ابتداء من الخليج إلى المحيط، وهذه الأسماء المشتركة تدل على وحدتين — وحدة الوسط الطبيعى حيث يتألف العالم العربى فى النهاية من مجموعة محددة من "النظائر الجغرافية"، ووحدة الوسيط البشرى حيث تغلغل العربى فى كل بقاع المنطقة وذاب فيها بتراثه الفكرى واللغوى بل والفولكلورى.

ولكن دراسة هذه الأسماء وتحليلها لم تلق منا بعد الاهتمام الكافى، فى الوقت الذى أصبحت فيه دراسة أسماء الأماكن علما هاما يعتمد على التحقيق والتوثيق هو Toponumie يقع فى الأرض المشتركة بين الجغرافيا والتاريخ والأنثولوجيا والفيلوجيا (اللغة). ولقد برز فى هذا العلم الوليد علماء مشهورون يعرفهم

الجغرافيون جيدا مثل ألبير دوزا Dauzat فى فرنسا. ويمكن أن تتصرف الدراسة إلى أسماء الأماكن فى اللاندسكب الطبيعى hydronymie, oronymie، أو إلى أسماء الأماكن فى اللاندسكيب الحضارى Anthroponymie[1]. وفى هذا المقال سنقتصر على أسماء الأماكن الطبيعية فى العالم العربى، ويمكن أن نبادر فنحدد مبدأين عامين يحكمان هذه التسميات سواء على مستوى البلاد والأقاليم أو على مستوى الظاهرات المحلية: أولا: أنها أسماء على مسمى تعنى ما تقول وتكاد تكون تعريفا مباشرا للظاهرة؛ ثانيا: أنها تقع فى عائلات تجرى بين أفرادها علاقة نسب عائلية وإن تلونت بألوان محلية، ولعل غير منهج لنا فى بحثنا أن نصنف أسماء الأماكن تصنيفا أصوليا أى بحسب فئاتها الوظيفية، فنبدأ بأسماء تنبثق من الهيئة الجغرافية ثم بتلك التى تستمد أصولها من التضاريس ثم من البنية ثم تلك التى تنبع من الهيدرولوجيا وأخيرا ما يشير منها إلى التربة والنبات.

الهيئة الجغرافية:

ويقصد بها شكل الإقليم ونمطه العام وكذلك موقعه ووضعيته، وأول ما يتبادر إلى الذهن هنا اسم جزيرة العرب نفسها، فما هى بجزيرة حرفيا، ولكنه بحر الرمال يطوقها من الشمال فيكمل فعل بحر الماء المحيط فى باقى الجهات، وبالمثل دعا العرب إقليم المغرب جزيرة المغرب لنفس السبب، والجزيرة بعد هذا صورة إقليمية تتوافر فى العالم العربى ابتداء من إقليم الجزيرة فى شمال العراق أو ما بين النهرين حتى إقليم الجزيرة فى السودان حيث نجد "دلتا داخلية" inland delta بين الأزرق والأبيض، وينقلنا هذا إلى الجزائر فى المغرب حيث تبدو لنا لأول وهلة من تسميات الأضداد بكتلتها القارية الضخمة، ولكن التفسير هنا تاريخى، فمدينة الجزائر العاصمة كانت أصلا عدة جزر إزاء الساحل تسمى جزائر بنى مزغنة إلى

---

(1) Charles Rostaing, Les Noms de Lieux, Coll. Que Sais- Je? Paris, 1945, pp. 5- 8.

أن أتى الأتراك فى ١٥١٩ واتخذوا منها قاعدة بحرية وسياسية لهم فردموا ما بين الجزر وما بين القارة وذهب اسم الجزائر على كل الوحدة السياسية(١).

أما عن الموقع وانعكاساته فى أسماء الأماكن فلسنا بحاجة إلى أن نذكر بالمشرق العربى والمغرب، ولا أن نضيف الجنوب العربى حاليا، ولكن الشام واليمن ــ إذا لم تصح النظريات الأخرى فى أصولها ــ هى أسماء جهات أصلية حددت بالإشارة إلى قلب الجزيرة العربية فى الحجاز: فالواقف فى مكة ووجهه شطر الكعبة سيجد اليمن عن "يمينه" والشام على "شماله". وإلا فإنها تشتق من الهيئة الجغرافية: فيكون الشام من الشامات وهى البقع السمراء على صفحة الوجه حيث يبدو الشام أرخبيلا ساحليا من الواحات الخصبة على صفحة الصحراء، وبالمثل يكون اليمن من اليُمن وهو الرخاء والسعادة نظرا لمائيته وإنتاجيته التى كسبت له اسم "العرب السعيدة".

التضاريس:

كانت أشكال الأرض، بحسبانها أبرز ملامح اللاندسكيب الطبيعى المحسوسة والمرئية Tangible et Visible بتعبير برون، مصدرا لكثير من أسماء الأماكن فى العالم العربى، ففى الجزيرة العربية نفسها ليست نجد إلا هضبة حسا ومعنى، والعسير إقليم "صعب" وعر التضاريس، أما الحجاز فما سمى كذلك إلا لأنه "يحجز" بين البحر والهضبة، بين الساحل والداخل، وبالمثل سمى جبل الطويق هكذا لأنه "يطوق" نجدا من الجنوب على شكل قوس جبلى واضح، ثم هناك النقيضان الطبيعيان تهامة والسراة، وتهامة اسم علم كما هى اسم نوع: اسم العلم ينصرف إلى ذلك القطاع الجنوبى السهلى الساحلى المنخفض من الحجاز حيث تجتمع حرارة

---

(١) أحمد توفيق المدنى، هذه هى الجزائر، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٥٨ ــ ٦٩؛ انظر أيضا؛
- G. Hamdan, "The pattern of Medieval Urbanism in the Arab World", Geography, April 1962. p. 131.

الانخفاض برطوبة البحر فينتج مناخ مشبع ثقيل ممض muggy فتكون التهائم أو التهم أى الأرض المنخفضة الحارة الرطبة، ومن تهامة امتدت التسمية إلى كل سواحل الجزيرة العربية المماثلة فى الارتفاع والمناخ فأصبح هناك تهامة العسير وتهامة اليمن إلخ. أما السراة فهى لغة السلسلة الجبلية العالية تقوم كالحائط، وهى تطلق على كل الإطار الجبلى فى غرب الجزيرة العربية ابتداءً من مدين حتى اليمن[١]، والسروات من عائلة السراة، ففى اليمن حيث تنحدر كتلة الهضبة فى شكل سلاسل جبلية صغيرة محلية وعرة جدا تفصل بينها فى تتابع أودية عميقة كالخوانق تسمى الجبال بالسروات والوديان بالقيعان. ونستطيع أن نتتبع هذه التسمية خارج الجزيرة: فنجد سهل القاع على ساحل سيناء الغربى من مصر، بينما تسمى سلاسل الجبال فى مرتفعات تونس بالسروات[٢]، وفى المغرب يربط سلسلة الأطلس الكبير بالأطلس الصحراوية كتلة جبل بركانى يسمى جبل سروة، والتل، هذا الذى يعنى ارتفاعا متواضعا، قد أصبح اسم علم على مسمى فى إقليم المغرب ابتداء من تونس حتى مراكش. فهناك يطلق التل على كل السهل الساحلى الضيق بين جبال أطلس التل أو البحرية بما فى ذلك منحدرات وسفوح هذه الجبال، وبالمناسبة، نستطرد فنستدرك أن الريف فى مراكش (المغرب) لا علاقة له بكلمة الريف العربية بل هى كلمة بربرية بمعنى الحائط أو الحاجز.

وننتقل نهائيا إلى التضاريس السالبة أى مظاهر الانخفاض فنجد عائلة الباطنة أو البطينة أو البواطن التى تبدأ فى سهل عمان الساحلى أو تهامتها حيث تتباين بشدة مع كتلة الجبال العالية فى الداخل، ثم نمضى فنجد وادى الباطنة من أكبر الأودية عبر الجزيرة العربية، يبدأ من الحجاز وينتهى قرب شط العرب، وقديما

---

(١) كارل تويتشل، المملكة العربية السعودية، مترجم، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٣ ــ ١٧.

(2) J. Klein, La Junisie, Coll. Que Sais- Je? Paris, 1949, p. 13.

كانت العرب تسمى قلب الدلتا فى مصر بطن الحوف بينما "بطن البقرة" هى تلك الثنية والانبعاج التى يرسمها حاليا فرع رشيد بعد رأس الدلتا بقليل............[١]

ولكن الضهور كالحجر تسمية نادرة، وأكثر منهما شيوعا الحمد، فالحمد هى الصحراء الصخرية التى قد تكون أقسى على الإنسان والحياة من الصحراء الرملية، والحمد "الأم" هى بلا شك صحراء الحمد أو بادية الشام، أما نسلها الإفريقى فيمتد على جبهة عريضة تبدأ من الحمادة الحمراء وحمادة تنغرت فى ليبيا إلى جمادة تيد ماتت وحمادة درعة فى الجزائر والمغرب، والرق reg والسرير هى من التكاوين الصخرية التى تستمد اسمها من طبيعة السير على سهولتها، فالرق الأرض الصخرية التى تصلح لسير الخيل، بينما السير هو منتهى الراحة للراحلة! وفى مرمريكا مريوط تكثر ظاهرة "سرير العرب" التى ترتبط بالرقع المنخفضة التى حللت فيها الأمطار التكاوين الكلسية وحولتها إلى صخور جيرية مسطحة يسهل السير عليها، ثم هناك "سرير كلنشو" Calanscio أو سرير القاضى فى برقة ما بين واحة أوجلة ــ جالو والكفرة، بينما فى حدود ليبيا تتدرج جبال تبستى إلى صحراء حجرية هى "سرير تبستى" وقد تسمى الرقع الصغيرة من نفس الأصل "بالبلاطة" كما فى بلاطات العرب فى مريوط، و"بلاطة الزراقى" فى منحدرات الجبل الأخضر الجنوبية فى برقة[١].

وعلى العكس من هذا كله الصحارى الرملية فهى تتضاد تماما مع الصخرية، ولا زلنا نجد رمزا لهذا التعارض خارج العالم العربى ممثلا فى سلسلتى جبال وادى الرمل (جوادراما) ووادى الحجارة (جواد الأجارا) فى إسبانيا ــ بل ولا نريد أن نضيف فى العالم الجديد فى أمريكا اللاتينية! ولا شك أن أهم فصائل هذه العائلة هى النفود والعرق، بينما تأتى الدهان والجفار فى المرتبة الثانية، فالنفود هى

---

[١] يوجد سقط فى هذا الموضع من المقال.

(1) Fisher, p. 482.

صحراء الرمل الكاملة ومنها النفود أو النفود الكبير فى الجزيرة العربية إلى الشمال من نجد، والنفود الصغرى أو الدهناء فى شرق نجد وغرب الأحساء، ونفود ضاحى لسان صغير فى جنوب غرب نجد، أما العرق ففى المغرب، ولعل خير أمثلته العرق الشرقى الكبير Great Oriental Erg جنوب شرقى الجزائر، والعرق الغربى الكبير إلى الغرب منه وعرق إيجيدى Iguidi إلى الجنوب من الأخير على حدود موريتانيا، وقد يكون العرق مشتقا من أن الكثبان الرملية كما تبدو من على صفحة الصحراء تشبه العروق على ظهر اليد. وقد تكون الكلمة من أصل بربرى ولكن الذى يفتح القاموس المحيط واجد أن الأرج هى الأرض الرملية التى تصلح لسير الإبل، بينما أن الرق هى ما رق من الأرض الصخرية لسير الخيل[١].

وبهذا يكون الإرج هو النفود، والرج هو الحمد، وأيا ما كان، فإن الأشكال الصغرى من التكوينات الرملية الشائعة كالسيوف والغرود قد لا تظهر كثيرا كأسماء أعلام على الخرائط الإقليمية، ومع ذلك فهناك منطقة سيف فاطمة مثلا فى الجزائر إزاء غدامس الليبية، وربما كانت واحة الغرداية فى صحراء الجزائر بين العرق الشرقى الكبير والغربى الكبير تشتق اسمها من الغرود (؟).

أما الدهناء والجفار فقد تكون أقل أهمية واتساعا من النفود والعرق ولكنها أسماء أعلام جغرافية متواترة، ولقد رأينا أن الدهناء هى النفود الصغرى، ولسنا ندرى إلى أى حد يمكن أن يعد حوض إيدهان Idehan الرملى فى فزان تحريفا أو تحويرا للدهناء، إن التركيب المورفولوجى متشابه، واللفظين قريبان، ولكن المصادر صامتة لا تسمح بالجزم، أما الجفار فتعنى شريطا أو نطاقا ــ ساحليا على الأغلب ــ من الرمال الحصباوية أو الخالصة، ولكنها لا تخلو من موارد ماء ومن ثم من بعض حياة أو حركة، ولعل الحفورة (الجعفورة؟) بالإحساء هى نقطة البدء

---

(١) الفيروزآبادى: القاموس المحيط، مادة أرج.

المنطقية فى هذه العائلة، هى رملة تخرج كلسان ناتئ من الربع الخالى وتصل إلى قرب الظهران الحالية فاصلة بين قطر والسعودية، ولكن الجفار تسترعى النظر على ساحل البحر المتوسط فى إفريقيا العربية، فالنطاق الساحلى الرملى من شمال سينا يسمى بالجفار، ويذكره المقريزى فى القرن الرابع عشر على أنه كان فى الزمن القديم أرضا خصبة عامرة ثم بارت[١] وفى طرابلس يعرف الساحل أيضا بالجفار وينقسم إلى الجفار الكبرى والصغرى، ولكه نطاق غنى بالآبار والزراعة[٢]، ويؤدى بنا مباشرة إلى أرض الجفار فى جنوب تونس حتى قابس، وهى هنا أفقر المناطق الساحلية فى تونس وأشدها صحراوية. ولا ننسى واحة الجفرة فى جنوب طرابلس حول هون والسخنة.

الهيدرولوجيا:

مرة أخرى نجد حاسة العرب تترهف عند الماء ــ ولا عجب، ولهذا فإن كثيرا من أسماء الأماكن العربية تنبع من الهيدرولوجيا، ومن قبل قد تقبل العرب التسمية الآرامية لبنان وتبنوها، فلبنان من اللبن بالآرامية، ولبن لأن الثلج يكسوه طويلا حتى يبدو أبيض بلونه[٣]، ومن بعد سمت العرب نهر الأورنط بالعاصى: لأنه النهر الوحيد الذى يخرج على الإجماع فى الشام فيجرى من الجنوب إلى الشمال لا من الشمال إلى الجنوب! ثم قارن بين نهر الفرات فى العراق والبحيرات المرة فى مصر: "هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج"، بينما البحر الميت ــ بحر لوط سابقا ــ هو ميت لأن السمك حين يدخله يموت من فرط ملوحته، ولسنا بحاجة إلى أن نذكر اشتقاق أسماء البحار والأنهار "الملونة" ابتداء من النيل الأزرق بطميه الخصيب أو الأبيض بطميه السليب إلى البحر الأحمر بشعابه المرجانية الحمراء..

---

(١) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، طبعة القاهرة، ج١، ص ٢٠٧.

(2) P. Birot & J. Dresch, La Mediterranee et le Moyen- Orient, Paris, 1956, p. 455.

(3) Fisher, p. 387.

إلخ. ولكن ينبغى لنا أن نذكر "مجمع البحرين"، فقد أكدها العرب دائما حيثما وجدوا رافدين يلتقيان أو فرعين يتشعبان: حينئذ تكون القرنة أو المقـرن Confluence. اعتبر "المقرن" فى الخرطوم حيث يتنقل ماء الأزرق عن ماء الأبيض كما لو بحـد السيف، ثم قارن "القرنة" فى العراق قبل شط العرب وعلى رأس هور الحمر حيث يلتقى ـ أو بالأحرى كان يلتقى منذ ٦٥ عاما ـ الدجلة والفرات، ولدينا فى أسوان قرية القرنة، ولكنها ليست من العائلة[1].

وظاهرة مائية أخرى أعطت اسمها لأكثر من مكان: الحسا أو الأحساء عيون الماء العذب القريبة من سطح الأرض الرملية فى شرق الجزيرة العربية بل وفـى قلب مياه الخليج العربى الملحة، وبها سميت الحسا أو الأحساء، وفى شرق الأردن واد يصب فى البحر الميت من الشرق هو وادى الحسا، ولكنا لا نعلم أصـل هـذا السَّمِىِّ على وجه التحديد، وهناك أخيرا الحمامات ـ والعيون المعدنية الحارة التى تتفجر على بعض سواحل العرب لا سيما فى المغرب: فخليج الحمامات فى تونس يحف به عدة مواضع للعيون الكبريتية منها الحمامات فى دخلة المعاوين. ولدينا فى صحرائنا الشرقية وادى الحمامات، ولكنا ينقصنا أصل تسميته بالضبط.

التربة والنبات:

وفى الجمع بينهما أكثر من منطق، فكلاهما امتداد للآخر يتلاشى فيه آخـرا، وكلاهما مظهر "ملون" فى اللاندسكيب ولهذا فإن أسماء الأماكن التى تصـدر مـن أحدهما تشير غالبا إلى العنصر الآخر، ونبدأ "بالسواد" وهى تسمية موفقـة للغايـة لجنوب العراق الفيضى برواسبه السوداء الغرينية كانـت شـائعة فـى العصـور الوسطى ولكنها اختفت الآن رغم ضرورتها[2] ثم هناك برقة الحمراء والبيضـاء:

---

(1) Dubertret & J. Weulersse, Manuel de Geog, Syrie, Liban. Etc, Beyrouth, 1940, pp. 63- 7.

(٢) الخلف، ص ٤٥ وما بعدها.

فأما برقة الحمراء فهى الرقعة المثلثة التى ترتكز على ساحل سدرة إلى الجنوب من بنغازى والتى تتلقى من المطر ما يكفى لتحويل التربة الكلسية إلى نوع من التربة الحمراء terra rossa حتى سماها العرب برقة الحمراء، أما برقة البيضاء فهى تقع إلى الجنوب منها وإلى الداخل فى ظروف أشد جفافا ويغلب عليها التكوينات الجيرية البيضاء ومن هنا الاسم[1]، وهنا لا يتمالك المرء إلا أن يتساءل كيف فاتت العرب أن تردف برقة البيضاء والحمراء "ببرقة الخضراء" التى يتوجها الجبل الأخضر حتى تكتمل بذلك ثلاثية جغرافية تمثل متتابعة أيكولوجية فريدة فى بابها.. واللون الأحمر أكثر شيوعا فى أسماء الأماكن العربية لأن ظاهرة التأكسد أوسع انتشارا فى البيئات الصحراوية الجافة، ولهذا فمن برقة الحمراء ننتقل إلى الحمادة الحمراء فى طرابلس إلى الساقية الحمراء فى ريو دى أورو. وعائلة الأسماء السوداء أكثر ارتباطا باللوافظ البركانية البازلتية ولن نذكر مدينة السويداء فىجبل الدروز (جبل العرب) باعتبارها من اللاندسكيب الحضارى لا ولا الجبل الأسود (مونتنجرو) فى البلقان باعتبارها خارج العالم العربى ومن نقل الأتراك ولكن الخروج السود وجبال السودا فى وسط ليبيا فى طرابلس مثل بارز.

وتأتى بعد ذلك الأسماء الخضراء حيث نجد جزيرة الخضراء تتكرر على مصاب النيل قرب رشيد ودمياط كما حفظت فى العالم العربى المفقود الأندلس فى صورة Algeciras قرب جبل طارق، ولكن لا شك أن أبرز الأمثلة هى الجبل الأخضر الذى يمثل جزيرة نباتية على أطراف الصحراء سواء فى عمان أو برقة. ولكن ليس كل الجبال مشجرة أو محرجة، ومن ثم فهناك "الجرود" وهى تلك الكنتورات العالية من سفوح جبل لبنان التى تخلو لأسباب متعلقة بالتربة edaphic من الغطاء النباتى فتصبح جرداء[2]، وتصل التسمية إلى منتهاها فى جبل "الأقرع"

---

(١) بسام كرد على وزملاؤه، ص ٢ ــ ٥٨٣.
(٢) داود صليبا، مصطفى الحاج إبراهيم، العالم العربى، دمشق ١٩٥٨، ص ١٣٢.

أو كاسيوس فى شمال سوريا حيث يخلو تماما من غطاء نباتى[١]. وثمة أخيرا نوع من التربة الطفلية الخشنة يضرب إلى الحمرة ويوجد فى تضاعيف الأودية وحول أقدام الجبال فى منطقة جبال النوبا فى كردفان ويسمى بالكردود[٢] فإذا نحن طالعنا خرائد برارى شمال الدلتا فى مصر قرب البرلس وكثبانها الرملية فسنجد كلمة كردود ترصع المنطقة بصورة ملفتة للنظر وتسود اللاندسكيب الطبيعى.

(١) بسام كرد على وزملاؤه، ص ٤٤.

(2) K.M. Barbour, The Republic of the Sudan, p. 173.

الموقع الاستراتيجى للعالم العربى[1]

ما هو الموقع الاستراتيجى للعالم العربى فى الإطار العالمى؟ وكيف نتعرف عليه؟

هل يكفى أن نستقصى الوضع الحالى؟ لا بل لابد من أن نـدعو التـاريخ ـ ذلك البعد الرابع للإقليم ـ لنستقرئ فيه نغمته الأساسية المتكررة ودرسه الجغرافى الخالد، ذلك لأن الشخصية الاستراتيجية لإقليمنا لم تظهر وتستبين دفعة واحدة وإنما تحققت على مراحل طويلة ارتبطت بتوسع العلائق المكانية للمنطقة، وهـى التـى ارتبطت بدورها بتوسع محيط المعمور المعروف، فطوال التاريخ القديم حين كانت رقعة العالم المعروف لا تزيد فى الواقع عن منطقتنا الحالية ومراكز الحضارة هى الأنهار التاريخية فيها، لم تكن هناك استراتيجية بمعنى الكلمة ـ مجرد استراتيجية محلية بحتة: فلم تكن العلاقات المكانية تخرج فى صميمها عـن طمـع المنـاطق الصحراوية الرعوية الفقيرة المحيطة فى تلك البيئات الغنية الجذابة، فكان كل تاريخ الشرق الأوسط يختزل نفسه فى معادلة واضحة هى الصراع بين الرمل والطين ـ بين الرمل والمزروع، مثال ذلك هجوم الهكسوس على مصر والآشـوريين علـى العراق.

ولكن ماذا حدث حين اتسعت رقعة العالم ذات الأهمية لتشمل البحر المتوسط وسواحله، حين كان المستوى الحضارى قد ارتفع ليخرج بالإنسان من حدود البيئات الفيضية إلى آفاق البيئات الساحلية؟ فى العصور الكلاسيكية ـ تظهـر لأول مـرة معادلة جديدة للتاريخ: الصراع بين قوة البر وقوة البحر، حقا إنها لم تحـل محـل المعادلة الأولى فهذه سوف تستمر بدرجة أو بأخرى، ولكنها ستتخلى عـن مكـان الصدارة للمعادلة الجديدة التى سوف تنمو بالتدريج لتحقق المغزى الكامل للحقيقـة

---

[1] مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – يونيه – ١٩٥٨م.

الكامنة فى الموقع الاستراتيجى لعالمنا العربى هذا، انظر ماذا يسجل التاريخ فى تلك الفترة: صراع بين الفرس واليونان، ثم بين وريثتيهما بارثيا وروما، ثم بين وريثتيهما الساسانية وبيزنطة.. وفى كل حالة كان لابد للقوتين المتصارعتين إحداهما أو كلتيهما أن تجتاح العالم العربى وتستوى عليه بدرجة أو بأخرى.. لكأن التاريخ قد فقد عبقرية التجديد وأصيب بالجمود ـ وكدت أقول بالعقم لكن لا إنه إنما يكرر نفسه ليلح علينا إن غفلنا بسر استراتيجى خطير عميق المغزى: حين ظهرت فى العالم قوى برية آسيوية وقوى بحرية أوربية أصبحت منطقتنا تلقائيا وآليا بحكم موقعها منطقة ارتطام Crush Zone ـ منطقة التحام: تقع فريسة حين تسود إحدى القوتين القطبيتين، أو تظل منطقة حاجزة بين شد وجذب، وجزر ومد، حين لا تظهر إحدى القوتين على الأخرى تماما، لكن هل كان درس التاريخ الاستراتيجى ساذجا إلى هذا الحد من البساطة؟ هذه المعادلة البسيطة لا تلبث أن تكتسح جانبا حين يبرز العرب فى صورة الإسلام لا ليوحدوا العالم العربى كله لأول مرة فى التاريخ فحسب، وإنما ـ تلك حقيقة أبعد خطرا وأشد أثرا ـ ليحولوا منطقة الارتطام إلى قوة تخضع كلا من قوتى البر والبحر! ومهما بالغنا، فلن ندرك المغزى الاستراتيجى الكامل لهذه الطفرة التاريخية الفذة، ولكنا يمكننا أن نقول إنها استدراك محموم من التاريخ أن هذه المنطقة الوسيطة لم تفتت عليها الطبيعة وتسخر منها الجغرافيا لتجعلها دائما منطقة ارتطام تسحق بين شقى رحى!! فطالما كان العالم العربى مركزا لقوة سائدة مسيطرة لم يستطع خطر القوى البرية أو البحرية أن يستشرى، وفى ظل هذا الإطار الاستراتيجى الجديد حقق العالم العربى ذاتيته وشخصيته التاريخية المتمثلة فى دور الوساطة التجارية الهائل ـ دور الممر التجارى بين المقر الآسيوى فى الشرق الأقصى من ناحية والمقر الأوربى من الناحية الأخرى، وأقنعت قوى البحر الأوربية نفسها بأن تنظر إلى هذه التجارة على أن العالم العربى ـ مثله مثل جنوة والبندقية بوابات الطريق المنظور عبر أوربا ـ

بوابة أو نافذة مرئية لطريق سحيق غير منظور لا أمل لها فى التطلع إليها: ومن ثم فالشرق الأقصى كمقر هو نهاية مجهولة فى ضمير الجغرافيا، والشرق الأوسط كمقر هو الوصى على علاقته بالمقر الأوربى..

وهكذا أصبح الشرق الأوسط هو الشرق الوسيط، ولكن شرط كل أولئك أن يظل العالم العربى أكثر من مجرد جبهة ارتطام، ولهذا فحين بدأ يتفكك ويضعف تحولت أطماع القوة البحرية الأوربية إلى الوصول إلى ثروة المقر الآسيوى بالسيطرة على الممر العربى، وكان هذا من المحركات الحقيقية للحروب الصليبية. كان تجار جنوة والبندقية من أكبر مموليها! ولقد كانت الحروب الصليبية ـ التى لم تكن صليبية تماما ـ درسا استراتيجيا وكذلك حضاريا للقوة البحرية، ولكن طرقات القوة البرية الآسيوية قوة الفرسان المغولية ـ لم تلبث أن تواترت من الجانب الآخر محطمة مخربة جنكيز خان وتيمورلنك وغيرهم ـ ولكن دون جدوى ـ حتى كان الأتراك العثمانيون، ومعهم وقعت المنطقة مرة أخرى تحت سيطرة قوة البر، وهنا لابد أن ندرك أن معظم غزوات الاستبس الآسيوى وإن كانت فى أصلها تمثل قوة بر إلا أنها لم تكن تستهدف الصراع مع قوة بحرية وإنما كانت تحتمها وتقودها معادلة الصراع بين الرمل والطين أى كانت صراعا بين قوى برية أساسا، ولكنها كانت برمتها صراعا عابرا بحكم ترحلهم، فقد كانوا كالزوبعة يأتون، وكما تنقض ينقضون إلا الموجة العثمانية فقد كانت هى وحدها التى استوطنت فى الشرق الأوسط وتركت كل علاقة لها بجذورها فى الاستبس، ولهذا فهى وإن بدأت كقوة بر إلا أنها لم تلبث فى موطنها الجديد أن أصبحت قوة منطقة ارتطام والتحام، وهذا يفسر كل استراتيجيتها المقبلة.

ولكن حدثا ما حدث ليرج هذه الاستراتيجية القديمة ـ استراتيجية المرحلة الساحلية ـ من صميمها، فلقد كشف العالم الجديد وطريق الرأس، وخرجت حضارة العالم القديم من قيود البحار الداخلية وسدود السواحل إلى خضم المحيط، فكانت ولم

يكن هناك بد من أن تكون ـ ثورة جذرية فـــى العلائـــق المكانيـــة واســـتراتيجية كلاسيكية: تحول البحر المتوسط من شارع رئيسى للحركة إلى زقاق مغلق والممر التجارى العربى إلى قبو مصمت، وغيرت أوربا البحرية خطتها: الوصول مباشرة إلى المقر الآسيوى بدل السيطرة على الممر العربى، وانتقل الصراع بـــين القـــوى البحرية إلى المحيط الهندى، والقصة بعد هذا هى قصة الصراع بين الدول البحرية الأوربية بعضها البعض على السيطرة على الدول البحرية الآسيوية، أى صراع بين القوى البحرية الموجبة والسالبة، وكان هذا أخطر فى مغزاه مـــن مجـــرد ضـــياع التجارة على الممر العربى وركوده، لماذا؟ لأنه لأول مرة لم يعـــد خطـــر القـــوة البحرية على منطقتنا يقتصر على الباب الأمامى، بل لقد تخطاها وهددها من الباب الخلفى، فأصبحنا لأول مرة بين فكى كماشة للقوة البحريـــة الأوربيـــة، واضـــحى الخطر اقتصاديا وسياسيا معا! لا سيما حين أبرز الصراع الـــداخلى بـــين القـــوى البحرية ـ بين انجلترا وفرنسا نابليون ـ أن السيطرة على المقر الآســـيوى غيـــر مضمونة وتكاد تفقد قيمتها بدون السيطرة على الممر العربى. والنتيجة؟ ســـارعت انجلترا بالسيطرة على الممر العربى بالتطفل على هوامشه الســـاحلية فـــى عـــدن والسواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية، فإنها كقوة بحرية إنما تسعى أساســـا إلى الضبط الهامشى Marginal Control حتى إذا شقت قناة السويس عادت إلى الممر العربى أهميته الاستراتيجية المفقودة كاملة ـ بل مضاعفة. تجاريا وعسكريا ـ فقد أصبح الشريان الإمبراطورى إلى المقر الآسيوى. وهنا لابد أن نقف وقفـــة لنضع عالمنا العربى فى ميزان أكثر دقة وتجربة من الموازين القديمة فنتساءل: ما هى منحة الجغرافيا الحقيقية للعالم العربى؟ إن التحليل التاريخى السابق يؤكـــد أن الموضع Site أى الموارد المحلية الداخلية للإقليم فى حد ذاته بحكم تركيبه الداخلى الذى تمتزج فيه الصحراء الفقيرة بالمزروع ـ هذا الموضع لم يكن ثروة هامة إلا فى فجر التاريخ ولكن مع توسع الحضارة والعالم قلت الأهميـــة النســـبية للثـــروة

المحلية. وعلى العكس من هذا "الموقع" Situation فقد كـــان دوامـــا الرأســـمال الحقيقى للإقليم، ولكن الذبذبات التاريخية العنيفة فى مصيره كموقع تؤكد بنفس القوة أن هذا ليس رأسمال ثابت مضمون، فعموما إذن كانت قيمة الإقليم كموقع أكثر منه كموضع.

هذه قناة السويس إذن تعيد إلى الإقليم أهميته كموقع. ولكن أى أهميـــة؟ لقـــد كان المغزى الاستراتيجى للموقع بدأ يأخذ مدلولا جديدا. إن قوة برية كانـــت قـــد ظهرت فى أوراسيا ــ فى الاستبس ــ ولأول مرة لم تكن قوة رحل رعوية، بـــل زراعية دائمة؛ ولأول مرة توحد كل قلب أوراسيا فى تنظيم سياسى واحـــد؛ ولأول مرة تتطلع إلى الشرق الأوسط: لا كصراع بين الرمل والطين ولكن كصراع بـــين البر والبحر، هذه هى روسيا، ولقد مرت فترة طويلة متميعة اتخذت فيهـــا القـــوى المختلفة من بحرية وبرية مواقف تكتيكية متناقضة أو متعارضة من حين وبخاصة لآخر بالنسبة لرجل أوروبا المريض، والذى يهمنا هو أن للعـــداوات التقليديـــة أو الصداقات الموروثة أو المواقف العنادية المعارضة فى توازى القوى أخفـــت إلـــى حين الحقائق الاستراتيجية الكامنة الجديدة ودور العالم العربى فيها.

ولكن هذه المتناقضات أخذت تصفى نفسها بالتدريج بينما أخـــذت الخطـــوط الاستراتيجية الدائمة الأصيلة تتبلور وتتصل فالعداوات الموروثة بين الدول البحرية أثناء صراعها الداخلى أعمتها عن حقيقة أهم وهى أن مصالحها جميعا مشتركة ضد قوة البحر الجديدة وأن مضارباتها لتمزيق تركيا كان خطأ اســـتراتيجيا وأدركـــت دورها الحقيقى كدولة حاجزة فى منطقة الارتطام، وظهر كل هذا فى حرب القـــرم حين هددت روسيا كيان تركيا، وهكذا نجد أن دولة بحرية تتلو الأخرى ــ فرنســـا أولا ثم إنجلترا ــ فى حماية رقعتين فى منطقة الارتطام هما إيران وتركيـــا مـــن خطر القوة البرية، ومن الطريف والمهم أن الصراع قبل ذلك بين فرنسا وإنجلتـــرا

فى الشرق الأوسط كان يعرف حينئذ بأنه صراع لملء "الفراغ" بعد اضمحلال تركيا!.

وبعدئذ أصبحت السياسة التقليدية لروسيا البرية هى الوصول إلى المياه الدافئة بالسيطرة على منطقة الارتطام. وأصبحت السياسة المعلنة للقوات البحرية هى "احتواؤها" Containment بالسيطرة على تلك المنطقة بالضرورة أى أصبح الصراع حقيقة واقعة ــ لا بين قوى متنافرة متعددة لا ولا كحقيقة جزئية تنتظم قطاعا معينا فقط من العالم القديم، وإنما بين قوتين مستقطبتين متكتلتين فى كل العالم القديم: قوة البر وقوة البحر، وأصبح هذا الصراع كحقيقة واقعة تدور حول منطقة ارتطام كبرى بينهما ليس الشرق الأوسط إلا حلقة رئيسية فيها، وهنا بعد أن أصبحت قوة البر حقيقية تشمل كل قلب أوراسيا يمكننا أن نشير إلى صاحب نظرية معادلة الصراع بين البحر والبر السير هالفورد ماكيندر Mackinder وإلى تعبيره عن قوة البر بالهارتلاند أى قلب العالم القديم.

ولكن حتى نهاية القرن الماضى لم تكن استراتيجية العالم القديم سوى استراتيجية نصف كرة أساسا، ولا تبدأ المرحلة الاستراتيجية الكوكبية Global إلا حين تبدأ استراتيجية العالم القديم تتأثر تماما بوجود العالم الجديد، وتصبح استراتيجة نصف الكرة الشرقى جزءً لا يتجزأ من استراتيجية الكرة كلها، وهذا لم يبدأ إلا بخروج الولايات المتحدة من عزلتها وظهورها على مسرح العالم القديم كالزعيم الجديد للقوة البحرية بعد إنجلترا (ومن قبلها كانت فرنسا) وقد حاربت القوة البحرية حربين ضد حلقة كبرى فى منطقة الالتحام بين الهارتلاند والسواحل كانت تحاول السيطرة على الهارتلاند تمهيدا للسيطرة على السواحل: ألمانيا، ولكن انتهت القصة بأن زادت قوة الهارتلاند عن أى وقت مضى، وظلت معادلة التاريخ صراعا بين قوة البر والبحر ــ وإنما على نطاق كوكبى شامل تماما. وظلت سياسة الهارتلاند هى الوصول إلى البحر على حساب مناطق الالتحام والارتطام

بالضرورة ــ شرق أوربا وشرق ألمانيا ــ البلقان ــ الشرق الأوسط ــ الصين. وتحقق لها هذا إلا على الشرق الأوسط والعربى هذا بينما ظلت سياسة القوة البحرية هى الاحتواء ــ أيضا على حساب مناطق الارتطام بالضرورة ــ غرب ألمانيا ــ ثم سلسلة الأحلاف والنطاقات: الأطلنطى ــ بغداد ــ مانيلا ــ فورموزا ــ اليابان. ومرة أخرى يمثل العالم العربى انقطاعا فى هذه السلسلة، ومرة أخرى يعتبر هدا "فراغا" (كذا!) وليس المعسكر الاشتراكى "والعالم الحر" (كذا!) إلا الألفاظ الدارجة للقوة البرية والبحرية بالضبط، وليست الكتلة الثالثة "أو كتلة الحياد الإيجابى" فى جوهرها الحقيقى إلا "منطقة الارتطام" بالضبط، بل ليس من الصدفة مطلقا أن أقطاب الحياد الإيجابى هى ثلاث من أكثر أجزاء منطقة الالتحام حساسية وخطرا ــ يوغوسلافيا ــ مصر ــ الهند!! بل هناك أكثر من صدفة أن منطقة البلقان وشرق أوربا تسمى الشرق الأوسط لأوربا The Middle East of Europe تأكيدا لفكرة الارتطام المتأصلة فى الموقع المتوسط!.

هذه هى الصورة الاستراتيجية الراهنة، فما أشبه الليلة بالبارحة! ثم يقولون إن التاريخ لا يعيد نفسه! إن الخطوط الرئيسية فى استراتيجية العالم العربى بعد أن خرج من الفترة المحلية هى فى جوهرها واحدة، ففى المراحل الاستراتيجية الساحلية ثم المحيطية ثم الكوكبية نجد فى تكرار ملحٌ مزمن أن العالم العربى يمثل قوة "أمفيبية" أى برمائية. فبكتلتها القارية وبيئاتها النهرية تمثل قوة برية، وبسواحلها العديدة الهامة وبيئاتها البحرية تضع أقدامها فى الماء، فهى تجمع بين خصائص القوة البرية والبحرية معا بكل وضوح. وقد تجلى هذا تماما أيام العرب الذين بدأوا قوة برية وانتهوا قوة بحرية هامة، ثم أيام العثمانيين أيضا إلى حد كبير. وخلال هذه المراحل المختلفة نجد أن حدود المعمور تتسع بالتدريج، ولكن هذه القوة الأمفيبية تجد نفسها دائما واقعة وسط كتلة برية ما فى الشرق الآسيوى وقوة أو قوى بحرية ما فى الغرب الأوربى. ونجد أن الصراع بين القوى البرية والبحرية

عملية تتكرر كما لو كانت قدرية، وتجد نفسها محصورة بينها. فإما أن تكون قوية منيعة فتمنع هذا الصراع (الحياد الإيجابى) بل وتسيطر على القوتين (كما حدث أيام العرب) فتصبح بذلك خط الاستواء السياسى فى العالم القديم، وإما أن تتقاعد وتتقاعس فتترك أرضا تصادمية حاجزة فتصبح منطقة "الرهو" السياسى بين القوتين؛ وإما أن تكون عاجزة تماما فتتقاسم أو تبتلعها إحدى القوتين فتصبح خطا من خطوط الخمود السياسى كل ما هنالك من تطور أن أحجام القوتين القطبيتين تتزايد ونطاقات الصراع بينهما تتسع نتيجة طول مدى أو "نفس" الحركة البشرية Mobility مع تقدم الحضارة وفنون الحركة: من أبعاد محلية إلى إقليمية إلى قارية إلى نصف كروية!، وحتى أصبح مجموع القوتين معا يعادل الكوكب كله أخيرا وحتى لم تعد منطقة الشرق العربى إلا حلقة فى سلسلة متصلة أكبر هى منطقة الارتطام الجديدة، هذه هى الشخصية الاستراتيجية الكامنة الكاملة لعالمنا العربى. ولكن إلام يرجع هذا التفاوت فى مصيرها؟ هذا يرجع إلى العلاقة النسبية المتغيرة بين قيمتها كموقع وقيمتها كموضع: فموقعها الحساس الحرج الأوسط يستدعى منها أن تكون قوية راسخة فتصبح منطقة توازن؛ ولكن خصائصها الموضعية المتوسطة الثروة عامة تقعدها أحيانا عن هذه المسئولية، فتصبح منطقة ارتطام، ولقد كانت المنطقة حتى وقت قريب ضعيفة فكانت منطقة ارتطام.

ولكن الوضع الاستراتيجى الراهن يحمل بذور تطورين خطيرين فى الموقع وفى الموضع فأولا فى الموقع أخذت القوة البحرية تتمزق بالتدريج فى قطاعها الاستعمارى فى المقر الآسيوى — لضياع الهند والهند الصينية وأندونيسيا، فهذا قلل نوعا من القيمة — والأخطار — الاستراتيجية لموقع الممر العربى، ومع ذلك فيلاحظ أن ضياع المستعمرات الآسيوية نقل مركز ثقل الاستعمار إلى أفريقيا المدارية جنوب الصحراء، من الإمبراطورية الثانية إلى الإمبراطورية الثالثة، وأنه لذلك لا يزال لموقع العالم العربى قيمته كالممر الضرورى سواء من الهارتلاند أو

أوروبا، ولعل هذا يفسر الحركة الخفيفة Shift فى بعض الأهمية الاستراتيجية من صحراء العرب إلى الصحراء الكبرى، من العالم العربى الآسيوى إلى الأفريقى، كما ينعكس فى مشاريع ومحاولات القوة البحرية التغلغل فى شمال غرب أفريقيا ومشروعات حلف غرب البحر المتوسط المزعوم، ولكن ثانيا من حيث الموضع ظهرت فجأة ثروة غير منظورة ـ ثروة لها قيمة استراتيجية حيوية ـ البترول.. هذا ـ مع الفارق! ـ هو "بهار" الشرق الجديد ـ ولكن هذه المرة أصبح الممر المقر ـ أى أن قيمة العالم العربى كممر ربما قلت نوعا ولكن ارتفعت كمقر بنسبة أكبر وأكبر، أو أن القيمة الاستراتيجية للمنطقة قلت كموقع ولكن ارتفعت كموضع.

ولكن إذا كان هناك استمرار تاريخى فى الخطوط الاستراتيجية العامة للعالم، فإن هناك من الأدلة ما يشير إلى أننا نشهد بذور انقلاب استراتيجى خطير لا يمكن التبنؤ به تماما، وأننا على عتبة حقبة استراتيجية جديدة تماما فى تاريخ الكوكب. هذه هى الاستراتيجية الذرية التى نقلت الصراع من الأرض إلى الفضاء، من الاستراتيجية الأرضية Geostrategy إلى الاستراتجية الغازية Atmostratagy، من المرحلة الكوكبية Global إلى المرحلة الكواكبية Planetary إن هذا الانقلاب لا شك يلغى الاستراتيجية التقليدية من قوة بر وبحر ومنطقة ارتطام، ويلغى فكرة الموقع إلى حد بعيد، ويهدد بأن يضع نظرية ماكيندر عن الثالوث الاستراتيجى فى ذمة التاريخ، ولكن التجربة التاريخية تؤكد أنه يندر أن ظهور استراتيجية جديدة يلغى القديمة تماما وفى يوم وليلة، بل تتعاصر أن لفترة طالت أو قصرت وسيتعين على القوى الصغرى خاصة لوقت طويل أن تفكر وتخطط فى ظل الاستراتيجية القديمة لحد بعيد، ولهذا لا ينبغى أن ننبذ نظرية الثالوث الاستراتيجى كلية، أو على الأقل ألا نتجاهل الدرس الذى تعلمه.... .

فمع هذا التحفظ والحذر، يمكننا أن نتساءل ما قيمة هذا الدرس الاستراتيجى التاريخى وما مغزاه التطبيقى بالنسبة للتوجيه السياسى الإقليمى للمنطقة، ليس المرء

فى حاجة إلى بصيرة الأنبياء لندرك أن هذا الدرس إنما هو أن الخصائص الاستراتيجية للمنطقة، سواء من ناحية الموقع أو الموضع، تجعلها عناصر قوة هائلة لها إذا كانت المنطقة قوية سياسيا، وتجعلها عناصر ضعف وتميع لها إذا كانت المنطقة ضعيفة سياسيا، وهى لا تكون قوية إلا إذا كانت موحدة توحيدا سياسيا تاما، ولا تكون ضعيفة إلا إذا كانت ممزقة سياسيا. ففى كل العصور التى لم تكن المنطقة موحدة فيها كانت كل وحداتها أو بعضها على الأقل خاضعة لقوة قطبية أو أخرى، أو على الأكثر نجح بعضها فى حفظ استقلاله بمضاربة قوة بالأخرى Stalemate أى بسياسة غير مضمونة ومحفوفة بكل خطر. وعلى أحسن الفروض تمثل من وجهة نظر القوى القطبية فراغا.. والإمعان فى التمزيق السياسى الذى فرضته القوة البحرية للمستعمرة على المنطقة قام على إدراك كامل لطبيعتها الاستراتيجية الكامنة كمنطقة التحام. فهذا ماكيندر يعلن للقوى البحرية أن السبيل الوحيد إلى الاحتفاظ بالتوازن مع القوى البرية هو بصراحة تحويل منطقة الالتحام إلى أكبر عدد من الدويلات الاصطدامية لتكون درعا خارجيا للقوة البحرية. ومن ثم حدث التفتت الذرى للعالم العربى إلى ٣٧ وحدة سياسية ــ كانت حتى الأمس نحو ٤٠ أى نحو ضعف أوروبا!! ــ فمعظمها من دويلات الجيب الميكروسكوبية المصطنعة هذا عدا الجيوب المحايدة والمتنازعة والأسافين الدخيلة والسرطانية.. كل هذا بينما فى الفترة الوحيدة التى وحدت فيها المنطقة من الداخل ــ الفترة العربية ــ طوعت المنطقة القوى القطبية لنفوذها والدليل التاريخى يشير إلى أن الوحدة ضرورية اليوم عنها فى أى وقت مضى لسبب واضح، فمع تطور الحضارة وفنون الحركة البشرية زادت أبعاد الكتلتين القطبيتين باطراد أى أن الأخطار المحدقة تتضخم باطراد عنيف وأقل ما يمكن لمنطقة الالتحام إزاء هذا هو أن تتكتل فى وحدة كاملة لتتناسب مع هذه الأجرام المتزايدة على الأقل كضرورة تطورية! فالوحدة إذن ضرورة استراتيجية ــ جغرافية.. وليست متعة ولا أبهة سياسية هذا

واجب المنطقة نحو نفسها أولاً. إن على جميع أعضاء منطقة الالتحام في العالم القديم واجبا نحو البشرية لا يقل خطرا وإلزاما عن واجبها نحو نفسها: هو أن تتحول إلى "كتلة ثالثة" فعالة تمنع مصير العالم من أن يتحدد بالصراع بين القوتين القطبيتين وحدهما، فتصبح طرفا ثالثا فى معادلة توازن القوى الجغرافية فى العالم، خط استواء سياسى حقيقى بدلا من منطقة رهو سياسى، تصبح بمثابة "جيروسكوب" للتوازن الاستراتيجى العالمى بدلا من منطقة ارتطام والتحام، تصبح "ستارا حريريا بدلا من "ستار حديدى" وليس من سبيل إلى هذا إلا بالقوة ـ بالوحدة القصوى بين أى قطاع متجانس فيها والعالم العربى أبرز وأخطر حلقة فى سلسلة المنطقة يصدق عليها هذا التخصيص.

ولكن ـ قد تتساءل أنت ـ إذا كانت الوحدة ضرورة إقليمية، فهل هى ممكنة إقليميا؟ إن الوحدة إذا كانت ضرورة جغرافية، فإنها كذلك حقيقة تاريخية، فلقد توحد الإقليم توحيدا تاما فى الفترة العربية، كما وحد ولكن فى ظل الاستعمار التركى، فهل من الممكن أن يعيد التاريخ نفسه ـ مع ملاحظة الفارق الزمنى؟ الواقع أن الفارق الزمنى يجعل الوحدة أكثر إمكانية اليوم عنها فى أى يوم مضى، فأولا يلاحظ أن حجم الوحدات السياسية العادى قد زاد على مر العصور واتجه عموما من الضيق إلى الاتساع ـ لأن الثورة الهائلة فى وسائل المواصلات والنقل زادت جدا من مدى حركة الإنسان Mobility وألغت المسافات واختزلت عنصر الزمان فانكمش المكان. فقيمة كثير من العوامل الجغرافية كعوامل فصل تضاءلت مع المواصلات الحديثة، وتحولت إلى عوامل وصل، ويكون شذوذا وعجزا حقا أن حركة الجمل والحصان يمكن أن توحد العالم العربى من الفارسى إلى الأطلسى وتعجز عن ذلك الحركة الميكانيكية الحديثة! ولئن كان من نقط ضعف الدولة العربية الإسلامية وعوامل تفككها وانهيارها شدة تراميها من الشرق إلى الغرب بحيث كان لها طول. ولم يكن لها عرض أو عمق حتى تداعت وتمزقت من فرط

انسياحها إلى دويلات أو خلافات ثلاث أو أربع، فإن نقطة الضعف هذه انتهت الآن نهائيا مع عصر النقل الحديث ثانيا نلاحظ أن قوة الرجال Manpower والموارد التى ثبت أنها كانت فى النهاية من عوامل ضعف وانحلال الدولة العربية القديمة نظرا لإمكانيات موضعه المتوسطة القوة، ولم تعد موجودة فى العالم العربى اليوم، فلقد تضخم عدد السكان عن الماضى تماما، وأتت إمكانيات البترول كثروة أو كثورة موضعية لا مثيل لها فى تاريخ المنطقة، بحيث زادت إمكانيات المنطقة من الموارد وقوة الرجال لدرجة تؤهلها للقيام بدورها الاستراتيجى الاستقلالى إذا توحدت. فأنت ترى أن الوحدة العربية ضرورة جغرافية وحقيقة تاريخية، فهى تطور خلاق لابد أن ينجح لأن ما كان التاريخ أباه والجغرافيا أمه لا يمكن إلا أن يكون من صنع الإله!.

الوحدة العربية بين مقوماتها ومعوقاتها[1]

هى بعض نقاط أو ملاحظات نود بها بعضا من التوضيح الهادئ لعدد من مفاهيم القومية والوحدة العربية، وصولا إلى بلورة أدق وأشمل للفلسفة العامة التى ننظر بها إلى هذه القضية الحيوية، ونحن لا نشك فى أن أى عربى تقدمى مخلص حين ينظر إلى الوحدة العربية الكبرى فإنما ينظر إليها على أنها قدس الأقداس فى محراب السياسة القومية بل وقد يتخذ منها كعبة علمانية يهوى إليها فؤاده وينبض بها ولها عقله وقلبه.

وكذلك لسنا نعتقد أن هناك الآن اختلافات جوهرية أو خطيرة على الأوليات فى حيثيات القضية ـ أو هكذا ينبغى ـ فالكل يكاد يجمع على أن الوحدة ضرورية وممكنة: ضرورية لأنها قدر ومصير، مصلحة وسلامة، وممكنة لأنها انبثاق طبيعى وحقيقة موضوعية فى ذاتها تقع خارج عقول المثقفين أو تصورهم الفكرى قبل أن تقع داخلها، مثلما تسبق نشاط السياسيين وجهودهم.

وإنما قد يأتى الخلاف أحيانا بعد هذا من اختلاف المنظور أو الفلسفة التى يقترب بها هذا المثقف أو ذاك من القضية متأثرا فى ذلك بأرضيته العلمية أو حصيلته التخصصية وهنا ـ كما حدث بالفعل ـ قد ينشأ سوء الفهم حول دلالة لفظ أو مغزى كلمة، وهنا بالتالى يكون الرد ببساطة فى وضوح الفكر والتحديد والتعريف الدقيقين.

غير أن هناك خلافا أهم من هذا وأخطر، وأعنى به الخلاف بين المثالية الجامحة المجنحة والواقعية الموضوعية الصلبة. فالأولى من فرط حماسها وعنفوان حرارتها واندفاعتها ـ التى لا تثريب عليها فى ذاتها ـ تتعرض لخطر الغموض

---

[1] مجلة الكاتب – العدد(٥٩) – فبراير ١٩٦٦م.

الصوفى أحيانا أو الانفصال عن الحقائق أحيانا أخرى أو التردى فى التناقضات الذاتية فى بعض الأحايين.

والثانية لعمليتها متهمة بالتحفظ والحرص والحذر الذى قد يؤول – خطأ بالتأكيد ما دمنا قد افترضنا وحدة المبدأ الوحودوى القمى – بالتمسك بالأمر الواقع، واقع التجزئة والتفتت.

وصميم الأمر الذى نود أن نتخذ منه نقطة ابتداء لتبديد هذا الغموض وهذا التناقض هو أنه ما من وحدة سياسية على أى مستوى كمى أو كيفى، عمقا أو اتساعا، إلا وتنتظم قدرا ما لا مفر منه من "المساومة" بين عوامل وصل وعوامل فصل، وإنما الأمر بعد هذا هو تقييم كل من هذه السوالب والموجبات، فتضع هذه فى كفة وتلك فى الكفة الأخرى من الميزان، فأما الانفصاليون ودعاة التجزئة فهم الذين يغلبون عوامل الفصل بغير حق أو عدل، وأما الوحدويون فيرجحون عوامل الوصل، ومعنى ذلك أن هناك دائما مجالا للهوى والانحراف، للتعصب أو التحمس، للجنوح أو الجموح، وفى كل الحالات يصبح التقييم الموضوعى الرشيد علميا هو المحك الأخير والفيصل النهائى.

وليست الوحدة العربية فى هذا ببدع، فهى – كترجمة تطبيقية سياسية لفكرة أو مبدأ القومية العربية – تجد مقوات أساسها تتأرجح بدرجات متفاوتات وبالرغم منها بين عوامل الوصل والفصل، وتتعرض من هنا وهناك لحركات الشد والجذب والمد والجزر، فإذا بها تتحول ظاهريا من مقومات للقومية إلى معوقات لحركة الوحدة، وبين هذا وذاك ينفذ أعداء الوحدة من رجعية محلية واستعمار أجنبى إلى مضمونها بالتجريح والتعريض أو التخريب، ومن هنا تأتى البلبلة الفكرية أحيانا والتضارب الحركى أحيانا أخرى، وقد يختلط الأمر على الوحدويين المخلصين أنفسهم حتى لقد تتعثر حركة الوحدة على أيديهم هم أنفسهم من جانب وبين أقدام

أعدائهم فى الداخل والخارج من جانب آخر، وما نحسب إلا أن واقع قضية الوحدة اليوم تعبير ملموس بدرجة أو بأخرى عن هذه الحالة.

وفى رأينا أن التقييم والوزن الموضوعى السليم للموقف هو صمام الأمن والبوصلة الهادية التى تعيد الاتجاه الصحيح إلى الحركة، فالقول بأن عوامل الوصل داخل الوطن العربى مكفولة مائة فى المائة وتنفى بذلك كلية أو تلغى عوامل الفصل، دعوى قد تضر بالقضية، تماما مثلما تهدمها دعوى الانفصالية التى تعمى عن عوامل الوصل وتضخم عوامل الفصل كما لو بميكروسكوب وميكروفون معا.

ونحن لا نتردد لحظة فى أن نقرر بكل تأكيد أن الدراسة العلمية المستأنية، أمينة ومخلصة، تجعل الغلبة المطلقة كل الغلبة لعوامل الوصل، ولا تترك عوامل الفصل إلا هامشا منزويا هزيلا وباهتا، ولكن أن نغفل عن طبيعة هذه المعادلة الناقصة فهذا ما يفتح الباب فعلا لأعداء الوحدة بالتخرصات المكذوبة والدعايات المدسوسة والتآمرات التحتية الخبيثة والفوقية السافرة، بينما أن الإدراك الواعى الصحى بها جدير فى المستقبل لا بتحقيق الوحدة على أسس وطيدة راسخة فحسب، وإنما بأن يمتص بعدها كذلك عوامل الفصل الثانوية تلك بالتدريج ويحولها إلى حساب الوحدة رصيدا واحتياطيا.

فى هذا الضوء وعلى هذه الأسس، لن نتقدم هنا لنناقش كل مقوم وركن من قواعد القومية العربية والوحدة، وإنما سننتخب مقوما واحدا جذريا نركز عليه البؤرة هو وحدة الأرض لنقيم مغزاها بالنسبة إلى الوحدة، ما لها وما عليها، وجوانب قوتها ومواطن ضعفها، ولنضع أيدينا على احتمالات التناقضات الفكرية داخلها ومؤشرات العمل الإيجابى إزاءها.

وحدة الأرض:

"كل دولة فهى قطعة من الأرض وقطعة من البشرية" هكـذا ـ فـى جملـة اختزالية مركزة ـ يقول الجغرافى الألمانى فريدريخ راتزل فى تحليـل عناصـر الدولة، ولكن الغريب فى أمر الشق الأرضى أن البعض يمنحه أهمية كبـرى فـى كيان الدولة أو القومية وذلك باعتباره الوعاء الطبيعى أو البيت الجغرافـى، بينمـا يبالغ البعض الآخر فى إهماله وعدم الاكتراث به بحسبانه العنصر غير العضـوى وبالتالى الخامل السالب غير الفعال فى مركب الدولة، وبين هذه المغالاة واللامبالاة لم يكن غريبا أن ينشأ شيء من سوء فهم أو أن يتكاثر فى الموضوع بعـض مـن أوهام العوامل بل أكاد أقول من أوهام الخواص أحيانا.

ولوحدة الأرض، من زاوية القومية التى تقوم عليها، بعدان واضحان بما فيه الكفاية: وحدة الامتداد أو التماسك بمعنى أن يخلو الوطن من انقطاع أرضى حاسم فيه، ووحدة التجانس أو التماثل بمعنى أن تتشابه أجزاء الوطن فيما بينهـا طبيعيـا بحيث تمثل وسطا بيئيا متشابها وموحدا.

وحدة الامتداد:

ونبادر على الفور فنقول إن النوع الأول من هذه الوحدة لا يشـكل قضـية خلافية ذات بال فى الوطن العربى الكبير، حقا قد يكون الـوطن العربـى بفعـل الصحراء رداء فضفاضا بعض الشيء بالنسبة إلى عدد السكان، حيث يزيـد عـن مساحة أوروبا ويمثل حين الوحدة ثانى دولة فى العالم من حيـث المسـاحة بعـد الاتحاد السوفيتى، بينما يقل سكانا عن خمس الأولى أو نصف الثانى.

ولكن عالم العرب على ضخامته رقعة أرضية متصلة تخلو من أى انقطـاع هام يعوق الترابط والتواصل بين أركانه، وليس البحر الأحمر ـ عمليا ومن الناحية الوظيفية ـ إلا خدشا يسيرا نسبيا على صفحة هذه الرقعة. وعلى أية حال، فأنـت

تستطيع نظريا أن تنتقل من أى نقطة فى الوطن الكبير إلى أى نقطة فيه بـــرا، ولا عبرة هنا بالعائق الصهيونى العارض الذى هو لا شك إلى زوال محتوم.

ومن الناحية الأخرى فإن هذه الرقعة تمتاز بحدود طبيعية حاسمة بمـــا فيـــه الكفاية لأن تبرز وتبلور كيانه مثلما تحميه، ولكن دون أن يعزله ذلك عن الأســـرة البشرية الكبرى أو أن يحول بينه وبين التعامل والتبـــادل معهـــا، فعـــدا الحـــدود السواحل، لن تجد على أطراف العروبة إلا جبالا شماء فى الجنـــاح الآســـيوى أو صحارى شاسعة فى الجناح الإفريقى.

غير أن هذه الوحدة الأرضية الشكلية تعود على المستوى الحيوى والعمرانى لتتحول إلى انقطاع واضح، فالأمة العربية كما هو معروف لا تنتشر على صـــفحة هذا الوطن الكبير انتشارا غطائيا عالميا، وذلك لغلبة الصحراء على السواد الأعظم منه، وإنما هى تتركز بعنف وصرامة فى قطاعات شريحية محدودة منه لا تزيـــد كثيرا فى مجموعها عن كسر متواضع من مساحته الكلية.

ويمكن ـــ تبسيطا ـــ أن نحدد نمط العمران العربى فى هيكله الأساسى فـــى حلقة متصلة بدرجة أو بأخرى تحيط بالجزيرة العربية وتشمل سواحلها المأهولـــة ابتداء من الحجاز واليمن ثم الجنوب العربى، ومنه تستدير لتجمع إمارات الخلـــيج مرة بعد ذلك بالهلال الخصيب فى العراق والشام، ثم يأتى وادى النيل مصر ليغلق الدائرة، ويكمل الصورة ذراعان قويتان جنوبا فى السودان وغربا على طول ساحل البحر المتوسط لتشمل شريط ليبيا ثم جزيرة المغرب العربى الكبير.

فالمعمور العربى إذن يتألف أساسا من عقد متصل الحلقات أو منفرط الحبات بدرجة أو بأخرى، من مجموعة من "الجزر" البشرية فى بحر الرمال أو بـــالأحرى بين بحر الرمال وبحر الماء، والكل أشبه شـــيء بأرخبيـــل عمرانـــى كبيـــر. إن الصحراء هى فى التحليل الأخير عامل الانقطاع الرئيسى فى مورفولوجية الأمـــة

العربية، ولا جدال فى أن انقلاب المواصلات وثورة النقل الحديثة تختزل هذا الانقطاع بل تكاد أن تلغيه، ومع ذلك تظل كثافة التفاعل وتواتر الاتصال وتدفق الحركة بين أعضاء الجسم العربى أخف مما كان يمكن بغير هذا الفاصل.

هل يقلل هذا، فى النهاية، من الوحدة الأرضية للأمة العربية؟ كلا على وجه التحقيق، فلا زالت شبكة المواصلات الحديثة فى دار العرب تترك الكثير فى مجال النمو والتوسع. ومن الممكن فى ظل وحدة عربية شاملة أن يتجه التخطيط القومى إلى ملء الفجوات والانقطاعات الحرجة فى هذا العقد بما يمنحه المزيد من الترابط العضوى المتصل وذلك بتكثيف العروبة فيها، ومثال هذه الثغرات نجدها فى سيناء بين مصر والشام، وفى إقليم مريوط بين مصر وليبيا، وفى الجزيرة العليا بين سوريا والعراق.. إلخ.

ولقد يمكن فى معنى أن يذكرنا المعمور العربى الفعال بدولة كإندونيسيا فكل من العالم العربى وإندونيسيا يتشابه فى الامتداد بالعرض وفى عدد السكان. فيترامى كل منهما بين الشرق والغرب نحو ٥٠٠٠ ــ ٦٠٠٠ كليو متر فى المتوسط، ويتراوح كل منهما حول المائة مليون نسمة. وأخيرا يتألف كل منهما عمرانيا من عدة "جزر" حقيقية أو مجازية. ولكن التشابه ينتهى عند هذا الحد. فإندونيسيا مقطعة فيزيقيا وأرضيا بالفاصل المائى، ولكن الصحراء وإن خلت أو خفت من العمران فإنها تظل تلحم جزر العالم العربى ببعضها البعض بحيث لا تؤثر على التماسك والتواصل الوثيق داخل بيت العرب.

وحدة التجانس:

هذا فيما يتعلق بوحدة الامتداد. ولكن يبقى الجانب الآخر من الوحدة الأرضية وهو وحدة التجانس. هنا ينفتح الباب حقا لاحتمالات التأويل والخلط. فما دمنا ننشد الوحدة القومية، فينبغى أن نبحث عنها ــ هكذا يتصور البعض ــ فى البيئة

الطبيعية والرقعة الجغرافية. بل حدث بالفعل أثناء الوحدة السورية ــ المصرية أن حاول بعض الكتاب أن يبحث فى غمرة الحماس الدافق عن تشابه جيولوجى بين الإقليمين!

ولكن الواقع الطبيعى ــ وأسفاه ــ لا يستجيب لحماسنا ولا لبحثنا. فإذا ما افتقدنا التجانس الطبيعى المطلق على مستوى الوطن العربى. وتكشفت لنا بالضرورة والواقع فروق جغرافية واختلافات إقليمية، إذا ما تبلورت بعض هذه الفروق والاختلافات فى "شخصيات إقليمية" متفردة أو متمايزة من حيث عبقرية المكان بدرجة أو بأخرى، عد هذا فى حالة قطر مثل مصر تأكيدا "للمصرية" فى وجه العروبة وتشبثا وانغلاقا بالوطنية المحلية الضيقة فى وجه القومية العربية المشرقة المتفتحة، وعد هذا بصورة ما سعيا واعيا أو غير واعٍ إلى التفرقة والتمزيق ولا نقول تخريبا لمقوم جوهرى من مقومات العروبة والوحدة! ولا شك أن مثل هذه الفلسفة الفكرية والتخريجات السياسية تستحق وقفة طويلة ومناقشة عميقة.

إنها إذن قضية المشابهات والفروق الجغرافية بين قطر وآخر من الأقطار العربية، قضية التفرد والتجانس، أو قضية الخصوصية والعمومية، والمطلوب إذن ممن يتصدون لمثل هذه النواحى من الدراسة أن ينقبوا عن أوجه الشبه وتأكيدها والضغط عليها، ونكاد نضيف أن المفهوم لذلك منطقيا وضمنيا أنهم مدعوون كذلك إلى إهمال أوجه الاختلاف الطبيعى إن أمكن، فكلما كنت وحدويا طيبا كان من الطبيعى أن تنقب عن التجانس الطبيعى داخل الوطن الكبير وتبرزه تجسيما وتضخيما، وإن أمكنك أن تغفل الفروق وتعتم التفرد المكانى فذاك خير وأجدى وحدوية..

خذ مصر مثلا، حين تنظر إلى الوادى الواحىّ ممــدودا بــين الصــحراوين المجدبتين وتعتبر دوره التاريخى فى توجيه نشاط السكان وبعض معتقداتهم القديمة، وحين تتطلع إلى السماء الزرقاء الصافية وما عسى قد أوحت به من روح المــرح والانبساط ومن فن العمارة المفتوحة، إلى آخر ملامح الوادى والمصريين، فأنــت تفترض تفردا لا وجود له من عبقرية المكان لأن مثل هذه الملامح يمكن أن نجدها خارج مصر: فثمة وجوه الشبه بين أرض مصر والعراق، والوطن العربى الكبيــر ليس إلا وديانا خضراء أو واحات بين صحارى مقفرة، وزرقة السماء تشمل العالم العربى جميعا، ومثلها وأكثر منها تفعل العمارة الإسلامية.. إلخ وبالتالى فأنت تنتهى إلى "مصرية" أدخل فى متاهات الغيبية وشطحات الخيال، ترى بالوهم والادعاء ما ليس هناك..

هذا باختصار شديد هو مفهوم بعض المثقفين لقضية وحدة الأرض من حيث مغزاها السياسى والقومى، وردنا على هذا الموقف أن هــذا المنطــق ينبــع مــن مفهومين محوريين نخشى أنهما بحاجة إلى أكثر من إعادة نظــر. أولهمــا حقيقــة المشابهات والفروق الطبيعية بين أجزاء العالم العربــى، وثانيهمــا مغــزى هــذه المشابهات والفروق الطبيعية بين أجزاء العالم العربى، ومغزى هــذه المشــابهات والفروق بالنسبة إلى الوحدة السياسية.

حقيقة الوحدة والتنوع:

ولعل من الخير أن نبدأ مناقشتنا للمفهوم الأول ببعض أمثلة نوعية قبــل أن نحاول أن نرسم صورة كاملة للتنوع والوحدة الطبيعية داخل الوطن الكبير، ولتكن المقارنة بين العراق ومصر أول الخيط. ولا يمكن حتى لمبتدئ فى الجغرافيــا أن يجهل أو يتجاهل التشابه الجذرى الأسى بينهما، فمن الأوليات فى هذا العلم أنهمــا نموذجان مثاليان ـــ إلى درجة الكلاسيكية ـــ للبيئة النهرية الفيضية بكل ما تحمــل

هذه من تركيب مورفولوجى وأنماط اقتصادية وإنتاجية وحيوية، ولكل ما قد يترتب على ذلك بدرجة أو بأخرى من مشاكل فنية وسمات اجتماعية فى الحياة اليومية، وربما من نظم سياسية وتطورات تاريخية.. إلخ.

إن كلا منهما واحة أو بالأدق شبه واحة طويلة ممدودة تحتل حوضا بين جبال وصحارى، ومستنقعات برارى الدلتا المشبعة عندنا تقابلها أهوار وصرايف شط العرب الإسفنجية فى العراق، ودلتانا السوداء الغنية يناظرها "السواد" القديم فى دلتا الرافدين، وصعيدنا الدقيق الذى يزداد اختناقا بين التلال كلما صعد جنوبا يكرره شقا الدجلة والفرات اللذان يزدادان اختناقا وغورا كلما صعدا شمالا.

وهناك بعد هذا بالفعل تناظر وتوازٍ وأحيانا تماثل بين تاريخ العراق ومصر قديما وحديثا، ابتداء من الطغيان الأوتوقراطى والإمبراطورى عند الفرعونية وعند بابل وآشور، إلى قوة التنظيم البشرى فى "المجتمع الهيدرولوجى" مجتمع زراعة الرى وتل القرية ونواة الكهنة وفنون الهيدرولوجيا والترع والأقنية والمساحة والفلك وفنون الكتابة والتقويم وحياة المدن ومجتمعات التجار والحرفيين.. إلخ. ومن المرجح – دون ما حتم جغرافى – بعد كل هذه التشابهات فى الوسط الطبيعى والوسط البشرى أن تتقارب الأمزجة والطوابع الشعبية ونمط الحياة بقدر أو بآخر.. إلخ.

حسنا، ماذا إذن؟ إذا كان من الحق والحقيقة أن نذكر هذا التشابه الأسى بين القطرين العربيين الحميمين والعزيزين، فإن من الموضوعية أيضا ألا نغفل عن فروق قد تأتى فى المرتبة الثانية أو حتى الثالثة، ولكن بغيرها لا تكتمل الحقيقة الواقعية، لا سيما إذا كانت ستترتب عليها بعض فروق فى الملامح البشرية والتوجيهات التاريخية.

فإذا كانت مصر تتجسد وتتكثف بصرامة ولهفة حول النيل، فإن العراق أرض الرافدين وبلاد النهرين أوسع رقعة وأقل تماسكا وتكاثفا، فهو مساحة حيث مصر كثافة، ومن ثم كان نسبيا أقل وحدة فى المجال السياسى عبر العصور وشهد فى تاريخه تفككات وانقسامات إقليمية أكثر مما عرفت مصر، أو بين الشرق والغرب حين لم تعرف مصر إلا المركزية المطلقة والدولة الموحدة، حتى فى وجه الاستعمار الأجنبى، خضعت مصر ككل أو لفظته ككل، بينما عرف العراق فى تاريخه مراحل سقط فيها جزء دون آخر.

وإذا كانت مصر واحة صحراوية، فإن العراق واحة استبسية، بمعنى أن الصحارى التى تغلفها صحارى مخففة لا تخلو من غطاء عشبى يمكن للحركة إن لم يكن للحياة، بحيث كانت الصحراء عاملا موجبا كل الإيجاب فى تاريخ العراق فى الوقت الذى كان دورها سلبيا فى تاريخ مصر، مثلا كان العراق دائما ــ ويظل ــ يضم بين جنبيه قطاعا هاما وخطيرا من الرعاة الرحل الذين يمثلون عنصرا من عدم الاستقرار السياسى ونواة قبلية محافظة اجتماعيا، ودور "العشائر والشيوخ" فى مشاكل التحول الاشتراكى والوطنى فى عراق اليوم هو موضوع دارج من موضوعات الأحداث الجارية لا يعرف له مثيل فى مصر.

أهم من هذا أن الصبغة الاستبسية لشرنقة العراق المغلقة جعلته أسهل دخولا للغزاة والهجرات من مصر، وبالتالى فسنجد تاريخه أكثر قلقلة وتقطعا وهزة، وتركيبه البشرى أحفل بالأقليات والدخلاء من مصر، وحتى اليوم ينعكس هذا الوضع على كيان العراق السياسى والاجتماعى حيث يواجه أكثر من مشكلة من مشاكل الأقليات. ولكن هذا ــ للدقة ــ يرتبط أيضا بعامل خارجى، وهو ما ينقلنا إلى فارق آخر له خطره القائم بنفسه، ونعنى به الموقع..........[1]

---

[1] يوجد سقط فى هذا الموضع لقطعٍ فى المقال.

خذ الإطار الجغرافى مثلا، مصر نهر واحد ووحيد ولكنه من مقياس ضخم على أقل تقدير، أما العراق فنهران اثنان كل من مقياس لا يقارن بالنيل، أما الشام فشبكة ممزقة من أنهار متواضعة على أكثر تقدير، وبعضها تكاد لا تراه على الخريطة بالعين المجردة، ولكن عددها يقدر بالعشرات، مرة أخرى: مصر واحة طولية متواصلة لا انقطاع فيها ابتداء من جبل السلسلة حتى "فم البحر"، بينما يتألف العراق فى الحقيقة من واحتين طوليتين متجاورتين ولكن فى غير التحام، أما الشام فمواز من الواحات الضئيلة الانخفاضية تتباعد فى بحر من الرمال وموج من الجبال..

حتى مشاريع الرى والترع والخزانات والسدود – الهيدروليكا الصناعية باختصار – تكرر بأمانة نمط الهيدرولوجيا الطبيعية، فالترع والخزانات المصرية قليل عددها ضخمة أحجامها، أما فى الشام فثمة شبكة لا حصر لها إلا أنها نفطية أو رقعية من مقياس ضئيل، وفى المنزلة بين المنزلتين تأتى منشآت العراق، حتى المحاصيل الزراعية فى الحقل تتبع نفس النمط فى خطوطه العريضة: فبينما يطغى فى مصر محصول رئيسى كاسح كالقطن، لا تكاد سوريا تعرف محصولا بارزا بصورة حادة وإنما ثمة قائمة مطولة متكافئة من محاصيل ثانوية، ومرة أخرى يأتى العراق فى موقف وسط تقريبا.

أبعد من هذا: يتفق للمصادفة الجيولوجية البحتة، أن تمتاز مصر فى ثروتها المعدنية بعدد قليل محدود من المعادن التى تنتج أو تكمن بكميات معقولة، بينما يكاد الشام يكون نموذجا كلاسيكيا فى الكتب المدرسية على الإقليم الذى يملك قائمة مرهقة من معادن لا تزيد رصيدا أو إنتاجا عن مجرد عينات! وفى وضع وسط بالتقريب يقف العراق.

خذ الجانب البشرى الخالص، وستجد للغرابة والدهشة نفس المعادلة الإقليمية! مصر كتلة رصينة رصيفة من التجانس البشرى لا تعرف من الأقليات إلا أقلها، فليس ثمة أقليات جنسية (عرقية) ولا لغوية إطلاقا.

والقليل من الأقليات هى الأقلية الدينية (القبطية) وهى أقل نسبة فى الأقطار الثلاثة (٨%)، وحتى هذه الأقلية موحدة فى كنيستها كطائفة، بينما لا تعرف القاعدة المسلمة مذهبية أو تشيعا.

أما العراق فيعانى من الثنائية القومية حيث يؤلف الأكراد أقلية هامة تصل إلى ١٦% من السكان. بينما تعانى الأغلبية العربية بعد هذا من ثنائية أخرى غير مفهومة إلى حد كبير إلا على ضوء مؤامرات الاستعمار وهى ثنائية السنية فى الشمال والشيعة فى الجنوب.

فإذا ما انتقلنا إلى الشام وجدنا ـ مع الأسف ـ ركاما من الأقليات المرصعة كالفيسفساء، دينية وقومية على السواء، وقد تصل هذه الأقليات إلى نسب خطيرة تترك بصماتها عميقة على الحياة السياسية واليومية، كما أن كل أقلية رئيسية تتمزق بدورها إلى عدد أكبر من الطوائف والفرق والشيع.. إلخ.

وليس غريبا بعد هذا أن نجد الاستقرار الراسخ سمة مصرية أكيدة بينما تضطرم الحياة السياسية وتضطرب كقاعدة فى الشام؛ وقد تفور وتمور فى العراق بين الحين والحين.

وقد يبدو غريبا أن نأخذ مثالا بسيطا من الحياة اليومية هو الصحف ولكن الأغرب أن نفس المعدلة ستبرز من جديد: قلة راسخة من وحدات قوية فعالة؛ "ومظاهرة" صاخبة لا حد لها من صحف متواضعة التوزيع والنفوذ فى الشام، بينما يأتى العراق وسطا بين الطرفين، وهل ترانا ندفع بالاستقصاء والاستقراء إلى أبعد من حدوده السليمة إذا قلنا إن الثورة والثورية، كظاهرة سياسية تتعلق بالاستقرار أو

عدمه، تكرر نفس المتتالية: فمنذ الاستقلال عد فى الشام مثلا حوالى ١٥ ثورة وانقلابا فى ١٥ سنة، مقابل ثورات ثلاث فى العراق؛ وثورة وحيدة فى مصر!

حسنا ماذا نريد أن نقول؟ لسنا نقصد للحظة أن نؤكد الفروق الطبيعية والبيئية بين أقطارنا العربية لنطمس معالم التشابه بينها، ولكنا نقول إن ثمة فروقا، وليس يجدى فى مواجهتها ــ علميا أو قوميا ــ منطق "لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم" فنحن حين ندفن رءوسنا فى الرمال تحت وهم تجانس أو بالأحرى "تجنيس مبتسر مصطنع، فما أفدح الثمن الذى يمكن أن ندفعه عمليا ووحدويا وعلى سبيل المثال، فمن الثابت أن الانتقاض الآثم على الوحدة السورية ــ المصرية الرائدة وجريمة الانفصال حدثت بفعل البورجوازية والإقطاعية الرجعية السورية كرد فعل أو كثورة مضادة ضد اشتراكية الوحدة التقدمية. ولكنا لم نقف لنتساءل لماذا استطاعت قوة البورجوازية والإقطاعية أن تقف فى وجه الاشتراكية فى سوريا بينما اندحرت من قبل فى مصر؟ من المحقق أن هذا يرجع ــ من بين ما يرجع ــ إلى أن دور التجارة وحرف الوساطة والنقل والسمسرة.. إلخ فى الاقتصاد السورى كان دائما أقوى منه فى مصر نسبيا بكثير؛ والأرقام توضح أن نسبة المشتغلين بالحرف الثالثة (التجارة والخدمات) فى سوريا هى تقليديا من أعلى ما فى المجتمع العربى، ومن ثم فجسم بورجوازية المدن والليبرالية والإقطاع أقوى حجما ونسبة؛ ونفوذه على الاقتصاد والسياسة كقوة محافظة رجعية (تذكر الشركة الخماسية!) أشد وأخطر منه فى كثير من الدول العربية الأخرى، ومن هنا كان جزء من شراسته فى مواجهة اشتراكية الوحدة والوحدة ذاتها من بعدها.

ديموغرافية العواصم الإفريقية[1]

للعواصم جاذبية خاصة، لا أقصد على السكان أو الصناعات، ولا على المرافق أو الخدمات فحسب، وإنما كذلك من ناحية البحث البحت على أصحاب الجغرافيا وغيرهم من "الباحثين فى المكان"! والعواصم فى الجغرافيا أرض مشتركة بصفة خاصة بين الجغرافى السياسى وجغرافى المدن، يطرقانها بنشاط أكثر من عادى، ولعلنا لا نغالى إذا قلنا إن أكثر المونوجرافات ــ الدراسات المنفردة ــ التى وضعت فى جغرافية المدن بل وفى اجتماع المدن انصرفت إلى العواصم ابتداء من نيويورك العملاقة حتى مدينة الفاتيكان "الذرية"! أما فى الجغرافية السياسية فالعواصم صِنْو الحدود: يكاد كلاهما يتناظر ويترابط لا فى الواقع السياسى فقط وإنما أيضا يتواكبان فى الدراسة والاهتمامات الأكاديمية، ويكفى أن نتذكر أن جغرافيا كبيرا مثل هويتلزى فى عمله الفذ "الأرض والدولة" اتخذ من العاصمة محورا حيويا لدراسة الدولة دراسة جيوبوليتيكية[1]. كاملة.

والعواصم السياسية فى إفريقيا، ربما أكثر منها فى أى قارة أخرى، تلعب دورا خطيرا جدا فى حياة القارة الظافرة، فهى لا تمثل قمم تطورها وأبرز مرتفعات اللاندسكيب الحضارى فيها فحسب، وإنما هى أيضا أكبر حقول للتجارب الحضارية وأخطر معامل اجتماعية فى القارة، فالعواصم الإفريقية هى أكبر تجسيم لعملية الاحتكاك الحضارى Acculturation بكل ما تحمل هذه التجربة من معان ونتائج. إنها بؤرات للتطور الحضارى وللتحضر، مراكز استقبال وإرسال وإشعاع ثقافى، ولكن أيضا مشاتل للتخمير السياسى ومواطن للقومية؛ بوتقة للانصهار الاجتماعى melting- pot وذوبان القبلية detribalisation، ولكن أيضا جبهة للاصطدام

---

[1] مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – المجلد(٦) – العدد(١) – ديسمبر ١٩٦٢م.

(1) Derwent Whittlesey, Earth & State, Wash., 1944.

الجنسى – إلى كل هذا كان تطور العاصمة الإفريقية وكان دورها، ولا مفر لنا بهذا من أن نعدها أبرز بصمات أصابع أوربا فى إفريقيا، بل هى أكثر من أى أثـر أو إرث حضارى آخر للغرب فى القارة تعد بحق – أردنا أو لم نرد – "أوربـا فـى إفريقيا".

وإذا كانت خطوط المواصلات السلكية واللاسلكية وطرق التجارة عبر البحار هى "الحبل السُّرِّى" بين القارتين فإن العاصمة وحدها فى أغلب البلاد الإفريقية هى "السُّرَّة" التى تربط بين الوليد الحضارى الجديد وبين ما لابـد أن نسـميه للأسـف وبالضرورة بالحضارة الأم الأوربية. وإذا كانت الحضارة الإفريقية الجديدة حتـى الآن حضارة مستعارة أو خلاسية، فإن هذا الكيان المهجن يصل إلى مـداه فـى العواصم، فهى نقط التماسك الحقيقية الحرجة بين عالمين، وهى لهذا لا تمثل كائنات متجانسة مستقرة تماما بل مخلوقات خلاسية مضطربة – Pseudomorph بتعبير شبنجلر(١) هذا نجده فى تركيب السكان سواء من حيث القومية أو الجنس أو السن، ونجده فى تركيب المدنية سواء من حيث البناء الفيزيقى أو الطبوغرافيا الاجتماعية، ولكننا فى كل هذه العناصر ينبغى أن نميز بوضوح بين نطاقين: إفريقيا الشـمالية والمدارية، ثم بين نطاق انتقالى بينهما، فإفريقيا الشمالية أو العربيـة لـم تسـتعر عواصمها أو مدنها من أوربا بل العكس صحيح تاريخيا، ولهذا فـأثر الحضـارة الأوروبية المتدخلة وإن كان ثوريا إلا أنه يأتى فى المحل الثانى، أما فـى إفريقيـا المدارية لا سيما جنوب الصحراء فالمنطقة بكر مُدُنيًا، وعواصمها ككل مدنها وارد حضارى أوروبى بحت وعنصر أولى طارئ فى اللاندسكيب، وفى ضـوء هـذه المؤشرات العريضة يمكننا أن نحلل تركيب العاصمة الإفريقية، والعاصمة الإفريقية بطبيعة الحال تشارك مدن القارة الكبرى فى ملامح كيانها الحضـارى وتكوينهـا المدنى والسكانى، ولكننا يمكن أن نقول إنها تنفرد بينها خاصة بشدة تبلـور هـذه

---

(1) Oswadk Spengler, Dr Untergang des Abendslandes, Junchen, 1922.

الملامح مما يجعلها دائما أكثر تعبيرا بطريقة أو بأخرى عن الكيان القـــومى وروح الدولة، ولهذا كله يبدو غريبا حقا أن دراسة العواصم الإفريقية لم تنل اهتماما كافيا رغم دورها الحيوى هذا، ونحن فى الحقيقة بحاجة إلى عمل جماعى لمســـح هــذه النقط الحرجة فى كيان القارة، وما نحسب إلا أن هــذا عبئنـــا نحـــن الجغـــرافيين الإفريقيين "الأفريقانيين" وفى هذا المقال لن نعرض فى ضوء هذه الشخصية القارية العامة إلا لعنصر واحد هو سكان العاصمة الإفريقية، فنعالج أولا نموها ثم نردفـــه بتركيب السكان الجنسى أو الأثنولوجى ثم نختتم بتركيب السكان من حيث ميـــزان الجنس وهرم السن.

النمـــــو

تقود العواصم الإفريقية مدن القارة بسهولة فى النمو السكانى، فهـــى بعامـــة تسجل أعلى معدلات للنمو مما يوسع الهوة بتزايد مطرد بينها وبين بقيـــة المـــدن، ويرجع هذا القانون العام وهو أن العواصم متى حُددت أصبحت "لعبة الحكومـــات المدللة" كما يعتبر هويتلزى[1] "Once fixed, capitals become the pets of government" وتحتكر لنفسها ميزة "كاستية" أى طبقية تجعلهـــا "أرســـتقراطية المدن" كما يقول شابو[2] أو "كالملوك بين المدن" كما يقول ديكنسون[3]، وفى إفريقيا تضاف عوامل خاصة، فالمستعمرات والجاليات الأجنبية من أوربيـــين وآســـيويين يتركزان أساسا فى المدن عامة ولكن فى العواصم خاصة، كذلك يتفـــق أن أغلـــب العواصم الإفريقية هى موانى ساحلية ولذلك كثيرا ما تصبح المركز التجارى للنقـــل والصادر والوارد إلى جانب وظيفتها الإدارية والسياسية، وهذا يجعلها ضمنا مـــن مراكز الصناعة الإعدادية التى ترتبط بتصدير الخامات سواء المعدنية أو الزراعية،

---

(1) Loc. Cit. p. 4.
(2) G. Chabot, Les Villes, Paris, 1952, p. 87.
(3) City Region & Regionalism, Lond., 1949.

أى أن النواة الإدارية تتكاثف حولها شرنقة سميكة من الوظائف الأخرى مما يـــدفع النمو ويضاعف الحجم[1].

ومع ذلك فقد ظلت المدن الإفريقية عامة بما فيها العواصم فى نمـــو بطـــئ بوجه عام حتى الحرب العالمية الثانية. ولكن السرعة ازدادت منذ ذلك الحين مـــع التطور الاقتصادى والحضارى والسياسى. إلا أن الاستقلال وحده هو الذى أعطى إشارة الانطلاق إن لم يكن الانفجار لكثير من العواصم الإفريقية، وذلك أحيانا مـــن المرحلة النووية مرحلة النشأة مباشرة دون أن تمر بالمرحلـــة التكوينيـــة الوئيـــدة. والنمط الأول من النمو ألصق بالعواصم الأقدم نسبيا والأكبر، بينما الثانى أوضـــح فى العواصم الجديدة التى استحدثها الاستقلال فى الســـنوات الأخيـــرة. والأرقـــام المقارنة التى لدينا عن بعض العواصم الإفريقية توضح سرعة نموها المطلق فـــى القارة[2] ففى ١٩٥٢ كانت لاجوس ٢٥٠ ألفا، بعد أن كانت قد ضاعفت نفسها ثلاث مرات فى ٢٥ سنة. وهى الآن (١٩٦٠) ٣٦٤ ألفا، وفى ١٩٥١ كانـــت نيروبـــى ١٠٩ ألفا ارتفعت إلى ٢٥٠ ألفا فى ١٩٦٠، أى أكثر من الضعف فى أقل من عقد.

وفى أوائل الخمسينات كانت أبيدجان ٤٦ ألفا فقط، سجلت فى ١٩٥٨ نحـــو ١٢٧ ألفا ثم قفزت فى ١٩٦٠ إلى ١٧٧ ألف ، كذلك كانت فريتـــون فـــى أوائـــل الخمسينات لا تزيد عن ٦٤ ألفا ارتفعت إلى ١٠٠ ألفا فى ١٩٥٦ ثم إلى ١٢٥ ألفا فى ١٩٦٠، وقد كانت أكرا فى ١٩٤٨ تضم ١٣٦ ألفا، قفزت فى ١٩٦٠ إلى ٣٢٥ ألفا، ومن العواصم الصغيرة التى فجرها الاستقلال كوناكرى فهى لم تتجـــاوز ٣٨ ألفا فى ١٩٥٧ فإذا بها تسجل ١١٢,٥ ألفا فى ١٩٦٠، وحتى ١٩٤٨ لم تكـــن دار السلام تزيد عن ٧٠ ألفا، ارتفعت فى ١٩٥٧ إلى ١٢٩ ألفا، وفى العقد السابق لسنة

---

(1) William A. Hance, African Economic. Development, Lond., 1958, p. 5.

(2) Darryl Forde, (ed.), Aspects Sociaux de l'Industrialisation et de l'Urbanisation en Afrique au sud du Sahara, Unesce, Paris, 1956, pp. 24 – 33; Statesman"s Year- Book, 1961.

١٩٥٦ تضاعفت داركار مرة، بينما ليوبولدفيل ٤ مرات[1]! وإذا انتقلنا إلى جنوب إفريقيا وجدنا أن كلا من مدينة الكاب وبريتوريا تنمو بين ١٩٥١، ١٩٦٠ من ٥٧٧ ألفا إلى ٧٣٢ ألفا ومن ٢٨٥ ألفا إلى ٤١٥ ألفا على الترتيب وفى الشمال لا تقل الظاهرة وضوحا، فقد نمت تونس بين ١٩٥٦، ١٩٦٠ من ٤١٠ ألفا إلى ٦٨٠ ألفا، والجزائر بين ١٩٥٤، ١٩٦٠ من ٣٦١ ألفا إلى ٨٠٦ ألفا، ويمكن أن نقول إن القاهرة ضاعفت نفسها تقريبا فى الخمس عشرة سنة الأخيرة، وهكذا نجد أن طفرة العاصمة حقيقة تشمل القارة الآن، وتتركها تسبق فى معدلها معدل المدن الأخرى بكثير والمعدل القومى أكثر وأكثر.

التركيب الجنسى

العواصم الإفريقية هى أكثر أجزاء القارة تنافرا فى السكان، فإلى جانب الأهالى الوطنيين، نجد أن العاصمة هى المحل المختار لكل المستعمرات والجاليات الأجنبية، لأن القاعدة العامة هى أن الأقليات الأجنبية دائما سكان مدن عامة، وعواصم خاصة، وهذا ـ ابتداء ـ يجعل العاصمة متعددة اللغات Polyglot، متعددة الأجناس Multi- racial ـ أى أنها تصبح مجتمعا مختلطا فى كل معنى Plural Society. وهذا معناه أن العواصم هى أكثر أجزاء القارة صراعا سياسيا ومشاكل لونية وعنصرية، وفى الدول الإفريقية الصغيرة قد يقتصر وجود الأجانب على العاصمة فقط، ومن الصعب أن نحدد عدد الأجانب خاصة الأوربيين فى عواصم القارة، ولكنه قد لا يقل عن نحو نصف مجموعهم التقليدى فى إفريقيا وهو ٥ ملايين تقريبا، ويمكننا أن نفرق بين العاصمة العربية والمدارية فى سمة أساسية من حيث السكان الأجانب، فالأولى عواصم عالمية Cosmopolitan أما الثانية فاستعمارية Colonial.

(1) G. Balandier, in Aspects Sociaux etc. p. 527.

فالأجانب فى العواصم العربية فى إفريقيا عنصر قديم فى سكانها خلال العصور، وسابق بالقطع للاستعمار الحديث، ثم هو لا يتألف من أبناء القوة المتروبول وحدهم كما هو الحال غالبا فى العواصم المدارية، ففى القاهرة لم تكن الأغلبية العددية فى يوم ما للإنجليز بل للفرنسيين واليونانيين والإيطاليين، هذا عدا الشوام والأرمن، وفى عواصم المغرب العربى يوجد إلى جانب الفرنسيين الطليان والإسبان، أما من حيث القوة العددية، فالأقليات الأجنبية لا تمثل غالبا إلا نسبة محدودة من المجموع العام للعاصمة، وتظل الأغلبية للوطنيين إلا فى بعض حالات الاستعمار السكنى المتقدمة، ففى القاهرة فى تعداد ١٩٤٧ حين كان عدد السكان ٢,٠٩٠,٠٠٠ كان عدد الأجانب ٥٦,١٣٨ فقط(١).

وهنا سنلاحظ أن أكبر تركز أجنبى ليس عاصميا وإنما هو فى الإسكندرية أما فى المغرب العربى فترتفع النسب مع الاستعمار السكنى، ففى طرابلس ٤٠ ألفا من مجموع ١٨٤ ألفا، وفى تونس (١٩٥٦) ١١٢٠ ألفا من الأوربيين من مجموع قدره ٥٦١ ألفا أى نحو ٢١,٥%(٢)، وفى مدينة الجزائر كان يتركز ٢٥% من كل الأوربيين فى الجزائر والبالغين نحو مليون نسمة، أى أنهم كانوا يمثلون نحو ربع مليون من مجموع العاصمة البالغ أكثر قليلا من نصف المليون، ويلاحظ أن هذا كان أكبر جسم من الفرنسيين والأوربيين فى أى مدينة فى الجزائر، ولكن من حيث النسبة تفوق نسبة الفرنسيين والأوروبيين فى وهران، نسبتهم فى العاصمة حيث كانت تبلغ ثلاثة الأرباع فى الأولى مقابل النصف فى الثانية(٣). وهذا أيضا كان أكبر جسم من الأجانب فى أى عاصمة فى إفريقية الشمالية، وثالث تجمع فى القارة بعد جوهانسبرج مدينة الكاب. وإذا انتقلنا إلى السودان وجدان أن عدد الأجانب بلغ

---

(١) تعداد السكان، ١٩٤٧، كراسة ١٥، ص ١٢٤.

(2) Nevill Barbour, A Survey of North West Africa (The Maghrib), Lond., 1959, p. 294.

(3) Walter Fitzgerald, Arfica, Lond., 1955.

فى الخرطوم ١٥,٧٤٧ من مجموع ٩٨,٧٠٧ فى ١٩٥٦ وذلك بنسبة ١٥,٥%[١] هذا وكما فى كل القارة كان الاستقلال السياسى إيذانا ببدء "الخروج الأبيض"، فأخذت الجاليات العاصمية تصفى نفسها بسرعة مثلا كما فى القاهرة من قبل وفى الجزائر أخيرا.

أما فى إفريقيا المدارية فالأقليات الأجنبية أغلبها حديث النشأة بعد الاستعمار وهى فى جوهرها ــ وفيما عدا شرق إفريقيا من أبناء القوة المتروبول، وإن كان هذا لا ينفى وجود بعض عناصر مختلفة أوربية وغير أوربية ولكنها تمثل كسرا ضئيلا للغاية من المجموع العام، ويرتبط عدد الأجانب عادة بنوع الاستعماء سواء سكنيا أم استغلاليا أم استراتيجيا، ومع ذلك فليست هذه العلاقة صارمة ومنطقية دائما، ففى معظم دول غرب إفريقيا خاصة الصغيرة يتراوح عدد الأوربيين فى عاصمة كل حول ألف نسمة كما فى نيامى (١١٠٠) أو أجادوجو (١٤٠٠).

وقد يرتفع الرقم إلى بضعة آلاف فى العواصم الأكبر مثل أبيدجان (٧٠٠٠)، ومع هذا فقد استطاع الاستعمار الفرنسى فى غرب إفريقيا أن يخلق بعض نويّات أوربية ذات حجم ملموس برغم أنها ليست استعمارا سكنيا بمعنى الكلمة، ففى داكار تضاعف عدد الأوربيين خمس مرات منذ ١٩٣٩ فبلغ ٢٢ ألفا فى ١٩٥١ أو ١٠% من كل داكار. وفى إفريقيا الاستوائية الفرنسية كان ثلث البيض جميعا يتركزون فى برازافيل. هذا بينما من الغريب أن الاستعمار السكنى البريطانى فى كينيا لم يخلق نواة كبيرة فى العاصمة وذلك لأنه استعمار أبعاديات وكبار ملاك يقيمون فى أبعادياتهم ولهذا لا نجد فى نيروبى (١٩٦٠) إلا ٢٤,٨٠٠ من البيض تمثل نحو ١٠% من السكان أو ٣٨% من المستوطنين البالغين ٦٦ ألفا[٢].

---

(1) G. Hamdan, "Some Aspects of the Urban of the Khartoum Complex".
(2) Forde, op. cit., pp. 26- 7.

وبالمثل فى الكنغو نجد نسبة ضعيفة إلى حد ما من البيض فى العاصمة لأن الأغلبية موزعة فى المراكز التعدينية والأبعاديات الزراعية. ففى ليوبولدفيل الكبرى (٣٥٥ ألفا فى ١٩٥٩) كان البيض ٢١,٥٦٨ أى بنسة ٦% تقريبا. وأما فى روديسيا فقد كان البيض فى ١٩٥٨ نحو ٨٦ ألفا فى سولسبورى من مجموع قدره نحو ٢٧٠ ألفا بنسبة ٢٣% تقريبا. وأقل من ذلك قليلا نسبة البيض فى لورنسو ماركيز حيث يبلغون ٢٨ ألفا من مجموع ١٠٠ ألف (١٩٥٥)، بينما هى أقل وأقل في لواندا حيث كان ٣٤ ألفا من الأوروبيين من مجموع قدره ١٨٩ ألفا فى نفس التاريخ، وفى اتحاد جنوب أفريقيا نجد وضعا خاصا بطبيعة الحال. فهنا أعظم تجمعات عاصمية بيضاء فى القارة، حيث إن عدد البيض فى مدينة الكاب أكبر منه فى مدينة الجزائر. ولكن يلاحظ أن أكبر تجمع أبيض هنا ليس عاصميا بل هو فى جوهانسبرج (٣٤٩ ألفا من ٨٨٤ ألفا فى ١٩٥١)، أما من حيث الوزن النسبى، ففى ١٩٥١ كان البيض فى مدينة الكاب ٢٤٧ ألفا من مجموع ٥٧٨ ألفا أى بنسبة ٤٢,٥%، وفى بريتوريا كانوا ١٥١ ألفا مقابل ١٣٤ ألفا للآخرين أى بنسبة ٥٣%، وقد ارتفعت أرقام بريتوريا فى ١٩٥٨ إلى ١٨٠ ألفا من مجموع قدره ٣٤٣ ألفا.

وهنا نجد أن بريتوريا من الحالات النادرة فى القارة التى يزيد فيها عدد الأوربيين على عدد الإفريقيين، وبالمثل فى وندهوك، فالبيض فيها ١٩,٠٢١ والآخرون ١٦,٨٦٩ (١٩٦٠). وهذا التفوق الأخير لا يرجع إلى كثرة عدد البيض بقدر ما يرجع إلى ضآلة حجم المدينة عامة. وفيما عدا هذه الحالات النادرة الشاذة، فيمكن أن نقول فى إفريقيا المدارية إن البيض من الناحية العددية يمثلون نسبا ضئيلة من سكان العواصم، ولهذا يصح قول جان درش من أنها "مدن أقامها البيض وسكنها السود". "..création de blancs, se peuple de noirs"(١).

---

(1) Jean Dresch, "Villes Congolaises", Revue de Géog. Humaine et de Ehtnologie, 1949, p. 3.

هذا وأغلب البيض، فى العواصم السوداء هم من عناصر متجددة غير دائمة وأبعد ما تكون عن الاستقرار، وهى تتألف من الموظفين والتجار والفنيين وأحيانا من العمال المهرة، على أن هناك فى هذا الصدد بعض فروق محلية: فالبيض فى عواصم شرق إفريقيا أكثر استقرارا مثلا منهم فى غربها أو وسطها. وعموما فهم كطبقة غنية لها مقدرة شرائية ضخمة وحاجات راقية يلعبون دورا أساسيا فى كيان هذه المدن بحيث يمثلون المحور الاقتصادى الذى تدور حوله العاصمة وتكرس له نواة كثيفة من الخدمات والوظائف، وفى هذا الصدد ـ كما يلاحظ بيير جورج ببراعة ـ تذكرنا العواصم الإفريقية فى كيانها الوظيفى بكيان مدن العيون المعدنية والينابيع أو مدن السياحة[1].

وفى شرق إفريقيا يضاف إلى الأقلية الأوربية أقلية آسيوية غالبا ما تتفوق عدديا، ومن متناقضات الاستعمار أنه يسمى هذه العناصر وأمثالها من الأقليات "بطفيليات الاستعمار"[2]، وينسى من هو الطفيلية الكبرى، وقوام هذه العناصر الآسيوية هو أساسا الهنود ثم العرب ـ على هذا الترتيب، وهم إذا كانوا يتغلغلون فى الريف والمدن الإقليمية، فأكثرهم يتركز فى العواصم بالذات.

ولما كانوا يشاركون بقوة أو يحتكرون التجارة بأنواعها من جملة وتجزئة إلى جانب بعض الوظائف الحكومية، فقد شبه دور الهنود خاصة ـ وهم الذين ينتشرون أيضا فى كل حوض المحيط الهندى ـ بدور الصينيين فى جنوب شرق آسيا.

ولهذا فإذا كان الصينيون قد سموا "يهود جنوب شرق آسيا"[3]، فإن البعض يعتبر الهنود "يهود المحيط الهندى". هكذا نجد ٩٦ ألف آسيوى فى نيروبى فى

---

(1) Pierre George, La ville. Le Fait Urbain à Travers le Monde, Paris, 1952, p. 314.
(2) Jacqueline Beaujeu – Garnier, Géog. De la Population, Paris, 1958, t. 11, p. 18.
(3) G. Gressey, Asia' s Lands & Peoples, 1951.

١٩٦٠ (مقابل ٢٤,٨٠٠ أوربى) من مجموع ٢٥٠ ألفا، وفى دار السلام (١٩٥٧) ٣٠,٤٩١ (مقابل ٤٤٧٨ أوربى) من مجموع ١٢٨,٧٣٢، والواقـع أن الجاليـات الأجنبية فى نيروبى من آسيويين وأوروبيين تكاد تبلغ باسـتمرار نصـف سـكان المدينة، هذا بينما كمبالا من العواصم القليلة التى يقل فيها عـدد الإفـريقيين عـن الأجانب: ففى ١٩٤٨ كان الإفريقيون ١٢ ألفا من مجموع قدره نحو ٢٢ ألفا، هـذا وكما فى شمال القاهرة بدأ الخروج الأبيض يصفى الأقليات الأجنبيـة ــ خاصـة البيضاء ــ من العواصم المدارية، وعملية الأفرقـة Africanisation السياسـية والإدارية يتبعها بسرعة عملية أفرقة فى سكان العواصم.

وإذا كان عدم الاستقرار سمة بارزة فى الأقليات الأجنبية، فإنها أيضا تمتـد إلى الأهالى الوطنيين أنفسهم ــ إنهم فى الواقع الأكثر عدم استقرار فـى نيروبـى مثلا[1].. والسبب فى هذا حداثة هذه العواصم بصفة عامة، فهى لازالـت مجـالا لتيارات كبيرة من الهجرة الداخلة والخارجة التى تشير إلى مرحلة تجريبية تنتهـى بكثير من التيارات الراجعة. وهذا المد والجزر المتصل يحفظ علاقات اقتصـادية واجتماعية وحضارية وثيقة بين الريف والعاصمة، بل إن كثيرا من أهالى العاصمة لازالت جذورهم فى الريف، ولازالوا حضاريا أنصاف ريفيـين وإن أقـاموا فـى العاصمة، ونسبة كبيرة من سكان العاصمة لا يقيمون فيها إقامة دائمة بل يمثلـون سكانا عائمة .Floating pop. ومعنى هذا كله أن المجتمع الإفريقي فى العاصـمة ليس بعد مُدُنيا تماما بل لازال مجتمعا انتقاليا.

وكنتيجة لهذا نجد أن نسبة كبيرة من سكان العاصمة ولدوا خارجهـا، ففـى أكرا مثلا ــ حيث نسبة الوطنيين المقيمين بها دائما تعد مرتفعة بالمقياس الإفريقى ــ نجد أن نسبة من ولدوا بها من سكانها هى ٦٠%، بينما يقدر أن نسبة من ولدوا

---

(1) Unesco, Aspects Sociaux etc, . 142.

من سكان برازافيل خارجها تبلغ ٩٠%[١]، وعدا هذا فإن سكان العاصمة الوطنيين غالبا ما يأتون من مصدر محلى أو إقليمى نسبيا أكثر منه من مصدر قومى شامل، بمعنى أنه لما كانت هذه المدن حديثة كعواصم فإنها لم تجـذب بعـد إليهـا مـن المهاجرين إلا فى حدود دوائر صغيرة مجاورة، ويضاعف مـن هـذا أن أغلـب العواصم الإفريقية متطرفة الموقع فى الدولة بحيث تسود فيها غالبا ـ بحكم القرب الجغرافى ـ عناصر وقبائل الإقليم الذى تقع فيه مباشرة، وهـذا يمنحهـا صـبغة إقليمية ضيقة أكثر مما يعطيها طابعا قوميا واسع الأفق، هذا واضـح مـثلا فـى لاجوس التى تكاد تكون فى واقع الأمر عاصمة أخرى لليوروبا بجانب عاصـمتهم التقليدية إيبادان[٢] كذلك وجدنا أن الخرطوم إلى حد بعيد "عاصمة شمالية" أكثر منها قومية عريضة[٣] ومن الغريب أن نفس هذا الموقع الهامشى المتطرف الـذى قـد يعوق كثيرا من عناصر الدولة البعيدة عن الهجرة إليها، قد يغرى فى الوقت نفسـه عناصر أفريقية من دول مجاورة بالهجرة إليها كما هو الحال فى برازافيل مثلا[٤].

تركيب الجنس والسن

مرة أخرى ينبغى أن نميز بين العواصم العربية الناضجة والعواصم المدارية الناشئة، فالأولى كما تمتاز بالاستقرار فى السكان عامة، تمتاز بالتوازن فى تركيبهم الجنسى ومن حيث فئات الأعمار، أما العاصمة المدارية فيمتاز ميزان الجنس فيها بالاختلال وهرم السن بالاعوجاج، ويصدق هذا على الأجانـب والـوطنيين علـى السواء، فمن حيث الجنس، هى بلا تردد "مدن الذكور" مثلا فى ليوبولـدفيل عـدد الذكور مثل عدد الإناث مرتين[٥] ويرجع هذا إلى أن المدينة لازالت فـى مرحلـة النمو والمهاجرون الوطنيون إليها يتركون عائلاتهم وزوجاتهم فى الريـف طـوال

---

(1) Ibid., pp. 82, 121.
(2) George H.T. Kimble, Tropical Africa, N.V., 1960, Vol. I, p. 98.
(3) Hamdan, op. cit.
(4) Unesco, p. 120.
(5) Id. P. 127.

مرحلة الانتقال التجريبية، وهذا في ذاته يجعل سكان المدينة مرتبطين دائما بالريف، ولكنه يحرم الريف ريف العاصمة أحيانا من الأيدى العاملة فى الزراعة ويضر بتموين العاصمة ولو أنه يرفع من الناحية الأخرى مستوى الدخل فى الريف بما يرسله الذكور إلى عائلاتهم، وهذا الاختلال الجنسى يرفع قيمة المرأة فى المدينة ويضاد تعدد الزوجات، ولكنه من ناحية ثانية يخلق حرفة الدعارة وأشكالا من الزيجات المؤقتة والتسرى.. إلخ، ويضاعف من اختلال الميزان الجنسى أنه حتى الأطفال الذين يرسلون إلى المدينة للتعلم أو العمل هم من الذكور بينما تبقى الإناث فى الريف، على أن الوضع يتحسن بالتدريج مع نمو واستقرار المدينة، والتطور الطبيعى هو إلى التوازن الجنسى، أما بالنسبة للأجانب فهم فى كل الدنيا عناصر مذكرة بشدة Unisexual حتى فى مناطق الاستعمار السكنى وحتى بعد الوسائل الحضارية التى أطالت من إمكانية إقامة البيض فى المدارين، ولو أن هذه العوامل تقلل نوعا من اختلال الميزان الجنسى كما حدث فى سانت لويس وداكار حيث هبطت معدلات الذكورة فى الأولى إلى ٥٦,٥% وفى الثانية إلى ٦١%(١).

أما عن السن، فالعواصم الإفريقية كما هى حديثة السن كمدن فإنها حديثة السن كسكان، إنها من "مدن الشباب" أساسا أى التى تلعب الهجرة فيها دورا هاما، فالوطنيون يرسلون أطفالهم إلى الريف أو يستبقونهم فيه، بينما يرسلهم الأجانب إلى البلد الأم عبر البحار للتعليم، وهذا يصدق على العرب والهنود فى عواصم شرق إفريقيا كما يصدق على الأوربيين فى كل القارة. أما الشيوخ فالوطنيون ينسحبون إلى الريف فى أخريات حياتهم كما ينسحب الأجانب إلى أوطانهم بعد اعتزال الخدمة، والمحصلة النهائية أن العمود الفقرى فى سكان المدينة يقتصر على الشبان المنتجين، وهذا وإن حرم المدينة من تقاليد الشيوخ كعامل محافظ فإنه يعجل بعملية التطور والتحضر(٢).

---

(1) George, La Ville, p. 314.

(2) Unesco, Aspects Sociaux etc., p. 237.

إفريقية

من جغرافية الاستعمار إلى التحرير[1]

أولا ــ ملامح جغرافية الاستعمار:

١ ــ **تأخر الاستعمار فى إفريقية:** لعل أولى الخصائص التى تمنح قارتنا شخصيتها المتميزة تاريخ الاستعمار وتطوره فيها، ويتضح هذا بالمقارنة بالميدان الاستعمارى المجاور فى آسيا، أما المقارنة بأمريكا الجنوبية فغير ذات موضوع لأن تاريخها لم يكن احتلالا سياسيا فقط بل احتلالا جنسيا أيضا، لم يكن استعمارا اقتصاديا بقدر ما كان تعميرا سكانيا، فالاستعمار فى آسيا المدارية بدأ بصورة فعلية فى القرنين ١٦، ١٧، بينما تأخر الاستعمار الفعلى الحقيقى فى إفريقية حتى القرن ١٩، ورغم أن الشرق الأسيوى كان الهدف الأصلى لأولى محاولات الاستعمار، فإنه يبدو من الغريب حقا أن يتخطى إفريقية فى طريقه إلى آسيا طوال تلك المدة ــ تماما كما يبدو غريبا تخطى البرتغال لجنوب إفريقية فى طريقهم إلى الهند، ولكن تفسير هذا يرجع إلى أن استعمار إفريقية مر بمرحلتين أساسيتين. مرحلة أولى طويلة امتدت نحو ثلاثة قرون من القرن ١٥، ١٦ إلى القرن ١٩، وهى مرحلة "الاستعمار الساحلى"، مرحلة مواطئ الأقدام، ظلت القوى الاستعمارية فيها تتأرجح طويلا أمام السواحل دون أن تتمكن من النفاذ إلى الداخل، وذلك بسبب الجغرافيا الطبيعية للقارة ــ الكتلة القارية الضخمة بسواحلها الخطية الصقيلة الصحراوية أو الغابية وبأنهارها الساقطة.. إلخ ــ ولهذا السبب اقتصر الاستغلال على أخف وأغلى السلع الساحلية وهى السكان: تجارة الرقيق، وقد يمكن لهذا أن نسمى مرحلة الاستعمار بالاستعباد، هذه مرحلة "الاستعمار الديموغرافى" وهو نوع من الاستعمار لم تعرفه قارة أخرى،ولو أنه كما يعبر البعض كان حرفيا "استخرابا" أكثر منه

---

[1] **مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – المجلد(٥) – العدد(٢) – مارس ١٩٦٢م.**

استعمارا لأنه كان زيفا بشريا رهيبا أصاب القارة بفقر الدم والضمور حيث انتزع نحو ١٠٠ مليون من أبنائها بما فى ذلك من نقل حيا ومن مات فى الطريق، ولئن صح هذا الرقم، الذى قد يكون مبالغا فيه بدرجة أو بأخرى، فلا شك أن هذه كانت أعظم موجة فى حركات السكان Volkerwanderung فى التاريخ القديم أو الحديث لأن أضخم هجرة حديثة وهى خروج الأوربيين إلى القارات الجديدة فى أثناء القرن ١٨٢٠ ـ ١٩٢٠ لم يتجاوز ٦٠ مليونا. أما منذ القرن ١٩ وخاصة بعد مؤتمر برلين فقد دخل الاستعمار إلى قلب القارة وبدأ يستعمر الأرض لا الإنسان فحسب، فحل "الاستعمار الجغرافى" محل الديموغرافى والاستعمار "الموجب" محل الاستعمار "السالب" وكما كان الاستعمار الديموغرافى نزيفا بشريا فكذلك تحول الاستعمار الجغرافى إلى "نزيف اقتصادى" رهيب فى شكل اقتصاد هدمى وابتزاز لموارد القارة أدى إلى حالة شلل زاحف هو التخلف Raubwirtschaft الاقتصادى المعروف.

وهكذا نرى أن الاستعمار لم يبدأ فى إفريقية إلا فى القرن ١٩، أى أنه بدأ متأخرا عنه فى آسيا نحو قرنين، وذلك رغم أن موقع آسيا أشد بعدا عن أوربا، ورغم أن المستوى الحضارى والفنى والمادى والتنظيم السياسى لآسيا المدارية كان أعلى وأشد قوة منه فى إفريقية البدائية نسبيا، فالسبب إذن فى هذا الفارق الزمنى هو فى التحليل الأخير، الجغرافيا الطبيعية، قارية الكتلة الإفريقية المغلقة الصماء بعكس جزرية أو شبه جزرية الأطراف الأسيوية التى جعلتها مفتوحة سهلة الولوج: قارن مثلا الإقليم الاستوائى القارى فى الكنغو بالإقليم الاستوائى البحرى الجزرى فى أندونيسيا.

٢ ـ **زحف كاسح:** وبعد أن وصل الاستعمار إلى داخل القارة نلاحظ أن سيطرته عليها لم تحدث تدريجيا وعلى فترة طويلة بل تم فى شكل موجة فجائية سريعة انتظمت كل القارة واكتسحتها فى بضعة عقود فقط. وكان هذا نتيجة لتنافس

القوى الاستعمارية ــ ولكن أيضا لأن الظاهرة السياسية ظاهرة "معدية Contagious" غالبا، وذلك فى فترة كانت أوربا قد وصلت فيها إلى قمتها من حيث القوة والتكنيك ولكن بوجه أخص فى فترة امتازت بما يمكن أن يسمى "بالاحتكار السياسى"، فقد كانت أوربا بلا منافس فى سوق السياسة والقوة العالمية، هكذا فجأة بعد مؤتمر برلين تحدد كل شيء فى عقد واحد، ففى ١٨٩٣ كانت كل القارة قد اقتسمت بين القوى الأوربية وانخفضت نسبة المساحة المستقلة فى إفريقية من ٩٥% فى ١٨٧٥ إلى ٨% فى ١٩١٠! هذا بينما فى آسيا لم يصل الاستعمار إلى منتهى رقعته إلا على مدى فترة طويلة نسبيا، كما أنه فى آسيا لم يتعد فى حده الأقصى إلى قطاعا معينا من القارة، أما إفريقية فإنها تنفرد بين القارات الجنوبية بأنها الوحيدة التى خضع أغلبها، وفى وقت ما لم يكن هناك ــ باستثناء ليبريا التى لا يمكن أن يعد استقلالها حقيقيا ــ إلا دولة مستقلة واحدة هى أثيوبيا، فلما سقطت لإيطاليا أصبحت القارة أكبر مستعمرة منفردة فى العالم، أصبحت القارة المستعمرة أو "المستعمرة القارة" بالضرورة! ولاشك أن أوربا حين بدأت تستعمر فى آسيا لم تكن قد بلغت بعد درجة النمو الفنى وقمة القوة التى كانت عليها حين اتجهت إلى إفريقية، ولكن لاشك أيضا أن الفرق فى هذا بين القارتين يرجع إلى الفارق الحضارى العام بينهما فبقدر المدى الحضارى بين القوى الدخيلة والداخلية كانت قوة أو ضعف المقاومة وكان تماسكها أو تهالكها، ولما كانت أوربا هى القارة المستعمرة لإفريقية، فقد كانت هناك بالفعل وكأمر واقع "أورافريقيا" سياسية دون الاسم بل وقبل أن يصطنع الاسم، ولكن لم تكن إفريقية فيها إلا "ظلا أسود للقارة البيضاء" أو ضاحية ضخمة للمتروبول، وشرنقة استعمارية منتفخة حول نواته الكثيفة، ولهذا لم تكن أورافريقيا القهرية هذه فى الحقيقة إلا نوعا من "أوروبا الكبرى Greater Europe" وكانت أوربا الكبرى هذه تتألف من مجموع الإمبراطوريات الأوربية: بريطانيا العظمى وفرنسا الكبرى وإيطاليا الكبرى.. إلى

آخر هذه "الكبريات" الاستعمارية. ومن العبث أن يقال إن أورافريقيا المفروضة هذه كانت "زواجا سياسيا" كما يدعى البعض، فهى لم تكن إلا اغتصابا سياسيا بالضرورة، وإذا كانت إفريقية فى هذه الشركة غير المقدسة تمثل المجال الحيوى لأوربا Lebensraum فإنها كانت بلا مغالاة مجال الموت Todesraum للإفريقين أنفسهم.

٣ ـ **استعمار قصير العمر**: وإذا كان زحف الاستعمار على إفريقية أكثر ضجة منه فى آسيا، فإن حركة التحرير فى إفريقية كانت بالمثل أكثر غرابة وإثارة Spectacular منها فى آسيا، فإذا كان الاستعمار الآسيوى قد سبق الإفريقى بقرنين على الأقل من الناحية العملية، فإن التحرير يكاد يتعاصر فيهما فهو قد بدأ فى آسيا بعد الحرب العالمية الثانية وتم فى نحو عقد، وفى إفريقية بدأ أيضا بعد الحرب الثانية ولا زال مستمرا بمعدل مذهل حتى إن سنة واحدة مثل ١٩٦٠ شهدت استقلال أكثر من دولة فى كل شهر تقريبا! وهنا نرى أيضا أن الظاهرة السياسية الجديدة التحرير، كالقديمة الاستعمار، ظاهرة "معدية" حين تبدأ لا تتوقف، وإنما تتداعى فيها الأفعال وردود الأفعال حتى تشكل موجة مدية فجائية فكما يقول سيتهول: "There is, all over Africa, a chain reaction for independence".

والواقع أنه إذا كان القرن التاسع عشر قرن استعمار، فإن القرن العشرين قرن التحرير.

ويترتب على ما سبق أن الاستعمار كان أطول عمرا فى آسيا منه فى إفريقيا بضع مرات، وذلك رغم المستوى الحضارى الوطنى الأعلى فى الأولى عنه فى الثانية، مثلا لا شك أن "الإمبراطورية الثالثة" كانت أقصر عمرا من "الإمبراطورية الثانية"، وبينما كان الاستعمار البلجيكى يطرق أبواب الكنغو لأول مرة كان

الاستعمار الهولندى قد تخطى القرنين فى جزر "الهند الشرقية" والفارق فى هذا الصدد بين الاستعمارين الآسيوى والإفريقى هو كالفارق بين المرض المزمن والمرض الحاد: الأول طويل ولكنه أقل فتكا، والثانى أقصر ولكن أشد خطرا، وميزة إفريقيا من حيث قصر عمر الاستعمار فيها نسبيا عن آسيا لا ترجع إلى فضل خاص لها فى الحقيقة وإنما إلى روح العصر Zeitgeist التحررية. فإن المناخ السياسى فى العالم كله جعل الثورة على الاستعمار ظاهرة كوكبية غامرة لا علاقة لتوقيتها بعمر الاستعمار هنا أو هناك وهذه فى الواقع حقيقة تكتسح كل نظرية مزعومة عن "دورة" استعمارية زمنية معينة يحاول البعض استغلالها ليثبت أن إفريقيا "استقلت قبل الأوان". ومع ذلك فلا شك فى أن وراء روح العصر هذه عوامل مادية وسياسية صلبة يمكن أن نتعرف منها على اثنين: هناك أولا ميكانيكية نمو المستعمرات، فالاستثمار الاستعمارى سلاح ذو حدين. فلكى يحسن المستعمر استغلال المستعمرات لمصلحته يضطر إلى إدخال الوسائل التى تساعده على ذلك، وهى وسائل من شأنها أن تزيد عدد السكان الوطنيين وبالتالى تزيد استهلاكهم الداخلى للإنتاج، مما يعنى تناقص الفائض الذى يمكن للمستعمر أن يحتكره ويستغله. أى أن الاستعمار فى غمار سعيه لزيادة استثماره للمستعمرة يجد فى النهاية أن هذا يؤدى إلى نقص استثمارها، بينما يجد أن تزايد سكان المستعمرات وارتفاع مستواهم يقوى ساعدهم تدريجيا حتى يتمكنوا من التحرر. وهكذا يؤدى منطق الاستعمار من صميم نفسه وبطريقة ديالكتيكية إلى نقيضه تماما. تلك متناقضة ساخرة فى منطق الاستعمار، وهى وحدها تجعل نهايته محتومة بطبيعته، فهو يهزم أغراضه ويستهلك نفسه بنفسه ويحمل فى كيانه جرثومة فنائه.

العامل الثانى فى تصفية وإذابة الاستعمار هو انتهاء احتكار القوة العالمية فى يد قوى أوربا الاستعمارية Power Monopoly فبعد أن كانت الكرة الأرضية تمثل إلى حد بعيد نظاما سياسيا واحدا مغلقا يخضع للغرب، ظهر فى العالم النظام

الثنائى بين كتلتين متصارعتين وأصبح العالم سياسيا نصفى كرة، فلم تعد المستعمرات تعيش فى سوق سياسى احتكارى تماما بل فى سوق حرة نوعا مما مكنها من انتزاع حريتها حتى بدأت تثبت بدورها أن أبعاد العالم ثلاثة لا اثنان. وإذا كانت المستعمرات الآسيوية أسرع إلى الاستقلال من الإفريقية فهذا لأنها تقع إما لصق أو قرب أو فى ظل القوة "القطبية" الجديدة أما إفريقيا فأقرب موقعا إلى الكتلة الاستعمارية القديمة، بل إن أجزاء منها تقع تماما فى محيطها السياسى أو على الجانب الخطأ من "خط الاستواء السياسى" فى العالم، ولذا فموقعها التحررى أدق وأصعب، قارن مثلا الهند الصينية بالجزائر إزاء الاستعمار الفرنسى.

الخلاصة إذن أن تاريخ الاستعمار الإفريقى جاء مختزلا مضغوطا فى دورته Syncopated إذا ما قورن بالآسيوى. ويمكن من هذه الزاوية أن نشبه الموجة الاستعمارية الأوربية فى إفريقية ــ مع الفارق ــ بالإمبراطورية اليابانية أثناء الحرب الثانية التى كانت أسرع إمبراطورية تنشأ وتحقق أكبر مساحة ثم كانت أسرعها إلى الزوال والانقراض، بينما كانت قصة الإمبراطورية الاستعمارية الأوربية فى آسيا أشبه بتاريخ الإمبراطورية البريطانية، وئيدة النمو ولكنها كانت أعظم الإمبراطوريات اتساعا وأطولها عمرا.

ثانيا ــ مورفولوجية التحرير:

١ ــ **التحرير الإفريقى ظاهرة ثورية**: نستطيع أن نرى كيف جاءت موجة التحرير فجائية وكثورة سياسية فى إفريقية إذ أنه حتى ١٩٥٠ كانت المساحة المستقلة من القارة ــ عدا اتحاد جنوب إفريقية ــ تتألف من دولتين فقط هما أثيوبيا وليبريا، وبذلك لا تزيد عن ٤٣٨ ألف ميل[٢]، أو ٤,٥% من مساحة القارة، تضم نحو ١٦ مليون نسمة من نحو ٢٠٠ مليون أى ٨% من السكان، ثم جاء العقد السادس فكانت الموجة التحررية الأولى، بين ١٩٥٠ ــ ١٩٥٩ استقلت ٧ دول منها

٥ عربية، ٢ فى غرب إفريقية، ولقد كان عام ١٩٥٣ حاسما بالنسبة للعالم العربى الإفريقى إذ استقلت فيه ٣ دول هى تونس والمغرب والسودان، وبهذا أصبح فى القارة ١٠ دول مستقلة مساحتها نحو ٣,٤٧٠,٠٠٠ ميل٢ أو ٣٠% من مساحة القارة وسكانها ١٠٢,٣٤٠,٠٠٠ أو ٤١,٧% من سكان القارة، ولكن سنة ١٩٦٠ وحدها تعد الموجة التحررية الثانية، فهى علامة كبرى فى تاريخ القارة وسنة القدر والقدر بالنسبة لها: كانت ١٩٦٠ "سنة إفريقيا" ففيها وحدها استقلت ١٧ دولة جديدة بمجموع مساحة قدره ٤,٥٧٠,٠٠٠ ميل٢ أو ٤١% من القارة، وبمجموع سكان قدره ٨١,٩٤٥,٠٠٠ نسمة أو ٣٣,٥% من القارة، ولئن بدت نسبة المساحة أعلى من نسبة السكان فهذا لأن الجزء الأكبر من المنطقة التى استقلت هو نتيجة تحلل الإمبراطورية الفرنسية ولذا يشمل قطاعا هائلا من الصحارى هذا ومنذ ١٩٦١ استقلت سيراليون كما تقرر استقلال تنجانيقا فى ديسمبر ١٩٦١ وكذلك أوروندى، بينما ستنال أوغندة الاستقلال الذاتى فى مارس ١٩٦٢ ثم الاستقلال الكامل فى أكتوبر من نفس العام، وبهذا يكون أغلب شرق إفريقيا قد استقل كما يكون حوض النيل قد تحرر كلية، هذا وقد رفعت الوصاية عن جنوب غرب إفريقيا كما أن موعد استقلال كينيا رهن "المساومة" حاليا.

واضح من هذا التطور الانفجارى أن الشيء المثير هو أن معدل زحف التحرير كان أسرع من معدل توسع الاستعمار ولا شك أن العقد السادس من هذا القرن أخطر وأوقع من نقيضه المباشر، العقد التاسع من القرن الماضى، واليوم ١٩٦١ أصبح فى القارة ٢٨ دولة مستقلة وقفزت المساحة المستقلة إلى نحو ٨ ملايين ميل٢ أى ٧٠% من مساحة القارة تضم ١٨٧ مليون نسمة من ٢٤٥ مليونا أى أكثر من ٧٥% وزيادة نسبة عدد السكان المستقلين عن المساحة المستقلة يعنى أن أكثف الجهات سكانا فى القارة بوجه عام هى التى استقلت.

٢ ــ **نمط توقيت التحرير**: ورغم أن ما تم من حركات التحرير فى القارة حدث فى فترة زمنية قصيرة، فإن هناك توقيتا إقليميا مختلفا لها يرسم نمطا جغرافيا واضحا ويأخذ خطوط سير محددة إلى حد بعيد، مما يشير إلى وجود ضوابط منطقية خلفها لها مغزاها فبوجه عام بدأ التحرير أولا بساحلى إفريقيا الشمالى والبحر الأحمر، وفى هذا الضلع الشمالى الشرقى كانت مصر هى حجر الزاوية أو القوة الركن موقعا ودورا: فهى التى كانت نموذج المغرب العربى فى كفاحه، ثم صارت بعد ذلك مثالا ومساعدا لبقية أجزاء القارة، بل تلك زمنيا نطاق غرب إفريقيا بوجه عام، يتبعه مباشرة تقريبا نطاق الصحراء الكبرى وحوض الكونغو، ومن هذا نرى أن الحركة بدأت فى السواحل قبل الداخل، ومن الشمال قبل الجنوب، ولا شك أن هذا الترتيب الزمنى يعكس إلى حد بعيد درجة التقدم الحضارى العام وما تعنى من أصول قومية تاريخية ونضج اقتصادى وسياسى. وحتى الوقت الحالى نجد أن نصف القارة الشمالى قد تحرر فى مجموعه تقريبا، وأن التحرر قد عبر خط الاستواء الآن لأول مرة (الكونغو). ومعنى هذا أن الاستعمار فى القارة قد عبر خط الزوال من قبل ودخل مرحلة الشفق ــ أو لعلها الآن الغسق! وحيث إنه من المقرر أن ينال الحكم الذاتى ثم الاستقلال الكامل كل من تنجانيقا وأوغندة ثم كينيا فإن تأكيد واستمرار اتجاه حركة التحرير من الشمال إلى الجنوب هو حقيقة جغرافية كبرى فى التطور السياسى لخريطة القارة. وسيلاحظ فى شبه القارة الجنوبى أن التحرير يزحف من الشمال على طول العمود الفقرى للمرتفعات الشرقية ــ تماما عكس مسار الاستعمار الأبيض فى القرن الماضى[1].

وإذا كان محور الحركة العامة هو بصورة إجمالية جدا فى الشمال إلى الجنوب فإن هناك استثناء هاما يأخذ شكل عملية "ضفدعية" من القفز أو التخلف

---

(١) عبد العزيز كامل."الجغرافيا والتحرر الإفريقى" – المحاضرات العامة – الجمعية الجغرافية – صـ١٧٩–١٩٦٠م.

سبقت المد التحررى أو تخطاها، فأثيوبيا وليبريا وكلاهما فى أقصى جنوب النصف المستقل هما أقدم وحدات القارة استقلالا فى الواقع، ولكن لهذا أسبابه الخاصة المفهومة، وهى على الترتيب منعة وعزلة القلعة الحبشية التى ترتفع كجزيرة جبلية طاردة، وظروف إنشاء ليبريا الخاصة "لتحرير" الرقيق الأمريكى العائد repatriated، فكلاهما استقلال سلبى إن صح القول، بل إن كاتبا أمريكيا يقرر أن ليبيريا من الناحية الفعلية ليست إلا "مستعمرة غير رسمية" للولايات المتحدة.. هذا أول. أما من الناحية الأخرى فنجد على الساحل الشمالى حالتين من التخلف الزمنى النسبى فى حركة الاستقلال وهما مصر والجزائر، ويبدو تخلف مصر الزمنى غريبا إذا قيس بأثيوبيا رغم تقدم الأولى الحضارى والتاريخى الواضح، ورغم دورها الكفاحى والقيادى الطويل، وبالمثل يبدو غريبا أن تتخلف الجزائر عن غانا مثلا أو داهومى، ولكن هذا يرجع إلى عامل آخر غير الحضارة والنضج المحلى، وهو نوع الاستعمار، وهذا ينقلنا توا إلى العلاقة بين التحرير ونوع الاستعمار.

٣ ــ **التحرير ونوع الاستعمار**: وهنا نلاحظ أن تقدم أو تأخر الحركة التحررية زمنيا، وسهولتها أو صعوبتها نضاليا، أمر يرتبط إلى حد كبير بنوع الاستعمار، وليس من السهل أن نصف الاستعمار فى الدول الأفريقية بحسب التقسيم الثلاثى المعروف من استراتيجى واستغلالى وسكنى، لأن الاستعمار غالبا متعدد الأغراض Multi- purpose فالبعد الاستغلالى عادة قاسم مشترك أعظم، وإنما قد يطفو على السطح فى حالة أو يرقد تحته فى حالة أخرى. كما أن اهتمامات الاستعمار قد تتطور من غرض إلى غرض آخر بتطور الظروف خاصة مع ظهور ثروات معدنية خبيئة كما تحول الاستعمار الاستراتيجى لصحراء الجزائر إلى استعمار استغلالى أيضا بعد كشف البترول. مع هذا كله فهناك عادة تركيز على جانب معين أكثر من غيره من جوانب الاستعمار، ولهذا لا يرتبط فقط بالبيئة الطبيعية وإنما أيضا بنمط الاستعمار ومذهبه. فالاستعمار الفرنسى والبرتغالى ــ

وبوجه عام اللاتينى ـ الذى يجنح إلى الحاكم المباشر يوصى دائما بالاستعمار السكنى، أما الاستعمار البريطانى "الانطوائى" صاحب الحكم غير المباشر فينبغى نظريا ألا يشجع على الاستعمار السكنى كثيرا، ومع ذلك فالبيئة الطبيعية هى الضابط الفيصل فى النهاية، وعلى هذه الأسس نحلل علاقة كل نوع من الاستعمار بحركة التحرير.

أ - فأما الاستعمار الاستراتيجى فمرتبط أساسا بالمواقع الاستراتيجية، ولكن مصيره مرتبط أيضا إلى حد بعيد بالتطورات الاستراتيجية العالمية، ولو أن الاستراتيجية الذرية الكوكبية الجديدة التى قلبت تماما فكرة الموقع الجغرافى والنقط البحرية والبرية قد ظهرت منذ عقود، أو لو أن الهند قد استقلت فى وقت مبكر، لكان من الراجح أن تستطيع، دولة كمصر أن تنتزع استقلالها منذ ذلك التاريخ، ويمكننا أن نصف الاستعمار البريطانى فى مصر وفى الصومال على أنه كان أساسا استراتيجيا حيث كانتا تسيطران على مدخل البحر الأحمر وطريق الهند، وبالمثل كان الاستعمار الفرنسى فى الصحراء الكبرى حيث كانت ظهيرا لكل من شمال إفريقيا وغرب إفريقيا ومجالا لإمبراطورية عسكرية فرنسية مترامية.

ب ـ أما الاستعمار الاستغلالى فيظهر فى المناطق التى يمكن أن تكون غنية إنتاجا ولكنها لا تصلح للاستقرار الأبيض، ويكون هذا عادة بسبب المناخ المدارى غير المعتدل فى المناطق السهلية قليلة الارتفاع ـ أى مناطق المناخ المضاد anticlimes مثل غرب إفريقيا "مقبرة الرجل الأبيض" هنا لا تظهر "مستعمرات" بل "جاليات" بيضاء، أساسها التجار ووحدتها الفرد أكثر منه الأسرة، وهى لذلك مجتمعات مذكرة غالبا أو شديدة الذكورة جدا، كما تنحصر فى فئات من الأعمار الوسطى وتقل الفئات الهامشية أى الأطفال والشيوخ والمجموع بعد هذا قليل العدد لا يعدو بضعة آلاف، قصيرة العمر، دائمة التجدد فى أفرادها بحيث يندر بينها مواليد إفريقية. وهى أخيرا سكان مدن أولا وعواصم ثانيا، وربما لا يزيد عدد

الأوربيين فى ظل الاستعمار الاستغلالى فى كل القارة عن ربع المليون من مجموعهم البالغ ٥ مليون، وعادة لا تزيد نسبتهم إلى الوطنيين فى كل مستعمرة عن ٠,٥% لهذا كله فإن موقف مجتمعات الاستعمار الاستغلالى من المد التحررى يكون ضعيفا. وهى حيث لا تعتمد على السيادة البيضاء قد تعتمد على "الامتيازات الأجنبية Capitulations" بحسب درجة حضارة المستعمرة، على أنها فى النهاية تعتمد على حماية دولة الاستعمار المتروبول، ويندر ـ بعكس الاستعمار السكنى ـ أن تستطيع أن تؤثر على سياستها أو أن ترغمها على البقاء فى وجه المد التحررى حين يبدأ والطبيعة من جانبها هنا تأخذ جانب التحرير ـ مثلا فى غرب إفريقيا حيث كانت بعوضة الملاريا هى المنقذ the anopheles mosquito the saviour of west Arfica يضاف إلى هذا أن الاستعمار الاستغلالى يمكن لنمو الوطنيين وتقويتهم مما يزيد الاختلاف فى الموقف بين الاستعمار والاستقلال لهذا كله وجد التحرير هنا أنه من السهل نسبيا أن يضغط بلا حرب، ووجد الاستعمار أنه من الممكن أن يتنازل ـ على الأقل عن الشكل، وذلك غالبا بالوصول إلى أنصاف حلول هى الاستقلال الاسمى مع بقاء ارتباطات اقتصادية وثيقة تحقق هدف الاستعمار الاستغلالى الأصلى دون أن تصطدم بشكل التحرير الاستقلالى. وسيلاحظ أن ما ظل من الوحدات الإفريقية محتفظا بعلاقات كعضو فى الكومنولث البريطانى أو الجماعة الفرنسية أغلبه كان من نوع الاستعمار الاستغلالى. وفى حالة دول الاتحاد الفرنسى بالذات كان مبدأ "الاستقلال داخل الترابط Independence whthin Interdependece" شرطا مطاطا فى تحرير وحداته الإفريقية وأساسا لمحاولة خلق أورافريقيا جديدة، اقتصادية لا سياسية هذه المرة، من هنا سمى البعض هذه الحلول الوسطى "بالاستعمار الجديد Neo-Colonialism" أو "الاستعمار الخبئ Crypto- colonialism".

جـ - أما الاستعمار السكنى فقاصر على حيث الإقامة والتوطن الدائم للأبيض مع وفرة الموارد الإنتاجية، ولذلك فهو جغرافيا أقل رقعة وانتشارا من الاستغلالى، وهذا يرتبط بيئيا بنوعين من المناخ: المناخ المشابه homoclimes الذى يكرر مناخ الوطن الأصلى تقريبا كما فى شمال إفريقيا وجنوب إفريقيا أى أنه خارج المدارين extra- tropical.. النوع الثانى هو المناخ المرتفع alticlimes حيث يصحح الارتفاع أخطاء المناخ المدارى ويعدله، ولما كان المثلث الجنوبى من إفريقيا هو إفريقيا العليا تقريبا، فإنه هو المسرح الحقيقى للاستعمار السكنى — وبصفة أخص نصفه الشرقى الأكثر ارتفاعا، ويمكن إجمالا أن نقول إن مناطق الاستعمار السكنى فى القارة هى إفريقيا العليا وإفريقيا الصغرى، بينما إفريقيا السفلى هى مجال الاستعمار الاستغلالى والاستراتيجى، وللاستعمار السكنى دورة، فهو لا يبدأ إلا بعد امتلاك الأرض الزراعية الممتازة ــ بالضرورة بانتزاعها من الوطنيين، وغالبا بإبادتهم منها، ولهذا فإن المرحلة التالية فى تاريخ كل استعمار سكنى هى صراع دموى على الأرض: "كالاستعمار الرسمى Colonisation officielle" فى الجزائر، وحرب الكافير Kaffir فى جنوب إفريقيا حيث يزعم البعض أن أرض ما عبر نهر كاى Transkei لم تكن أبدا ملكا للبانتود، وكحرب الماوماو والكيكويو فى كينيا.. إلخ. لهذا كله كانت مشكلة الوطنيين فى ظل الاستعمار السكنى هى قبل كل شيء مشكلة الأرض. فإذا تمت مرحلة اغتصاب الأرض بدأت المرحلة التالية وهى التعمير، هنا تتقاطر أفواج المستعمرين "كمستعمرين" حقا. وبقصد الإقامة الدائمة واستبدالا للوطن الأم بالوطن الجديد. ومعنى هذا أعداد ضخمة فى النهاية "ومستعمرات" حقيقية تتألف من أسرات لا أفراد، ولذا يقترب تركيب الأعمار وميزان الجنس فيها من معدلاتها عند الوطنيين، أى تكون عادية متزنة تمثل مجتمعا دائما لا مجرد جماعة عابرة، وهى وظيفيا لا تأتى كتجار فقط بل أساسا كزراع ــ ولا ننسى أن البوير معناه فلاح ولذلك لا

يقتصر على سكنى المدن بل يتغلغلون فى الريف، ومع الزراعة تضرب جذورهم فى التربة الإفريقية فتظهر ــ بحسب عمر الاستعمار ــ أجيال منهم إفريقية المولد والوطن: فى ١٩٤٨ كان ١٠٥ ألفا من فرنسى الجزائر هم فقط الذين ولدوا فى فرنسا! ومن هنا يفقدون بالتدريج صلتهم بالوطن الأب بدرجة تتناسب تقريبا مع البعد الجغرافى والبعد التاريخى، حتى قد تنشأ بينهم لهجات خاصة فمن اللغة مثل البوتويت Patouete وهى فرنسية الجزائر، والأفريكانز Afrikaans لغة البوير التى تمثل تحريفا محليا للهولندية، والمستوطنون بعد هذا يمثلون بوجه عام صورة أركية متحجرة من مجتمع الوطن الأب كما كان منذ قرن أو أكثر، حيث قد لا نجد لها مثيلا إطلاقا فى الوقت الحالى.. وهم كذلك يكتسبون بسرعة نظرة ضيقة محافظة تنزع إلى التكيس وتدعو فى النهاية إلى الجمود والتكلس، لعل خير ما يمثلها روح البوير الانعزالية الذين كانوا دائما يريدون العزلة: قديما بهجرتهم الكبرى Great Trek وحديثا بالأبارثيد Apartheid.

ويصعب من الناحية العددية أن نرسم حدا أدنى ــ نقطة الصفر ــ للاستعمار السكنى، فالنسبة المئوية وحدها لا تكفى: فمثلا تبلغ نسبة الأوربيين من مجموع السكان فى ساوتومى وبرنسيب ١,٩%، وفى غينيا الأسبانية وفرناندوبو ٢%، بينما هى لا تزيد عن ٠,٦% حدا أدنى فى كينيا. ولكن مجموع الأوروبيين فى المجموعة الأولى كلها لا يزيد عن (٥) آلاف، بينما يقل عن(٦٦) ألفاً فى الثانية. على أننا يمكننا أن نتخذ ٠,٦% نبدأ نشعر عنده بالاستعمار السكنى كما فى كينيا ومدغشقر والكونغو، وهنا سيلاحظ أن الاستعمار البرتغالى وكذلك البلجيكى يميل إلى أن يكون سكنيا حتى إن كلا من أنجولا والكنغو كانت تحوى من البيض أكثر مما تضم كينيا المثل الشهير (٨٠ ألفا لكل مقابل ٦٦ ألفا) هذا وتصل النسبة البيضاء إلى ٢,٢ فى ردويسيا الشمالية ولكن النسب الخطيرة للاستعمار السكنى تبدأ عند ٥%.

	عدد البيض	النسبة المئوية من المجموع
ليبيا (١٩٥٤)	٥٠ ألفا	٤
مراكش (١٩٥١)	٤٠٣ ألفا	٥,٢
تونس (١٩٥٦)	٢٥٥ ألفا	٦,٩
روديسيا الجنوبية	١٣٧ ألفا	٨,٤
الجزائر	١ مليون	١٠
اتحاد جنوب إفريقيا	٣ مليون	٢١

وسنرى من هذا أن ٩٥% من الأوربيين فى القارة يعيش فى ظل الاستعمار السكنى، وأن جزيرتيه الرئيستين هما المغرب العربى (٢ مليون)، وجنوب إفريقيا (٣ مليون)، وسنلاحظ أنه بينما المغرب العربى استعمار سكنى لاتينى فإن المشرق العربى استعمار استراتيجى ـ استغلالى سكسونى، ومع ذلك فإن عدد الأجانب فى مصر وصل فى حين ما إلى نحو ربع المليون (٢٢٥ ألفا فى ١٩٢٧) حين جمعت بين أنواع الاستعمار الثلاثة فى الحقيقة، وكما كانت الجزائر نقطة الارتكاز فى استعمار المغرب وصارت نواة الاستعمار السكنى فيه ومنها تقل نسبته شرقا وغربا، فكذلك كان الاتحاد هو رأس الجسر فى الاستعمار السكنى فى كل أفريقيا الجنوبية، ومنها تقل نسبته كلما اتجهنا شمالا، ففى المثلث الجنوبى يترامى نطاق الاستعمار السكنى على طول محور المرتفعات الشرقية ابتداء من الاتحاد حتى كينيا كمحور أبيض أو كمحور "المرتفعات البيضاء" ـ إذا عممنا تعبيرا خاصا بكينيا، مع ملاحظة أن هذا تعبير نسبى لأن البيض أينما كانوا أقلية عددية حتى فى هذه المرتفعات البيضاء. هذا وقد يمكن أن نمد هذا النطاق ليشمل هضبة أثيوبيا إذا اعتبرنا مشاريع ومحاولات الاستيطان الإيطالية فى فترة احتلالها، كل هذا أيضا مع ملاحظة أن "نطاق" تعبير نسبى هو الآخر: فلا البيض ولا الأرض الصالحة التى يرتبط بها وجودهم يمثل سلسلة متصلة بل هو أساس رقع منتثرة. فى هذا "العمود

الفقرى" تقل نسبة البيض كلما اتجهنا شمالا من الاتحاد الذى هو بالنسبة للاستيطان أرض القاعدة mainland، إلى وسط إفريقيا أرخبيل الاستيطان، إلى شرق أفريقيا بحر جزر الاستيطان المتناثرة[1].

هذا هو النمط الجغرافى للاستعمار السكنى، والمهم أنه يمثل أعتى مشاكل التحرير فى القارة، وقد يكون تأخر التحرير فى المثلث الجنوبى راجعا إلى سيادة الاستعمار السكنى عليه، ففى ظل هذا النوع من الاستعمار تزداد مشكلة التحرير وصعوبته كلما كانت القوة والنسبة العددية للمستوطنين أكثر. فالعلاقة عكسية بين التحرير والاستيطان، إنها علاقة شبه ميكانيكية كالعلاقة بين القوة والمقاومة، ولهذا فإن الموقف فى روديسيا الجنوبية مثلا أشد صعوبة منه فى كينيا، وهو أشد كثيرا فى الجزائر، بينما يصل إلى درجة اليأس فى جنوب إفريقيا حيث لم يعد يشار إلى البيض "بالمستوطنين" وفى المثلث الجنوبى بالذات نجد أن زحف التحرير يكاد يتناسب عكسيا مع نسبة البيض، على أن هناك ضابطا آخر غير هذه النواحى الأثنوجينية ethnogenics ـ ديموغرافية الأجناس ـ يتدخل فى تقرير مصير الاستعمار السكنى، هذا هو البيئة الطبيعية، فمن حسن الحظ، يتفق أن مناطق الاستعمار السكنى هو فى الأعم الأغلب مناطق المرتفعات الهضبية أو الجبلية بالذات، أى مناطق القلاع الطبيعية التى تضعف قبضة الضبط الاستعمارى وتسمح للوطنيين بحرب العصابات guerilla warfate، بينما هى تضاد بطبيعتها جيوش المستعمر الميكانيكية، كما أن الغطاء الغابى الذى يكسوها بطبعه يعطى ستارا مانعا ضد السلاح الجوى، أى أن البيئة الطبيعية التى كانت مغناطيس الاستعمار السكنى هى بعينها التى يمكن أن تصبح عامل طرده، والطبوغرافيا التى كانت عونا للاستيطان هى فى النهاية عوان عليه، تلك تجربة متواترة فى جغرافية الاستعمار عرفتها أثيوبيا ضد الطليان، وتحققت من قبل فى الريف ضد الأسبان، وتعيشها

(١) عبد العزيز كامل ــ المرجع السابق، ص ١٧٦.

اليوم الجزائر ضد فرنسا، وخاضتها الكيكويو فى كينيا، بل إن معاقل الثورة فى أنجولا الآن ضد البرتغال تتركز بالذات فى نواة المرتفعات الوسطى والشمالية الشرقية، وأكثر من هذا نحن نذكر مقاومة الأثيوبيين المستميتة ضد الإيطاليين بضعة عقود وننسى أن مقاومة أعنف قد سجلتها من قبل مرتفعات جنوب إفريقيا ــ الزولو والمثابيلى.. إلخ ــ ضد الاستعمار الأبيض لا لعقد أو عقدين بل لقرن بأكمله على فترات متقطعة (حرب الكافير التى استمرت من ١٧٧٨ إلى ١٨٧٧) حتى سميت بجدارة "حرب المائة عام الإفريقية"..

هذه إذن بعض العوامل المساعدة والمضادة للتحرير إزاء الاستعمار السكنى على أن المشكلة بعد هذا ليست مشكلة سهلة لأنها فى الحقيقة مزدوجة، ترسم نمطا سياسيا متكررا: فالتحرير هنا يكافح القوة المتروبوليتانية من ناحية والمستوطنين من ناحية أخرى، وكلما أشرف على انتزاع تنازلات من القوة الاستعمارية تحول المستوطنون إلى عصابة إرهابية داخلية تأخذ القانون فى يدها "وتفرض نوعا خاصا من حكم الملاك Landocracy، حكم ملاك الاستعمار Plantocracy، وتعلن العصيان والتمرد على الحكومة "الأم" مهددة "بحرب الاستقلال" للانسلاخ عنها والانفراد بالمستعمرة، هذا ما يحدث فى الجزائر اليوم، وما طالب به المستوطنون المتطرفون فى كينيا، أما روديسيا الجنوبية فقد هددت حينا بالانفصال عن بريطانيا والانضمام إلى معقل الاستعمار السكنى فى ظهرها وهو جنوب إفريقيا كما كان فيها من طالب بأن يتحول الاتحاد إلى دومنيون، وفى تنجانيقا حيث البيض أقلية تافهة طالب بعضهم فى حين ما بالانضمام إلى كينيا حيث البيض أكثر وأقوى نسبيا.

٤ ــ **التحرير "والخروج الأبيض"**: من السهل أن نرى حركات التحرير وإذابة الاستعمار Decolonisation اصطحبت غالبا "بخروج" الجاليات الأوربية colonial exodus من الدول الإفريقية المستقلة، هذا حدث فى مصر وتونس ومراكش (المغرب) والسودان وغينيا.. إلخ. ففى مصر بدأ الخروج الأبيض منذ

مدة: فبعد قمة قياسية فى ١٩٢٧ (٤/١ مليون) انخفض عدد الأجانب إلى ١٤٦ ألفا فى ١٩٤٧، خرج بعدها لا شك جزء كبير منهم، وفى ليبيا كان الطليان قد بلغوا علامة المائة ألف قبل الحرب الأخيرة، رُحل منهم ٤٠ ألفا من برقة أثناء الحرب، وهم الآن نحو ٥٠ ألفا، وفى تونس رُحّل ٤٠% من الأوربيين من الاستقلال، ويقدر أن ١٦٥ ألفا من الأوربيين خرجوا من المغرب وتونس معا منذ الاستقلال، وفى مناطق الاستعمار السكنى العنيف تأخذ المشكلة شكلا مختلفا جدا، فهى تسمى بالمجتمعات متعددة الأجناس society multi-vacial وهى تسمية لا نظن مقبولة لأنها تغلف مغالطة واضحة، فحين تكون نسبة الأوربيين إلى الوطنيين ١: ٢٥ كما فى اتحاد وسط إفريقيا أو ١: ١٧٠ كما فى كينيا يكون إما من السذاجة أو من التضليل أن نتحدث عن "تعدد" الأجناس، ولهذا يرى الوطنيون أن سياسة المشاركة partnership التى يقدمها صناعها على أنها "سياسة غير عنصرية فى مجتمع متعدد الأجناس" ليست فى الحقيقة مشاركة بل شَرَكًا، فى مثل هذه المناطق لا يطمع الإفريقيون أساسا إلا فى الاستقلال وليس بالضرورة فى إخراج الأوربيين إذا قبلوا مواطنة عادية بلا امتيازات، هذا واضح فى حركات التحرير بجنوب ووسط وشرق إفريقيا، كما أعلنت عنه الجزائر التى تخير المستوطنين بين الجنسية الجزائرية أو البقاء كأجانب عاديين أو الخروج، ومع ذلك فمن المرجح أنه ــ باستثناء جنوب إفريقيا ــ قد يصفى الاستعمار السكنى نفسه بعد استقلال هذه الوحدات سياسيا، فكما يتنبأ سيتهول قد يهجر المستوطنون بعد فرض المساواة بين الأجناس فى إفريقيا المستقلة ولا تبقى إلا "جاليات" قد تذوب فى الجسم الوطنى، وقد بدأت بالفعل مؤشرات المستقبل تتحرك فى هذا الاتجاه: فمن قبل بدأت فرنسا تضع برنامجا لاستقبال ٤٠٠ ألف من فرنسى الجزائر العائدين، كما أن المستعمرات البريطانية فى إفريقيا الجنوبية بدأت تفكر فى استراليا كخط دفاع أخير وكوسط أبيض خالص، ومعنى هذا كله أن مستقبل الجزر البيضاء فى القارة هو كمصير أى جسم غريب

يدخل الكائن العضوى: لا يستطيع أن يمتصه ويتمثله فيلفظه فى النهاية، وقد يكون هذا مصداقا لما قاله ليوبولود سنغور باسم الإفريقيين: "نحن لا نريد أن نُمَثَّل بل أن نتمثل" وقد يسجل التاريخ بعد ذلك النهاية العجيبة لأكبر مغامرة ملتهبة وأطول رحلة عاتية بين القارات، مما يوحى بأن الاستعمار سكنيا وغير سكنى هو مجرد "جملة اعتراضية" فى تاريخ البشرية، هو ظاهرة عابرة مهما طالت، وعابرة لأنها غير "طبيعية" فى النهاية.

هل يترك الخروج الأبيض فراغا حضاريا أو اقتصاديا خطيرا فى القارة؟ يتنبأ البعض بأن الاقتصاد الزراعى، خاصة المنظم فى أبعاديات، والاقتصاد التعذيبى قد يضطرب لعدة سنوات بعد الخروج، وبعض الوحدات الإفريقية التى استقلت أمنت البيض اقتصاديا، والبعض الآخر لا يرحب كثيرا بهذه الهجرة الفجائية التى قد ترج الاقتصاد القومى بما تسحبه معها من رأس المال والخبرة الفنية، على أن هذه المشكلة مؤقتة، أما أن يخشى البعض على المستوى الحضارى والاقتصادى للقارة أن ينتكس بعد الخروج، أو أن يعتذر عن الاستعمار بأنه كان وسيلة للتحضر transculturation, acculturation فإن هذا منطق تبرير محض، وهى تنبثق عن نظرية أولية هى نظرية التلازم بين مبدأى الاستعمار والتحضير، التى بها تبرر كل النظريات "الإنسانية humanitarian" أو الأبوية Paternal فى الاستعمار! مثل عبء "الرجل الأبيض" و"الأب الأبيض The White Father" أو "الأخ الأكبر Elder Brother".. ولكن هذه النظريات ليست فى الحقيقة إلا ترجمة حديثة لنظرية "الأجناس الأطفال" الفاسدة القديمة، كما أن نظرية التلازم بين الاستعمار والتحضير حولت عبء الرجل الأبيض إلى "عبء الرجل الأسود" والواقع أن نظرية التلازم بين التحضير والاستعمار فاسدة أساسا بل يعدها الكثير النقطة السوداء الكبرى فى الحضارة الأوربية، فليس الاستعمار شرطا للتحضير، وليس احتكاك الأجناس الأداة الوحيدة لاحتكاك الحضارات، والنظرية الوطنية الإفريقية

المعتدلة ترى أن إفريقيا فى حاجة إلى حضارة أوربا ولكن ليس إلى استعمارها، فهى تريد خبراء لا حكاما وفنيين لا مستوطنين أى أنها تبدأ من الفصل التام بين مبدأى التحضير والاستعمار، ولهذا تنتهى إلى أن خروج الأبيض ليس حتميا نكسة حضارية أو هزة اقتصادية، وتجربة غرب إفريقيا، ومن قبل إفريقيا العربية، دليل واضح.

٥ ــ **الصورة الحالية للاستعمار**: الآن وقد تقلص الاستعمار عن الجزء الأكبر من القارة، يمكننا أن نحدد ونحلل نمطه الجغرافى الراهن، فهناك اليوم ٢١ وحدة سياسية خاضعة للاستعمار، مجموع مساحتها ٣,٥٠٦,٠٠٠ ميل[٢] أو ٣٠% من القارة وسكانها ٥٨,٩٨٣,٠٠٠ أو ٢٤,١% من القارة، من بين هذه الوحدات سبع لا تزيد عن أسافين وجيوب قزمية هى فى النصف الشمالى من القارة، إفنى وغمبيا البريطانية والصومال الفرنسى، وفى النصف الجنوبى ريومونى وكابندا وباسوتولاند وسوازى لاند. وقد اكتسح الاستعمار تقريبا من النصف الشمالى للقارة، فلم تعد له فيه إلا ٦ وحدات هى عدا الأسافين الثلاثة الجزائر ــ وريودى أورو وغينينا البرتغالية، ومجموع مساحة هذه المستعمرات حوالى مليون ميل[٢] والسكان ١١ مليونا، وتمثل الجزائر ٩٠% من هذه المساحة والسكان، وهى فى الواقع أكبر وحدة مستعمرة فى كل القارة الآن سواء مساحة أو سكانا، وأهم حقيقة توزيعية فى بقايا الاستعمار فى النصف الشمالى من القارة هى تفتيته إلى جزر متخلفة relict منعزلة فلم يعد هناك وحدتان متلاصقتان حتى فى حالة غمبيا البريطانية وغينيا البرتغالية القريبتين أو حتى فى حالة ريودى أورو والجزائر المتماستين. ومعنى هذا أن هذه الأحجار القزمية microliths يطوقها بحر الاستقلال، تماما ولا يمكن أن تنجو من قوة تعرية هذا المد التحررى ــ فيه، وسيلاحظ أنه قد اختفى تماما المحور الاستعمارى الذى كان لفرنسا فى هذا الجزء من القارة.

وبينما كسح الاستعمار من النصف الشمالى تقريبا، تراجع إلى خطوطه الخلفية فى "المثلث الجنوبى" فهنا يمثل الاستعمار ـ بعكس الصورة فى النصف الشمالى ـ رقعة واحدة ضخمة متصلة المساحة، تمتد من بحيرة رودلف إلى مصب الأورنج ومن رأس موزمبيق إلى مصب الكنغو، هو هنا حجر واحد حجمه ضخم monolith megalith، كتلة تحتل "جذع" المثلث الجنوبى، وهى فى الحقيقة تتفق إلى حد بعيد مع نطاق السافانا فى النصف الجنوبى من القارة، يحدها شمالا الغابة الاستوائية فى الكنغو وجنوبا الفلد الصحراوى فى اتحاد جنوب إفريقيا، وليست هذه الكتلة أكبر معقل متخلف متبق للاستعمار فى القارة فقط، وإنما هى أيضا أضخم كتلة متصلة تبقت للاستعمار فى أى جزء من العالم، وهذه الرقعة تشمل ١٥ وحدة منها ٤ أسافين، وهى فى مجموعها تبلغ نحو ٢,٥ مليون ميل^{٢} مساحة، ونحو ٤٨ مليون نسمة سكانا. وأكبر وحداتها مساحة هى أنجولا بينما أكبرها سكانا هى ـ أو كانت ـ تنجانيقا. وقد بدأت هذه الكتلة المتصلة تهز وتخلخل لاسيما فى شرق إفريقيا فقد تقرر أو بدأ استقلال تنجانيقا، وأوغندة وكينينا على الطريق، كما رأينا، هذا بينما أصبح مستقبل جنوب غرب إفريقيا واضحا وإن كان مستقبل أنجولا وبتشوانالند لازال فى الكفة، وإذا استمر المعدل الحالى فقد يكسح الاستعمار كلية من المثلث الجنوبى حتى حدود الاتحاد فى خلال العقد الحالى، أما الاتحاد فمصيره لا يمكن التنبؤ به بحال.

فى ضوء هذه الصورة الجديدة للاستعمار سنلاحظ عدة حقائق غريبة فأولا من الطريف أن الإمبراطوريات "الماوث" هى التى تدهورت وكادت تنقرض حتى الآن: بريطانيا وفرنسا، بينما الإمبراطوريات "الحفرية" هى التى لم تمس حتى الآن تقريبا: البرتغال وأسبانيا، على أن هذا الفارق بطبيعة الحال فارق عابر، هذا وبينما يتركز الاستعمار البرتغالى أساسا فى النصف الجنوبى مع إسفين صغير فى أقصى غرب إفريقيا يتركز الأسبانى على العكس فى النصف الشمالى مع إسفين ضئيل فى

المثلث الجنوبى، ثانيا سيرى أن الإمبراطورية الفرنسية التى كانت تفوق البريطانية مساحة، وإن لم يكن سكانا، قد أصبحت الآن لا تقارن مطلقا بالإمبراطورية البريطانية المتبقية، فهى لم تعد تزيد عن الإمبراطورية البرتغالية مساحة أو سكانا! ثالثا من الواضح أن معقل الاستعمار الفرنسى المتبقى يأخذ نمطا عكس نمط معقل الاستعمار البريطانى المتبقى: فهو فى حالة فرنسا يقع فى الشمال فى الجزائر، يكمله إسفين تافه متطوح فى الصومال، بينما هو فى حالة بريطانيا يقع فى جذع المثلث الجنوبى، يكمله إسفين فى النصف الشمالى هو غمبيا، رابعا وأخيرا نرى أن المحور الطولى البريطانى فى القارة، محور القاهرة ـ الكاب قد انكمش إلى قطاع مبتور يبدأ من أوغندة بل من كينيا وينتهى فى بتشوانالند. والمثير فى هذا القطاع أنه داخلى فى أغلبه، فمن بين ٧ وحدات تبقت لبريطانيا فى المثلث الجنوبى نجد ٥ داخلية. وهذه هى المتناقضة الغريبة حقا لأن بريطانيا هى الدولة البحرية بالضرورة وصاحبة الاستعمار الساحلى أساسا! ولعل هذا فى نفس الوقت يفسر أهمية كينيا وتنجانيقا للاستعمار البريطانى وتمسكه بهما أطول مدة ممكنة، لأنهما الآن النافذة الوحيدة والمدخل المتبقى لهذه الإمبراطورية الداخلية Inland Empire. وهو يفسر أيضا مساندة الاستعمار البريطانى للاستعمار البرتغالى الذى يعد قوة استعمارية "حفرية" وتعد إمبراطورية "طفلية" تعيش عالة على، وفى ظل الإمبراطورية البريطانية، والسبب أن الاستعمار البريطانى اليوم فى إفريقيا الجنوبية يمثل شريطا بين شريحتى الاستعمار البرتغالى بحيث إن البوابة الرئيسية لاتحاد وسط إفريقيا هى موزمبيق بينما تعد أنجولا بابا جانبيا Side- door أقرب إلى أوربا. أى أن كلا البابين أرض برتغالية.

حول وحدة الرافدين والنيل[١]

كان العراق يحتل موقعا وسطا بؤريا بين الإسلام فى وسط آسيا من جانب، والإسلام فى غرب آسيا وشمال إفريقيا من جانب آخر أى أنه كان قلب العالم الإسلامى المتمدد العظيم.

وباعتراف الكتاب العراقيين أنفسهم قضى هذا الموقع الخلقى الآسن على العراق من التخلف الحضارى والركود المادى إلى حد لم ينتزع نفسه منه إلا أخيرا نسبيا بقوة وإرادة التغيير الثورى وانتفاضته التقدمية المعاصرة التى نلمس ذروتها اليوم.

لا شك أن قيام دولة الوحدة الثنائية وضع هذا المسخ الدخيل ـ إسرائيل ـ بين شقى ساحقة أو فى داخل كسارة بندق هائلة.

حديث الوحدة حديث ذو شجون، وذو أطراف متعددة أيضا، ولكنا نقص مقالنا هذا على جانب واحد منه هو الجانب الاستراتيجى: ماذا نعرف هنا عن قوة العراق الاستراتيجية، عن توجيهات موقعه، مشاكله وحساسياته الجيوستراتيجية؟ ما دور العراق العظيم فى الاستراتيجية العربية، وما وزنه فى ميزان القوة؟ وماذا يمكن أن يضيف من طاقة وإشعاعات إلى دولة الوحدة المأمولة؟ وماذا يمكن للوحدة أن تقدم للعراق استراتيجيا؟

باختصار: إن سؤالنا المحورى هنا سيكون: أين يقع العراق من خريطة القوة العربية، وأى مستقبل استراتيجى واقتصادى وحضارى ينتظره؟ وبديهى فى مثل

---

[١] مجلة الفكر المعاصر – دراسة علمية لقوة العراق الاستراتيجية – العدد(١٢) – فبراير ١٩٦٦م.

هذه الدراسة الموضوعية التقييمية أنها تحلل نقط القوة والضعف على حد سواء، وقد تعرض لحالات فرضية ربما لا تقوم بالفعل ولكنها تكمن بالقوة..

الدور الاستراتيجى: مراحل ثلاث:

وللإجابة عن هذا السؤال لابد أن نضع فى إيجاز دور العراق الاستراتيجى فى إطاره وأبعاده التاريخية أولا، حتى نتعرف على العناصر الثابتة والمتغيرة فى كيانه الإقليمى، وبغير هذا الدور التاريخى قد يمكن أن نخطئ فهم عبقرية المكان فى العراق بالذات، لأنه ما من قطر عربى على مدى الزمن عرف من التقلبات العنيفة فى مقدراته ومصائره، فى أقداره وقواه، مثلما عرف العراق ومن السهل أن نتكشف منذ بداية تاريخ العراق العربى مراحل ثلاثا تلخص ببلاغة تطور موقعه ودوره الاستراتيجى.

فمنذ العروبة والإسلام، وفى ظل عصر من التفجر الدينى أكثر منه عصر الوعى القومى، أخذ موقع العراق مغزى خطيرا ولعب دورا ممتازا، ففى حركة توسع الإسلام الكاسح نحو الشرق فى آسيا الوسطى لم يكن غير العراق يصلح — بموقعه البارز المتقدم فى ذلك الاتجاه — لدور "رأس الحربة" فى ذلك الزحف، ولهذا كان العراق الجبهة الأمامية للعالم العربى الجديد، وآلت إليه وظيفة السيطرة على ما شرقه ابتداء من فارس وخراسان، ولما كان التركيز فى ذلك العصر البطولى الدينى هو على العالم الإسلامى كوحدة التفاعل المشترك الفعالة أكثر منه على العالم العربى، فمن السهل أن نرى كيف كان العراق يحتل موقعا متوسطا بؤريا تماما بين الإسلام فى وسط آسيا من جانب، والإسلام فى غرب آسيا وشمال إفريقيا من جانب آخر، أى أنه كان قلب العالم الإسلامى المتمدد العظيم، ومن هنا كان دوره الطليعى القيادى، دور رأس الحربة، ومن هنا كانت حضارة "دار السلام" الذهبية الرائعة.

ولكن نقطة ضعف كامنة مستترة فى موقع العراق لم تلبث أن تكتشف فجأة حين بدأ قلب آسيا يتحول إلى ضد إعصار بشرى ودوامة عاتية تلفظ بموجات الرحل الخطمة المخربة، فبحكم موقع العراق على تخوم العالم العربى تعرض، أكثر من أى جزء آخر منه، لطرقات وطوفانات الرعاة الفرسان، فما من موجة غازية لهم لم تصل إلى العراق، بينما ــ للمقارنة ــ قد تنجو منه سوريا أحيانا ومصر دائما.

تلك كانت قصة السلاجقة ثم التتار والمغول ابتداء من جنكيز خان وهولاكو فى القرن ١٣ إلى تيمورلنك فى القرن ١٤ ولم يكن فى هذه كغارة المغول الوثنيين المدمرة لأنهم كانوا ــ أكثر من الوندال ــ من "سفاحى الحضارات" بكل معنى الكلمة.

من هذه التجربة المريرة تبدأ تتضح لنا بجدارة حقيقة دور موقع العراق. لقد تحول من "رأس حربة" فى العالم الإسلام إلى "درع" للعالم العربى أصبح خط الدفاع الأول عن العروبة، ولهذا، وفى إنكار للذات منقطع النظير، تلقى كل تلك الضربات التى خربته، ولكنه فى هذا افتدى العالم العربى كله، وفى هذا يبدو فضله الجغرافى والتاريخى بوضوح تام، وإن ما خبره العراق تاريخه الوسيط من تفاوت شديد وذبذبة حادة درجة التشنج فى رخائه وانهياره، وعظمته وانحداره، وعمرانه وخرابه، كل ذلك بما لا نظير له تقريبا فى بقية دار العرب، إنما هو وظيفة مباشرة لموقعه الهامشى الحساس على تخوم العرب وقرب قلب آسيا وظيفة باختصار لدوره كدرع العالم العربى وترسه.

ونصل إلى الدور الثالث مع العصر الحديث حيث انتقل مركز الثقل فى العالم إلى أوربا الغربية وأصبح الغرب محور القوة الاستراتيجية الحديثة، وفى ذلك الإطار الجديد لم يتبق للعراق إلا دوره الإسلامى والعربى، ولم يكن مفر من أن

يكون ذلك الدور العربى دورا محدود الأهمية نسبيا وثانيا إلى حد ما، ذلك أنه مع انتقال التوجيه الاستراتيجى والأهمية السياسية إلى الغرب، قد تحول موقع العراق توا وآليا إلى موقع خلفى متخلف بدرجة أو بأخرى: أصبح "البوابة الخلفية" للعالم العربى أو كما قد نقول على الجانب "الخطأ" من خريطة الاستواء الحضارى والاستراتيجي الجديد فى العالم القديم. وباعتراف الكتاب العراقيين أنفسهم، قضى هذا الموقع الخلفى الآسن على العراق بنوع من التخلف الحضارى والركود المادى إلى حد ما، لم ينتزع نفسه منه أخيرا نسبيا بقوة الإرادة وإرادة التغيير الثورى وانتفاضته التقدمية الرائعة المعاصرة التى تجلت ذورتها اليوم.

إلا أن أسوأ من ذلك التخلف المؤقت ما حاوله الاستعمار، فقد أراد أن يسخر الموقع الخلفى لأغراضه فى تمزيق العروبة وتفتيت القومية العربية. فقد حاول أن يحيله إلى عزلة جغرافية وسياسية يبعد بها العراق الأبى عن ركب العرب الظافر، وحوله عن تيار العروبة إلى بركة الشعوبية الآسنة، وتأكيدا لهذا الانحراف أو التحريف المفتعل، وضع مخططا كاملا ليحوله عن قبلة العرب إلى قبلة مزيفة نحو الشرق، فمرة يحاول أن يدخله فى فلك الهند سواء بأن يدار منها أو بأن توضع مشاريع خبيثة فى العشرينات وفى الثلاثينات "لتهنيده" وذلك بتهجير بضعة ملايين من الهنود إليه (كذا!) ومرة بربطه بقوى غرب آسيا إبعادا له عن المحيط العربى. وذلك بضمه إلى ميثاق سعد أباد (مع إيران وأفغان) حينا، أو حلف بغداد (مع تركيا وإيران وباكستان) حينا آخر، كذلك وفى نفس الوقت اتخذ الاستعمار. ومعه أعوانه من الرجعية المحلية، اتخذ من موقع العراق الخلفى كأقرب وحدة عربية إلى فلك الاتحاد السوفيتى ذريعة وحجة ملفقة يلوح بها لتخويفه وتهديده من خطر ذلك الشبح المزعوم لكى يرتمى فى أحضانه هو الخطر الماثل الجاثم!

ولسنا بحاجة بطبيعة الحال إلى أن نضيف أن ذلك جميعا قد فشل وتغلبت قوة الجاذبية العربية المركزية الأصيلة على كل القوى الطاردة التآمرية. وظل العراق

عربى الوجه والوجهة، وأصبح على يد زعامته الثورية المؤمنة ركنا ركينا وركيزة كبرى للعروبة، بل أكثر من هذا، خرج العراق بدور استراتيجى جديد فى الـوطن العربى، ففى عالم عربى متحرر يحتل مركزا طليعيا قياديا فى العالم الثالث النامى، أصبح دور العراق هو دور "نافذة ووجهة" للعرب على المحيط الآسـيوى وحلقـة الاتصال بينهم وبينه، هو الآن بمعنى آخر همزة الوصل المباشرة بين جبهة العرب فى آسيا وبين بقية القارة فى ظل التضامن الإفريقى الآسيوى.

وإذا كان موقع العراق الهامشى المتطرف فى العالم العربى يعرضـه لأيـة أخطار خارجية حقيقية أو وهمية، قريبة أو بعيدة، بحريـة أو بريـة، متاخمـة أو مجاورة، فإن هذا إنما يجعله أدعى إلى التطلع إلى الوحدة العربية وإلى الالتصـاق والالتحام بالجسم العربى الكبير، ضمانا للقوة والحماية، أما أن نؤول هـذا الموقـع على أنه يدعو إلى العزلة والتجزئة كما كان يزعم الاستعمار الأجنبـى والرجعيـة المحلية (نورى السعيد) فهذا منطق مقلوب ومغالطة ساذجة.

والعراق بموقعه هذا أحوج ما يكون إلى قوة العرب من ورائه سدا وعمقـا استراتيجيا، بمثل ما أن العرب أحوج ما تكون إليه نافـذة وجبهـة علـى العـالم الآسيوى.

وهذا الدور التكاملى هو ما أدركه العرب كل العرب اليوم تماما، وما تسعى وحدة العراق ـ مصر إلى تحقيقه بذكاء شجاع وإخلاص مؤمن.

دولة شبه داخلية:

إن نظرة واحدة إلى خريطة العـراق تكشـف لنـا كثيـرا مـن مشـاكله الاستراتيجية، فلا شك أن العراق بحكم موقعه القارى الداخلى المتعمق من ناحيـة، وبحكم قاعدته الأرضية الفيضية العريضة من ناحية أخرى هو قوة بر أساسا، ولكنه بحسب حدوده الراهنة تأخذ رقعته السياسية بالتقريب شكل حـرف Y الإفرنجـى،

ولهذا فهو يبدأ عريضا فى الشمال وينتهى مسحوبا فى الجنوب حتى يرتكز على الخليج العربى، لا نقول بجبهة بحرية، وإنما بكوة مائية ضئيلة لا تزيد عن ٦٠ كم فقط (وذلك من نحو ١٤ ألف كم هى مجموع سواحل العرب!) فإذا ما عرفنا أن مساحة العراق تبلغ زهاء ٤٤٤ ألف كم[٢]، وأن طول حدوده البرية لا تقل عن ٣٥٠٠كم، أدركنا على الفور أن العراق دولة شبه داخلية شبه حبيسة بكل معنى الكلمة.

وحتى تتبلور لنا هذه الحقيقة يكفى أن ننسب طول الساحل إلى المساحة أو إلى طول الحدود البرية فنجد العراق يمتلك كيلومترا واحدا على البحر مقابل كل ٧٤٠٧ كيلومتر مربع من المساحة، أو مقابل كل ٦٠ كم من الحدود البرية، وللمقارنة نذكر أن هاتين النسبتين فى حالة مصر مثلا هما على الترتيب ١: ٤١٧، ١: ١,١. وإذا كان هذا يؤكد ما سبق أن قلناه من أن العراق قوة بر أساسا، فإنه يعنى أيضا أنه دولة "شبه بولندية" تكاد تختنق إلا من طاقة ضيقة على الخليج العربى وتوشك أن تكون بحق "حبيسة شط العرب".

ونستطيع أن نضع أيدينا على السبب المباشر فى اختناق العراق إذا نحن تذكرنا ضياع عربستان، فردوس العراق المفقود، فهذا المثلث السهلى على رأس الخليج العربى هو التتمة الطبيعية والاستمرار المباشر لسهل الرافدين العظيم وهو النافذة الطبيعية للعراق على الخليج العربى، فاغتصاب إيران لعربستان لم يسلب العراق رقعة غنية ثمينة من صميم الوطن العربى ونحوا من المليونين من أبناء العروبة فحسب، وإنما كذلك سلب منها بضعة مئات من الكيلومترات على البحر، والواقع أن ضياع اللواء السليب عربستان هو بالنسبة للعراق كضياع الإسكندرونة بالنسبة لسوريا.

السؤال الآن: إذا كان العراق فى الدرجة الأولى وحدة قارية وقوة بر شبه داخلية، فكيف تبدو حدوده الأرضية الطبيعية؟ نحن نعرف أن قوسا حائطيا جبليا هائلا يحف بالعراق من الشمال والشرق هو جبال زاجروس، ولقد ألفنا أن ننظر إليه على أنه حدود العراق ـ بل العرب ـ الطبيعية فى ذلك الاتجاه، وكثيرا ما عد بمثابة "سور العراق العظيم" الذى وهبته إياه الطبيعة والجغرافيا. وإنه لكذلك حقا ـ ولكن فى حدود، فمن أسف أن الحدود السياسية لا تتبع ـ كما ينبغى ـ خط ذرى وقمم السلسلة الجبلية أو بالتعبير العلمى خط تقسيم المياه، بل ولا هى حتى تتعامد على ضلوعها وسفوحها إلا فى قطاع محدود للغاية فى الشمال، أما فى القطاع الأكبر على الإطلاق فهى إما تحتضن أقدام الجبال أو طلائع التلال الأمامية على أحسن تقدير، وإما تبتعد عنها كلية لتقطع فى صميم السهل تاركة بينهما جزءً من الأراضى المنخفضة.

وعدا أن هذا يعطى إيران كثيرا من الممرات والأودية التى تعد خطوط اقتراب طبيعية إلى العراق، كما يعطيها "المفاتيح" الهيدرولوجية لكثير من روافده وأنهاره، فإن معناه على الفور أن هذه الحدود تترك ما يسمى "منحدرا" Glacis عسكريا عريضا فى يد إيران، بحيث تصبح قوة إيران قوة معلقة مرتفعة استراتيجيا تشرف بسهولة وتطل من حالق على قوة العراق المنخفضة الارتفاع، ومعروف أن مثل هذا النمط الطبوغرافى يعنى أن الميزة العسكرية المحققة هى لإيران التى تتمتع ببرج مراقبة طبيعى ويمكنها أن تنقض وتهجم ـ بريا وجويا على السواء ـ بسهولة وتملك عنصر المفاجأة والمباغتة، بينما أن الطبيعة والتضاريس لا تقف تماما فى صف العراق الذى لا يملك إلا موقف الدفاع على أحسن تقدير. ولسنا بداهة نخطط للحرب أو نتصور صداما ما، ولكن يجب على التخطيط الاستراتيجى الالتفات إلى هذه الحقائق الطبيعية التى لا يمكن تجاهلها فى موضوع الأمن والسلامة القومية.

وجدير بالذكر أن حدود العراق التاريخية كانت تقليدا أقرب إلى خطر القمم الجبلى، بل كانت غالبا ما تتخطاه شرقا، ويكفى أن نعلم أن جزءً كبيرا مما هو الآن غرب إيران كان يعرف حتى قريب "بالعراق العجمى" إشارة إلى طغيان المد العربى هناك، أما تقهقر الحدود السياسية بعد ذلك نحو الغرب باطراد إلى أن أخذت مسارها الحالى، فتلك مسئولية الاستعمار التركى العاجز أولا وأخيرا، فما أكثر ما تراجع وسلم هنا أمام الضغوط الفارسية خاصة فى القرن الماضى وذلك على حساب العراق العربى سواء فى الشمال الجبلى أو فى الجنوب فى عربستان.

ولابد هنا من كلمة استدراك للتوضيح، فنحن حين نحدد موطن الخطر فى حدود العراق مع جارٍ له مثل إيران، لا ينبغى بحال أن ننزلق إلى الخدعة التى يحاول الحكم الرجعى المتآمر فى هذه الأخيرة أن يسوق إليها الرأى العام العربى، وهى أن يوقع بينه وبين الشعب الإيرانى الحميم. فهذا الشعب الجار المسلم، الذى يجمعه والعرب تاريخ حضارى وثقافى طويل المدى وتفاعل عميق كريم، ليس له عندنا إلا كل تقدير وصداقة، ولكن الحكم الرجعى الأوتوقراطى المتعفن فى إيران لا يريد بحملاته على العروبة إلا أن يحول نظر شعبه المكبوت فى الداخل عن معركته مع سجانيه وقاهريه بأن يزيف عليه عصبية سوفيتية منحرفة ضد شعب لا يشاركه فى التطلع إلى خلاصه من رجعيته المحلية.

القوة البشرية:

ليس بعدد السكان وحده تقاس القوة السياسية، ولكن السكان بالتأكيد طرف هام فى معادلة القوة، وفى هذه الحدود، لا مفر لنا من أن نقرر أن العراق يعانى من نقص محقق فى القوة البشرية، فهو لا يزيد اليوم عن ٧,٥ مليون نسمة، فإذا عرفنا أن عدد سكان العراق فى أوجه العباسى بلغ حسب بعض التقديرات ٤٠ مليونا ــ آخرون يقولون ٢٠ ــ وأن إمكانيات تحميله بالسكان اليوم لا تقل عن الطاقة

العباسية العظمى، لأدركنا حقا أن العراق لا يعدو اليوم أن يكون ظل نفسه قديما وأن حكمه إلى حد بعيد حكم البلاد الجديدة التى كشفت عنها الكشوف الجغرافية لتتحول إلى طفل من السكان يحبو ويتعثر فى ثوب فضفاض من الأرض المترامية، ومن الوجهة العسكرية المباشرة يعنى هذا أن وراء الدفاع عن كل كيلومتر من الحدود السياسية البرية أو البحرية نحو ١٨٦٠ نسمة فقط، بينما أن الرقم المقابل فى الجمهورية العربية المتحدة مثلا لا يقل رغم ترامى حدودها وسواحلها عن ٥٤٥٧ نسمة.

وحتى نضع ثقل العراق فى ميزان القوة الاستراتيجية ينبغى أن ننظر إلى قوى الجيران عبر الحدود، فالعراق يتاخم ٦ وحدات سياسية مجموع سكانها لا يقل عن ٥٥,٥ مليون نسمة، أى أن نسبة قوة العراق العددية إلى قوة جيرانه مجتمعة هى ١ : ٨,٥ تقريبا، وحتى نأخذ فكرة مقارنة عن مدى فداحة "الانحدار الجيوبولوتيكى" الذى تنتظمه هذه النسبة نذكر أن الجمهورية العربية المتحدة على سبيل المثال تعادل مجموع كل جيرانها مرتين.

على أن من الأفضل حتى تكون النظرة أكثر واقعية أن نستبعد من تقديرنا جارات العراق العربية باعتبارها ظهيرا شقيقا وقوة تحسب للعراق لا عليه. ومع هذا يظل موقف العراق ــ من هذا المنظور ــ أشد الدول العربية حرجا وخطرا، فإن العراق وحده هو الذى يتاخم الجارتين الآسيوتين الكبيرتين إيران وتركيا، ومجموعهما يتعدى الخمسين مليونا بسهولة، وكل منهما على حدة يناهز العراق عدة مرات حجما وعددا، فإذا أضفنا أن كلا من هاتين القوتين تأخذ موقفا متعنتا متحرشا من القومية العربية عامة، وأن أطول حدود العراق هى مع إيران بالذات لاتضحت لنا دقة أبعاد الصورة.

على أن الخطر لا ينتهى عند هذا الحد، فإن نمط العمران وموقع المعمور فى العراق يضاعف من مشكلة السلامة القومية والدفاع الوطنى، فكقاعدة عامة، لا شك أن المعمور المتعمق فى رقعة الدولة أى دولة آمن من المعمور المتطرف على هوامشها. ومن أسف أن المعمور العراقى ـ أى كتلة السكان وجسمها الرئيسى ـ يجنح بشدة إلى موقع هامشى متطرف يقترب به من إيران فى نفس الوقت الذى يبتعد به عن المحيط العربى ويكاد يفصله عنه.

وتفصيل ذلك أن سكان العراق لا تتوزع أو تنتشر على كل رقعته السياسية، بل هى أبعد ما يكون عن هذا الانتشار الغطائى، حيث تمثل جزيرة بشرية طولية تتركز إما إلى الشرق من نهر الدجلة فى القطاع الشمالى أى فى كردستان وإما بين النهرين فى القطاع الجنوبى، والسبب فى هذا التركيز العمرانى المحدد أن الحياة ترتبط فى الشمال بالمطر وفى الجنوب بمياه النهر، ويترتب على هذا أن السواد الأعظم من ثروة العراق فى الرجال والموارد، فى القوى والإنتاج تترك كل رقعة الدولة لتتركز بعنف قرب الحدود الإيرانية.

ونستطيع أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى إذا ما نحن رسمنا خطا على بعد ٥٠ أو ٦٠ ميلا من الحدود الشرقية ـ وهذا المدى يمثل بالتقريب نطاق الخطر المباشر فى حالة التوتر السياسى، فمثل هذا النطاق يضم نسبة كبيرة بدرجة مقلقة من الثروة والقوة القومية، فمثلا لن تفلت بغداد وكركوك والموصل منه إلا بعشرة أميال أو يزيد قليلا، بينما تقع فيه أغلب مدن كردستان فى الشمال بالإضافة إلى العمارة والبصرة وحقول البترول الهامة فى الجنوب فى الزبير والرميلة، بل إن البصرة بالذات تعد "مدينة حدود مكشوفة تقع على مرأى النظر إن لم يكن على مرمى حجر من الأرض الإيرانية. ونكاد نضيف أن بغداد ـ هى الأخرى ـ "عاصمة حدود مثلها فى هذا مثل دمشق بالنسبة للعدو الصهيونى فى فلسطين المحتلة".

ليس هذا فحسب، وإنما يزداد الموقف تعقيدا وحساسية حين نعرف أن كتلة المعمور الرئيسية فى إيران ونواتها النووية تجنح من جانبها تجاه حدود العراق، تاركة كل رقعة هضبتها الصحراوية المترامية لتعشش بالذات فى الغرب والشمال الغربى على ضلوع العراق، وبهذا تصبح منطقة التخوم بين الجانبين منطقة تكاثف لا تخلخل كما ينبغى مثاليا، ويصبح خط الحدود أشبه بحد الموسىّ الخطر، وتتحول الرقعة كلها ــ بالقوة على الأقل ــ مشاتل للمشاكل، فإذا وضعنا هذا فى إطار الفارق الحجمى الهائل بين الطرفين على جانبى خط الحدود لاكتملت لنا أبعاد الموقف.

على أن الشيء المطمئن فى النهاية أن الوحدة المرتقبة جديرة بأن تصحح كثيرا من اختلال الوضع البشرى فى العراق، فالوحدة ستنقل حدود مصر تلقائيا إلى جنب تركيا وإلى ضلوع إيران، وستصبح الجمهورية الموحدة أكثر سكانا من أى منهما بدرجة كبيرة: ٣٧ مليونا مقابل ٢٥ هنا أو هناك تقريبا، وبهذا ينقلب الانحدار الجيوبولتيكى فى مصلحة العراق.

ولا نقصد بهذا للحظة واحدة أن تكون دولة الوحدة "قوة حرب" على الإطلاق، فإن السلام هو بداية ونهاية حركة الوحدة العربية، وإنما المقصود أن تكون الوحدة عاملا فعالا فى توازن معقول للقوى يردع كل مغامر أو متهور.

ولعل هذا فى نفس السبب هو أحد الأسباب التى دفعت بهذه الدول إلى محاربة الوحدة ومعاداة القومية العربية منذ البداية، ولعله أيضا يفسر حملات الاستفزاز الصفيقة الرعناء التى دفع شاه إيران إلى شنها أخيرا على العرب عامة والتحرش بالعراق والتآمر عليه خاصة.

قاعدة العراق الأرضية:

أصبحت القوى السياسية ترتكز اليوم في التحليل الأخير على القوة الاقتصادية، وجوهر القوة الاقتصادية بدورها إنما هى تلك الموارد الحيوية الحرجة التى تمثل "مفاتيح" الإنتاج والتى يمكن أن نسميها الموارد الاستراتيجية.

فما هو الأساس الطبيعي لاقتصاديات العراق، وما هى الأبعاد الاستراتيجية الأصيلة لقاعدته الأرضية؟ لا شك أن الأرض الزراعية هى أول عناصر الثروة الطبيعية التى يملكها العراق، فالعراق يتمتع بقاعدة أرضية عريضة كأعرض ما تكون – على الأقل بالمقياس العربى – بل ربما كانت أعرض ما فى العالم العربى. فرغم أن ٧٠% من مساحة العراق السياسية صحراء، فإن المساحة الباقية صالحة للتثمير والتعمير ولا تقل عن ١٢١ ألف كم٢ (مساحة كل وادى النيل فى مصر، للمقارنة، ٣٥ ألف كم٢).

ورغم أن المساحة المستثمرة المزروعة بالفعل لا تزيد عن ١٢,٣% من كل مساحة العراق، ورغم أن العراق زراعيا مساحة لا كثافة، له مسطح ولكن ليس له عمق، فإن هذا لا ينفى أن إمكانيات التوسع الأفقى صمام أمن حقيقى للمستقبل، فى السنوات الأخيرة على سبيل المثال قدر أن مساحة المزروع بلغت ١٣,٥ مليون فدان منها ٧,٢ مروية، بينما أن هناك أرضا قابلة للزراعة ولكنها غير مزروعة تبلغ ٣٠ مليون فداناً، وإذا كان تخلف الزراعة العراقية حاليا تكنيكيا وفنيا واضحا بين كل دول الشرق الأوسط، فإن هذا قصور مرحلى عابر، وتظل الحقيقة المحورية قائمة وهى أن العراق إذا لم يكن دولة الحاضر فهو بالقطع دولة المستقبل، وهذا – فى حساب التاريخ والسياسة – خير على كل حال من أن يكون العكس..

وإذا كانت الأرض والماء فى جسم الاقتصاد هى كاللحم والدم فى جسم الإنسان، فإن العراق لا يعوزه عنصر الماء، ومرة ثانية، إذا كان العراق يعانى حتى الآن فى بعض الحالات (من مجاعة مائية) فذلك إنما يرجع إلى عدم كفاية مشاريع ضبط النهر الراهنة، ويكفى أن نعلم أن نحو ثلثى تصريف الرافدين حاليا يذهب بددا إلى البحر، وقد وضعت الآن خطة كاملة لشبكة كثيفة من السدود والمشاريع جديرة فى النهاية بأن تعطى العراق كل الماء الذى يحتاجه لتثمير كل الأرض القابلة للزراعة فيه.

وحين يتحقق هذا فلن يكون ثمة ما يمنع من أن يتحول العراق إلى أضخم مزرعة قومية فى الوطن العربى.

ولكن يبقى لموارد المياه فى العراق جانبها السياسى المباشر، فمن أسف أن مفاتيح هيدرولوجيته ليست فى يده وإنما تقع خارج حدوده، فنصف مياه دجلة يستمد من أمطار تسقط داخل حدود العراق وذلك فى "الربع المطير" فى كردستان. أما النصف الباقى فيأتى من الأمطار والثلوج التى تتساقط خارجه فى تركيا وإيران، والفرات أسوأ وضعا: فمصدر كل مياهه خارج العراق، والقليل منها يتأصل فى سوريا، بينما تتحكم تركيا فى المنبع الحقيقى للنهر، والمحصلة العامة أن أغلب مياه الرافدين ــ ٨٠% قدر ــ لا يتحكم فيه العراق وإنما الجارتان الجبليتان المطيرتان تركيا وإيران.

وقد أثبت التاريخ خطورة هذا الوضع، فلو أن تركيا استغلت مياه المنابع بإسراف أو أساءت تطهيرها لأثر ذلك على مائية العراق تأثيرا بالغا، ولو أن إيران أقامت سدودا على نهر الكارون فى منطقة الأهواز لحرمت غابة نخيل شط العرب كل قطرة ماء، وهى التى تعتمد على مياهه الصيفية، وحتى الآن لم تتأزم العلاقة المائية حقا بين العراق وجيرانه إلا ما كان من حوادث فردية محدودة تركزت فى

الواحات الجبلية الصغيرة فى شرق العراق على الحدود الإيرانية حيث قطعت المياه عن بعض القرى والمدن ولكنها عادت فسويت، على أن من حسن الحظ أن حاجة الجارتين من مياه الرى لا يمكن بالضرورة إلا أن تكون حاجة تكميلية ثانوية للغاية بحكم غزارة وكفاية موارد المطر الطبيعى فى أحباسها، وحتى إذا ما حاولتا أن تسرفا فى دعاويهما المائية للرعى. فإن أغلب أودية النهرين فى منابعهما جبلية ضيقة قزمية وقصارى ما يمكن أن يبنى عليها من مشاريع وسدود هى وحدات ثانوية ضئيلة القدرة والتخزين، وبمعنى آخر فإن للعراق أن يطمئن ـ كدولة رى تقليدية ـ على ثروته المائية من الناحية السياسية لأنها "حق ارتفاق" تاريخى كما هى حق ارتفاق جغرافى.

هيكل الاقتصاد العراقى:

وثمة عنصر آخر من عناصر القوة فى الموارد الطبيعية للعراق، وهو التنوع، فالعراق الذى يترامى نحو ٨ درجات عرضية بين الشمال والجنوب، لا يقل عن مصر (١٠ درجات) كثيرا فى الامتداد الطولى، وهذا الامتداد ليس مجرد تمدد أميبى عقيم، ولكنه عامل إثراء وتنوع كبير فى إمكانياته الزراعية فيه يجمع العراق بين المحاصيل المدارية وغير المدارية فى الجنوب: والمعتدلة والباردة فى الشمال، فهو إذن رصيد مناخى لا شك فيه وحتى نأخذ فكرة مبسطة عن هذا التنوع الخصب يكفى أن نرى كيف أن الشمال فى كردستان ـ حيث يتركز ٨٠% من قمح وشعير العراق ـ يمثل "صومعة حبوب أو سلة خبز العراق"، بينما أن الوسط فى منطقة "خاصرة" الرافدين هو بفواكهه وخضراواته الكثيفة "حديقة الجمهورية"، فإذا ما وصلنا إلى الجنوب ـ وهو ما يعد جغرافيا وسكانا فى آن واحد "بطن العراق" ـ وجدنا صحفة الأرز الرئيسية فى العراق وغابة نخيله.. ذلك إذن قطاع عرضى حى من الأقاليم الزراعية يساعد كثيرا فى سد حاجات الاستهلاك، وهو ما ينقلنا إلى موضوع الكفاية الذاتية.

ليس ثمة دولة يمكن أن تحقق أو تسعى إلى الكفاية الذاتية فى عالمنا المعاصر بالقطع، ولكن من المؤكد أنه كلما زادت قدراتها على ذلك ـ لا سيما الكفاية الغذائية ـ كان ذلك أدعى إلى قوة البناء الاقتصادى والأساس السياسى للدولة، والموقف فى العراق هو كالآتى: حبوب تحتكر الأغلبية العظمى من المساحة المزروعة (٩١,٦%، أكثر من ٩٠% منها يحتلها القمح والشعير وحدهما). إمكانيات للتوسع ضخمة، إنتاج يستهدف التصدير ابتداء ولكنه يتأرجح من سنة لأخرى ما بين فائض وكفاية وعجز ومعنى هذا، رغم اتساع المساحة المزروعة، فإن شدة انخفاض عائد الفدان التقليدى ينتهى بنا إلى إنتاج محدود فى النهاية، مثلا فى الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢ كان متوسط الإنتاج من القمح نحو ٠,٥ مليون طن ومن الشعير نحو ٠,٧٥ مليون طن، ومن الأرز نحو ٠,٢٥، بمجموع ١,٤ مليون طن، هذا حين أن طاقة إنتاج الغذاء ضعف هذا مرات ومرات، فقد قدر أن العراق يمكن أن ينتج من الحبوب نحو ٩,٥ مليون طن.

وأخطر من ذلك أن مستوى الإنتاج متذبذب بشدة من عام إلى آخر بحكم المناخ، فأغلب إنتاج القمح والشعير مطرى، والمطر هنا متذبذب للغاية، حتى الأرز الذى يرتبط بالجنوب الإسفنجى الرطب ليس أقل تفاوتا فى إنتاجه، ولهذا ومع تزايد السكان وارتفاع مستوى الاستهلاك لم يعد إنتاج الغذاء يحقق الكفاية الذاتية فى سنى النقص، حينذاك ربما يستورد العراق قدر ما يصدر بضع مرات.

هدية الجيولوجيا إلى العراق:

يبقى أخيرا الموارد المعدنية، العراق يشبه سوريا إلى حد كبير من حيث إنه يملك قائمة مطولة مرهقة من عينات المعادن لا تعنى كثيرا ولا تغنى إلا قليلا، مبعثرة ممزقة، ولكن العراق ينفرد بعد هذا بثروة خطيرة من البترول تحمل أكثر من معنى ومن محمول سياسى واستراتيجى، فالرصيد المرصود منه يقدر بنحو

٣٥٧٠ مليون طن، أو ما يعادل ٩,٥ من احتياطى العالم، وهذا يضع العراق فى المرتبة الخامسة بين دول العالم بعد الكويت فالسعودية فالولايات المتحدة فإيران، وقبل الاتحاد السوفيتى وفنزويلا، ومن المحقق أن هذا الرصيد يزداد مع تقدم الأبحاث والكشوف.

أما إنتاجًا فالعراق من "الثلاثة الكبار" فى العالم العربى ومن منتجى ومصدرى الصف الأول فى العالم، ولقد سجل الإنتاج فى عام ١٩٦٤ نحو الستين مليون طن، ويصب البترول دخلا سنويا فى اقتصاد العراق ١٢٥ مليون دينار (١٩٦٤)، نحو الستين مليون طن، ويصب البترول دخلا سنويا فى اقتصاد العراق ١٢٥ مليون دينار (١٩٦٤) وهذا الذى لا يضمن قائمة الصادرات ولكن يعد بمثابة صادرات غير منظورة ـ يمثل أكبر عنصر فى الدخل القومى للعراق، وعصب اقتصادها ورخائها، والواقع أن البترول هو الذى قلب حياة العراق الحديث وحوله من حضارة شبه بدوية إلى مجتمع متطور، ومن دولة "لا فقرية" إلى دولة ترتكز على قاعدة مادية راسخة، فكان للعراق بمثابة القطن لمصر.

هذا، وقد كان بترول العراق حتى قريب يتركز فى الشمال فى كركوك أساسا، ولكن من حسن حظ العراق فى أكثر من معنى أن قد أصبح هناك قطيب جنوبى آخر هام للإنتاج فى منطقة البصرة يناظر ويوازن القطب الشمالى، فهذا التوزيع أنسب لأغراض التوزيع والاستهلاك المحلى من ناحية، ولأغراض التصدير إلى الخارج من ناحية أخرى، ولحفظ التوازن الإقليمى فى توزيع الثروة القومية داخل الدولة وبالنسبة لتوزيع الأقليات من ناحية ثالثة.

ومن الوجهة التطورية، يمكن أن نقول إن البترول قد حول العراق من دولة رى ورعى إلى دولة زراعة وتعدين، بل إننا إذا اعتبرنا مدى ما تساهم به عائدات البترول فى اقتصاد العراق لأمكننا أن نقرر بلا تردد أن العراق "دولة معادن"، به

أصبح البناء الاقتصادى متعدد الأبعاد ـــ أم نقول الأعماق؟ ـــ وأصبح يتألف من "طابقين": موارد الزراعة على السطح وموارد البترول تحت السطح: موارد الجغرافيا المنظورة وموارد الجيولوجيا الدفينة.. والواقع أن العراق يتفرد بين الدول العربية فى أنه ـــ مع الجزائر الآن ـــ الوحيد الذى يجمع بين الإمكانيات الزراعية والثروة البترولية. ومن هنا فإنه الوحيد مع الجزائر الذى يجد نفسه فى الموقف السعيد الذى يستطيع فيه أن يجد القاعدة الأرضية التى يوظف فيها دخله البترولى توظيفا فعالا بناء. الموقف السعيد ـــ كذلك ـــ الذى يمكن فيه أن يمول زراعته ونهضته الزراعية والصناعية من رأس ماله البترولى، بينما كان على البلاد الزراعية الأخرى كمصر أن تمول صناعتها من زراعتها أو من القروض الخارجية.

ومع ذلك كله فلم يحدث البترول فى العراق حتى الآن ثورة أو دفعة صناعية جديرة معقولة، وذلك أساسا بسبب النظام السياسى الاجتماعى الإقطاعى والرجعى أو الانتهازى الذى لم يصف إلا أخيرا مع "الثورات الثلاث" ولهذا يظل العراق حتى اليوم بئرا ضخمة أكثر من مصفى ويظل بتروله تعدينا لا صناعة، ولكن إرهاصات طيبة قد بدأت أخيرا، وهناك مشروعات طموحة للبتروكيماويات والصناعات البترولية العديدة ولثورة تكرير حقيقية، ويمكن للعراق حقا أن يتحول بفضل طاقته البترولية وطاقته الهيدرولوجية إلى ترسانة صناعية مرموقة وقلعة للقوة العربية.

مغزى الوحدة:

هذه القوة الكبيرة بواقعها والأكبر بإمكانياتها ماذا تعنى حين تقترن بقوة مصر الماجدة فى ظل الوحدة المجيدة المرتقبة؟ أكثر من نتيجة تعنى، وكل منها مفعم بالدلالات وردود الأفعال والظلال التى ستنعكس داخل وخارج المجال العربى على السواء، فأولا لا جدال أن ستكون هذه ـــ الجمهورية العربية الثانية كما قد نقول ـــ وحدة بين أكبر وأخطر قوتين فى العالم العربى، تضم القطبين الذين تبادلا مركز

الثقل فى العروبة بالتناوب عبر التاريخ وبهذا تبدأ نواة الوحدة العربية الشاملة من أقوى وأرسخ قواعدها فى براعة استهلال يمكن وحدها أن تبشر بتمام التوفيق.

وبهذا أيضا تسقط نهائيا وإلى الأبد دعوى ودعاية الاستعمار الفجة السقيمة عن "تنافر" القطبين الجغرافيين تاريخيا، فلقد طالما روجت المناورات والمؤامرات البريطانية، فى سعيها لتدق إسفينا غائرا بين العرب، إن النيل والدجلة لا يلتقيان، وبذلك كانت تصطنع وتفتعل محاور وهمية متعارضة تقطع عبر العروبة وتقطع أوصالها، وها هما اليوم يلتقيان ليصبا فى أرض الوحدة وليبنيا معا أضخم قلعة مادية وبشرية فى ميدان العروبة.

وعلى الصعيد الخارجى، ستقدم الوحدة على الفور أكبر وأغنى دولة فى الشرق الأوسط إطلالة تتضاءل بجانبها كل من إيران وتركيا وتتحول معها أطراف العروبة من مناطق ضغط بشرى وسياسى منخفض إلى مناطق ضغط مرتفع ومن مواطن ضعف وخطر إلى مراكز قوة وأقطاب موجبة، وبهذا فإن دولة الوحدة الجديدة ستقلب بصورة آلية كل موازين القوى التقليدية فى منطقة الشرق الأوسط، وتفرض إلى حد بعيد محاور السياسة السائدة فى هذا المجال المترامى من قلب العالم ولا شك أن القيمة العملية لهذا ستنعكس فى قوة المساومة والردع التى ستملكها الدولة الجديدة حين يأتى دور التسويات الإقليمية مع جيران العرب، وهو لابد آت يوما ما، فليس يخفى أن حدود العرب فى آسيا مرصعة بالأقاليم السليبة Terra irredenta ابتداء من عربستان إلى الإسكندرونة وبغير الوحدة وبغير دولة الوحدة لا نرى كيف يمكن استعادة هذه الألوية المفقودة وضمها إلى الوطن الأب Vaterland.

ومثل هذا أو أكثر منه يقال عن السرطان الإسرائيلى فى فلسطين المحتلة، فلا شك أن قيادة دولة الوحدة الثنائية يضع هذا المسخ الدخيل بين شقى رحى ساحقة أو

فى كسارة بندق هائلة وصحيح أن العراق ليس له حدود مشتركة مع العدو، ولكن الحد الأدنى من وحدة العمل العربى كفيل بأن ينقل حدوده "الميدانية" إلى جنب العدو وضلوعه، وبذلك يزداد العمل العسكرى ضده تنسيقا والتحاما، وباستثناء مصر، فلا ريب أن العراق يملك اليوم أقوى قوة عربية ضاربة، واجتماع القوتين على جبهتين من الشرق والغرب فى معركة واحدة يمكن أن يضع العدو فى قلب استراتيجية الكماشة واستراتيجية التطويق والإحاطة واستراتيجية الرعب فى آن واحد.

أما داخل دولة الوحدة نفسها، فواضح أنها لا تمثل كتلة أرضية متصلة واحدة، بمعنى أن هناك فاصلا أرضيا كبيرا بين إقليميها، ونعترف بأن هذه حقيقة قد يؤسف لها، ولكن لا ينبغى أن نبالغ فى تضخيم مغزاها، إنها ليست نقطة قوة بالتأكيد، ولكنها فى نفس الوقت ليست نقطة ضعف شديد من ناحية لأن الفاصل المسافى أقل مما يبدو على السطح فكم منا يدرك أن بغداد أقرب، من حيث المسافة المباشرة وغير المباشرة، إلى القاهرة من القاهرة إلى الخرطوم مثلا، ولا تزيد كثيرا عنها بين القاهرة وحلايب أو السلوم؟ هذا بينما أن الفاصل المباشر بين أقرب حدود الإقليمين يقل عن ذلك كثيرا جدا، ومن ناحية أخرى فإن الفاصل الأرضى ظاهرة عابرة، فطالما كانت الوحدة العربية الشاملة هى الهدف والوحدة العراقية المصرية طليعة لها وبداية، فإن الدولة الجديدة دولة مرحلة أساسا، والمستقبل جدير بأن يملأ الفاصل بين شقيها.

وما دامت الوحدة الشاملة هى الهدف النهائى، فيستوى إذن أن تبدأ الوحدة على أساس جغرافى أو تاريخى، أعنى على أساس الاتصال الأرضى والجوار المكانى أو على أساس التعاصر والتقارب فى درجة التطور السياسى والاجتماعى، وما على الدولة الجديدة إلا أن تنمى خطوط المواصلات بين قطريها بحماس وجد، ومن حسن الحظ أن الشبكة بينهما أصبحت ثلاثية، تترامى فى الشمال عبر سوريا

ـ لبنان، وفى الوسط بطريق السيارات البرى الجديد بوصلة العقبة ـ الأردن، وفى الجنوب عن الطريق البحرى حول الجزيرة العربية.

ويبقى فى النهاية سؤال أخير: ماذا تضيف الوحدة من الناحية المادية إلى طرفيها؟ إن الوحدة بين مصر والعراق هى وحدة بين بيئتين متشابهتين من النظائر الجغرافية بوجه عام، فكل منهما بيئة نهرية فيضية تغلقها شرنقة صحراوية أو استبسية شاسعة، وقد يبدو للنظرة الوهلية أن هذا الإقليم يكرر ذاك، مما يجد كثيرا من إمكانيات التكامل الاقتصادى بينهما، ولكن الواقع أن هناك فروقا محسوسة ودالة فى خط العرض والطول وفى خط التطور والإنتاج، فى خط العرض يبدأ العراق جنوبا حيث تنتهى مصر شمالا تقريبا، وفى خط الطول يقترب العراق من عالم الاستبس بينما تستقر مصر فى محيط الصحراء، وفى خط التطور تسبق مصر العراق بعدة عقود فى النمو المادى وفى نمو السكان، فبينما تعانى الأولى من إفراط السكان يعانى الثانى من تفريطهم وندرتهم، وفى خط الإنتاج دخلت مصر الميدان الصناعى من أوسع أبوابه ولكن ـ العراق لا يزال على عتبته.

ومن هذا وذاك جميعا تنبع فروق هامة فى الإنتاج الزراعى والرعوى والصناعى لا تجعل منهما اقتصادين متنافسين بقدر ما تدعو إلى وتمكين لكثير من التكامل الاقتصادى والتبادل التجارى: الحبوب والتبغ والجلود والصوف ومنتجات مراعى الألبان من العراق، والمنسوجات والمصنوعات والأرز من مصر، أما الفارق فى التوازنات السكانية فيمكن الاستجابة له فى رأى الكثيرين بالتهجير المخطط من إقليم الضغط المرتفع إلى إقليم الضغط المنخفض، ولكن هذا الجانب الأخير أدخل فى سياسة المدى البعيد، ويكفى الآن أن نقرر أن الوحدة بين القطرين يمكن أن تتجسد ماديا فى نطاق عريض من التفاعل والتكامل الاقتصادى يضيف إلى قوة كل منهما بمثل ما تضيف إليهما على المستوى السياسى والاستراتيجى، ولقد بدأ هذا يترجم إلى واقع فعلى فى خطة تدريجية رشيدة منذ وضع اتفاق الوحدة الاقتصادية العربية موضع التنفيذ.

نحو حل علمى[1]

قفزت أنباء قبرص لتحتل عناوين الصحف الرئيسية، ففى كل يوم تزداد المشكلة فيها تفاقما وتدهورا، وتتعدد أطرافها المشتركة المتشابكة، حتى أصبحت قبرص من أخطر المشاكل التى تهدد السلام فى منطقة الشرق الأوسط، وقد يكفى هذا لتستثير المشكلة اهتمام المفكر السياسى فى أى مكان، ولكنها بالنسبة للمفكر السياسى العربى تمس مباشرة وفى الصميم أمن منطقته ومستقبل حركة التحرير فيها، بما فى ذلك المستقبل المصيرى لفلسطين ولسنا نود هنا أن نحلل أهمية استقلال قبرص للاستقلال العربى فى أى من معانيه أو أبعاده، فهذه قضية مفروغ منها، فلن نقول إن قبرص كانت دائما بالجغرافيا والطبيعة أشبه "بمسدس" ـ شكلا وموضوعا مصوب نحو ساحل الشام والمشرق العربى ولن نقول إنها كانت دائما موطئ الخطا وخشبة القفز التى وثب منها الاستعمار على العالم العربى ابتداء من الحروب الصليبية حتى العدوان الثلاثى، لا ولن نقول إن حل مشكلة قبرص أيا كان أو سيكون له انعكاساته وظلاله على مشكلتنا الأولى فلسطين، فإن فرض التقسيم على قبرص مثلا هو فى ذاته تشريع وتوكيد إلى حد ما لسابقة آثمة هناك، بينما أن تصفية الأقلية الدخيلة فى الجزيرة تعيد ـ على المستوى القانونى الدولى ـ الحياة إلى مبدأ عودة الأرض السليبة وتجدد شبابه، ولهذا فإن أهمية مشكلة قبرص بالنسبة لنا لا تحتاج إلى شرح وتفسير، واهتمامنا بإيجاد حل سليم لها لا يحتاج إلى تبرير.

وإنما نريد هنا ـ تأسيسا على ذلك ـ أن نصل إلى الحل العلمى الجذرى للمشكلة وذلك بعيدا عن التعقيدات والمضاعفات التى تزداد تكاثفا كل يوم حول القضية بفضل مؤامرات الاستعمار الخبيثة ومناورات الحرب الباردة المكشوفة وعصبيات الطائفية الضيقة. فهذه التعقيدات تجرفنا ـ أو أريد لها أن تجرفنا ـ إلى

---

[1] مجلة الهلال – أكتوبر ١٩٦٤م.

تيه من التفاصيل والتفريعات، من الشكليات والسطحيات، حتى لا نعود نرى الغابة من الأشجار، وحتى نتوه عن الجذور والأصول إلى أن نتورط فـي النهايـة فـي مزالق "الأمر الواقع" اليائس ــ تماما كما رتبت الأمور فى مأساة فلطسين، وحـين نرفع رءوسنا من فوق الرمال الناعمة التى يدفع الاستعمار القضية إليها لتبتلعها لن نرى ساعتها إلا تلك القسمة السليمانية أو غير السليمانية: لـن نـرى إلا التقسيم فالشيء المشاهد الآن أن الاستعمار البريطانى دق المسمار الأول فى عملية التقسيم حين بدأ أسلوب التقسيم على المستوى المحلى فى نيقوسيا العاصمة بـين الأحيـاء اليونانية والتركية، والمعسكر الاستعمارى يتحيز بوضوح لدعوى التقسيم التركيـة، وقد أتت قوات الأمم المتحدة لفترة قد تطول بعد اليوم وقد تقصر ولكن من الواضح أنها لن تخرج فى النهاية إما عن دور "زيت التشحيم" الذى يلطـف احتكـاك آلـة الاحتراق الداخلى قليلا أو عن دور "زيت التخدير" الذى يؤجل الانهيار إلى حـين، وبعدها تبرز فلسفة الأمر الواقع برأسها الكريه لنكرر مأساة التقسيم.

دور الاستعمار:

ونحن لهذا نعتقد أن من الضرورى لكى تفوت علـى الاسـتعمار خططـه وألاعيبه أن نصر على العودة إلى الحقائق الجذريـة وإلـى مواجهـة الأوليـات الموضوعية فى القضية. فيها وحدها يمكن أن يصل إلى رأى العلم فـى المشـكلة والحل الجذرى لها، ولعل من الأجدى فى هذا الصدد أن نرتب هذه الحقائق فى نقط واضحة مجددة، نبدأها بدور الاستعمار فى خلق المشكلة، فنقول: إنه لا جـدال أن الاستعمار البريطانى منذ دخل الجزيرة وهو يعمل ــ ليضمن بقاءه فيها أطول مدة ممكنة ــ على أن يبث بذور الكراهية والحقد والطائفية بين عنصرى السكان، وذلك باحتضانه السافر المكشوف للأقلية، تلك هى اللعبة الخالدة والقذرة "لألبيون الخائن" (كما تعرف بريطانيا من قديم فى عالم السياسة)، وبعد اسـتقلال الجزيـرة، هـذا الاستقلال الشكلى المقيد غذت بريطانيا تلك العداوات حتى تضـمن بقاءهـا فـي

قاعدتيها العسكريتين بالجزيرة، ويتخذ بعض الأتراك بدورهم من سلخ هاتين القاعدتين عن جمهورية قبرص ذريعة وحجة للمطالبة بالتقسيم، فهم يدعون أن هذا السلخ فى ذاته تقسيم قائم، وأن التقسيم بعد ذلك لن يكون شيئا جديدا على الجزيرة، وإنما يصبح ثلاثيا بدل أن يكون ثنائيا.. ومعنى هذا أن وجود بريطانيا فى الجزيرة يغذى ويحرك الطائفية العنصرية بالدس العامد من ناحية، ويشجع على انفصالية التقسيم من ناحية أخرى.

الأبعاد الحقيقية:

ولكن السؤال الحرج والصريح هو: هل إذا أخرج الاستعمار الآن كمحتل من الجزيرة وكطرف متحيز فى القضية هل من المحتم أن تزول المشكلة وتحل نهائيا؟

إن خروج الاستعمار البريطانى ــ ومعه استعمار حلف شمال الأطلنطى الذى يتخفى وراءه أو الذى يتخفى كل منها وراء الآخر ــ شرط أساسى سابق لأى حل للمشكلة. ذلك أمر لا جدال فيه ولا تحفظ، ولذلك فلن نقف عنده باعتباره بديهية أخرى فى القضية مفروغ منها.

ولكن بعده يجوز لنا أن نتساءل إلى أى حد ستحل المشكلة نفسها بنفسها؟ لقد أعلنت الطائفة التركية أثناء المعارك الأخيرة أن التعايش بين الطائفتين قد أصبح مستحيلا، وأنهما لن يمكن أن يضمهما سقف دولة واحدة، بعد الآن، ومنهم من طالب بفيدرالية دستورية ومنهم من طالب بتقسيم انفصالى صريح، والحقيقة فى ظل الظروف الحالية والروح التى تسود خلفها أن الفارق بين الدعوتين طفيف وشكلى وعلى الأرجح مرحلى، والترجمة الأمينة لأى منهما إنما هى الطلاق السياسى، ومن المؤكد أن النفوس اليوم مشحونة تماما بالتوتر والعداوات من الجانبين، ولقد يقال إن الزمن خير علاج فى هذا الصدد، ولكن من الحق أيضا أن يقال إن وراء الأتراك

واليونانيين بعامة فى قبرص وخارج قبرص تاريخا طويلا من الريبة والشك والمخاوف إن لم يكن من الحقد والكراهية المباشرة.

ولا يرى أتراك الجزيرة ــ حتى إذا هدأت النفوس ــ أى ضمان لهم كأقلية فى قبرص مستقلة حرة تماما، وهم على أحسن تقدير لا يرون أمامهم مستقبلا فى ظل هذا الوضع خيرا مما عرف أتراك كريت منذ ضاعت من تركيا حيث آثروا فى النهاية الهجرة من الجزيرة ــ بينما لا يرى يونانيو قبرص فى أى ضمانات لأتراكها إلا شلا لحركتها وقيدا على سيادتها.

باختصار إذن إنه ليس من الواقعية فى شيء أن نرى كل أبعاد المشكلة فى إطار الاستعمار وحده، فخارج هذا الإطار ــ أو داخله ــ إطار آخر أشد خطرا وأعمق جذورا وأكثر بقاء وهو إطار الطائفية، وليس معنى هذا على الإطلاق تبرئة لساحة الاستعمار البريطانى من دوره فى افتعال وتضخيم المشكلة وفى استغلالها السياسى لحسابه، ولكنا نقول: إن تصفية هذا البعد الاستعمارى لن يحل المشكلة وحدها تلقائيا وإلى الأبد.

ومرة أخرى نحن نخطئ النظر إلى المشكلة فى حدود أبعادها المحلية فى الجزيرة، ذلك أن الثنائية القومية فيها مثلثة الأبعاد فى الحقيقة، تبدأ من الجنس بالمعنى الأنثربولوجى الكامل، وتمر باللغة وتنتهى بالدين، أى أن الهوة التى تفصل بين الطائفتين هى أعمق ما يمكن أن يقوم فى باب الأقليات، إنها خندق غائر كله فى عوامل الفصل دون أى عامل وصل، وكان من الممكن لهذا الأساس أن يكون كافيا وحده لخلق الوضع المتفجر، ولكن حدود المشكلة أبعد حتى من ذلك، فخلفها يكمن التاريخ التعس بين الدولتين الأم، ذلك الذى يتألف نسيجه من عقد الاستعلاء والمجرفة وخيالات العظمة الجوفاء الماضية من ناحية، ومن عقد المرارة والحذر والشك من الناحية الأخرى.

ولربما كانت أبعاد الصورة تختلف كثيرا عما هى عليه لو لا أن الدولـــة الأم للأغلبية هى الجانب الأضعف كثيرا كقوة سياسية، بينما أن الدولة الأم للأقلية هـــى الجانب الأضخم والأقوى، وبفضل هذه العلاقة العكسية بـــين وزن الطـــائفين فـــى الجزيرة ووزن القومية الأم خارجها، تقف تركيا موقف الدولة المتعنتة المتحرشة لا من قبرص فحسب وإنما من اليونان أيضا، ويزداد اختلال توازن القوى الأم خطرا بانحياز قوى الغرب فى حلف شمال الأطلنطى إلى الجانب "الخطأ" فى المعادلة رغم أن الطرفين المتنازعين عضوان فيه..

وإذا نحن حاولنا أن نحصر إمكانيات حل المشكلة فى إطار الجزيرة وحدها فلن يكون هناك إلا طريقان: إما أن تتعايش الطائفتان تعايشا سلميا فـــى ظـــل جمهوريـــة الجزيرة المستقلة، وإما أن تنفصلا بصورة أو بأخرى، وليس هناك طريق ثالث.

والطريق الأول يكاد يفترض المستحيل، لأن النظرية الواقعيـــة لا يمكـــن أن ترى التعايش السلمى فى المستقبل، لكنا لو فرضنا ذلك المستحيل، فشرط أساســـى فيه أن تظل الجزيرة مستقلة ـــ أعنى ألا تنضم إلى اليونان، ذلك لأن تركيا ســـوف تقف لمثل هذه الحركة بالمرصاد ـــ بالدم والحديد. أما طريق التقسيم فهو الطريـــق الذى تحاول المصالح المغرضة أن تدفع بالمشكلة إليـــه كمـــا رأينـــا. إنـــه الحـــل الاستعمارى بامتياز. والذى نود أن نقف عنده الآن هو مدى صحة وسلامة كل من هذين الطريقين.

التقسيم مستحيل:

فأما التقسيم فهو جريمة سياسية اجتمعت لها كل أركان الجريمـــة الكاملـــة، وفضيحة جغرافية ينكرها أى منطق.

فأولا ليس هناك توطنات محلية واضحة للطائفتين، بل إن توزيعهما يتـــداخل فى كل أجزاء الجزيرة بنسب متفاوتة، وكل محاولة لتقسيم فيزيقـــى ســـتنتظم أولا

تحركات وهجرات للسلكان فى كلا الاتجاهين وذلــك كعمليــة اســتقطاب مكـــانى للعنصرين. ثم هى ستنظم بعد ذلك ـ أو قبل ذلك؟ ـ تحديدا اعتباطيا عشوائيا بحتا لقطاع كل منهما. وليس أدل على ذلك من أنه حين فكر الاســتعمار فــى فــرض التقسيم على الجزيرة قبل الاستقلال كان هناك مشروعان متناقضان تماما ويتعامــد كل منهما على الآخر: واحد عرضى وواحد طولى، بل أكثر سخرية من هذا كـــان تحديد أرض كل من الطائفتين يتأرجح مرة فى هذا الجانب أو ذلك! ومعنى ذلك أن التقسيم اصطناعى مفتعل، لأنه ضد طبيعة الأشياء فى الجزيرة. إنـــه يجعـــل مـــن قبرص "هايتى أخرى" حيث تحمل وحدتين متنافرتين هما هايتى وسان دومنجو. بل إنه يجعلها أسوأ من هايتى.. لأن قبرص لا تعدو نحو ثلث هايتى مساحة.

ولكن بعد هذا وأخطر منه سؤال بديهى بسيط: لماذا التقسيم؟ ربما جـــاز أن نفكر فيه إذا تساوت كافة الطائفتين ثقلا ووزنا، لكن الأمر أبعد مـــا يكـــون عـــن التعادل، فالأتراك أقلية محضة لا تزيد عن خمس السكان بل تقـــل قلـــيلا (١٨%). وإذا كان الاستعمار قد جعل من تركيا فى الماضى "الطفل المدلل"، وهى الآن تريد أن تكون "الطفل المرعب"، فقد آن لكبار البيت أن يتدخلوا قبل أن يحـــرق البيـــت جميعه، ليس هذا فحسب وإنما الأقلية التركية أقلية وافدة طارئة دخيلة من مخلفـــات الاستعمار العثمانى. فهم ليسوا من أصحاب البيت حتى يطالبوا بجزء منه، وهـــذه النقطة وحدها تحسم الأمر كله، وسنعود إليها بقليل من تحليل بعد حين، ولكن يكفى هنا أن نقول: إن دعوى التقسيم التى يطالب بها أتراك الجزيـــرة أو أتـــراك شـــبه الجزيرة هى تماما كما لو هب المليون إيطاليا أو المليون بولنديا الذين هاجروا إلى فرنسا أخيرا واستقروا بها وتجنسوا بجنسيتها فطالبوا بتقسيمها على أساس أنهم من أصل وقومية ولغة مختلفة! ولعل هذا المثال يكفى لتوضيح مدى تهافـــت دعـــوى الانفصال وسخف فكرة التقسيم فى قبرص.

على أن السؤال الأخطر من هذا كله هو هل تتحمل الجزيـــرة الضـــئيلة ـــ جزيرة الجيب هذه ـــ مزيدا من التقسيم الميكروسكوبى أو التفتيت الذرى؟ والـــرد على هذا سنجده ضمنا فى مناقشة الطريق الآخر. ولكن يمكننا هنـــا أن نقـــول إن التقسيم فى حقيقته مرادف وتمهيد لضم كل من القطاعين إلى دولته الأم.... .[١]

[١] يوجد قطع بعد هذا الموضع فى المقال.

مورفولجية الشام[1]

يبدو وجه الشام لأول وهلة معقدا فى تركيبة وملامحه، ولكن الواقع أن الشام وحدة مورفولويجة تمتاز فى داخلها بتناسق وسمترية فيها كثير من المنطق وقليـل من التعقيد، بينما من الخارج تبدو وحدة مستقلة الشخصية فى لاندسكيب المشـرق العربى، وهى فيه كإقليم الأطلس فى المغرب العربـى، أى أنهمـا مـن النظـائر الجغرافية البارزة فى العالم العربى، ولسنا نبتعد كثيرا عن الواقع إذا قلنا "جزيـرة الشام" بمثل ما أن الأطلس هو "جزيرة المغرب" فهنا وهناك هضبة من النوع الذى يدعى بالهضاب المتغضنة. تقوم بين بحر الماء وبحر الرمال من خلف ومن قدام، وفى الحالين ثمة إطار جبلى يطوق الكتلة ويتألف من خطين أساسـيين يحصـران بينهما خطا منخفضا فى الوسط، وصحيح أن هذا الخط المنخفض أقرب إلى السهول العليا فى المغرب وإلى الأخدود الانكسارى فى الشام، ولكن يظل الصرف الداخلى والجفاف النسبى والتضاريس السالبة قواسم مشتركة بين النظيرين، وهناك بطبيعة الحال فروق هامة بين الشام والمغرب ــ هناك المقياس أولا فهو أدنى إلى الصـفة الألبية فى المغرب بينما الشام أكثر تواضعا، وهناك الحجم وهو أيضا أضخم فـى المغرب، وهناك أخيرا المحور فبينما يمتد الشام طوليا يمتد المغرب عرضيا.

ولكن أصالة الشام الطبيعية ــ وربما البشرية أيضا بالتـالى ــ تـأتى مـن الفتحات العرضية التى تتعامد على المحور الأساسى وتفرض عليه نمطا تكعيبيـا يجعلها فى مجموعها أشبه بالسلم، فيتقطع كل من خط الجبال الساحلى والداخلى إلى سلسلة من الكتل النظائر تتوازن هندسيا كما تتوازن جيولوجيًا، ومن ثم تنتهى إلـى هيكل بسيط متناسق أبعد ما يكون عن الاضطراب أو التعقيد، ومن هـذه الزوايـة سنعرض لملامح وجه الشام الطبيعية، فنميـز بـين عـدة خطـوط تضاريسـية

---

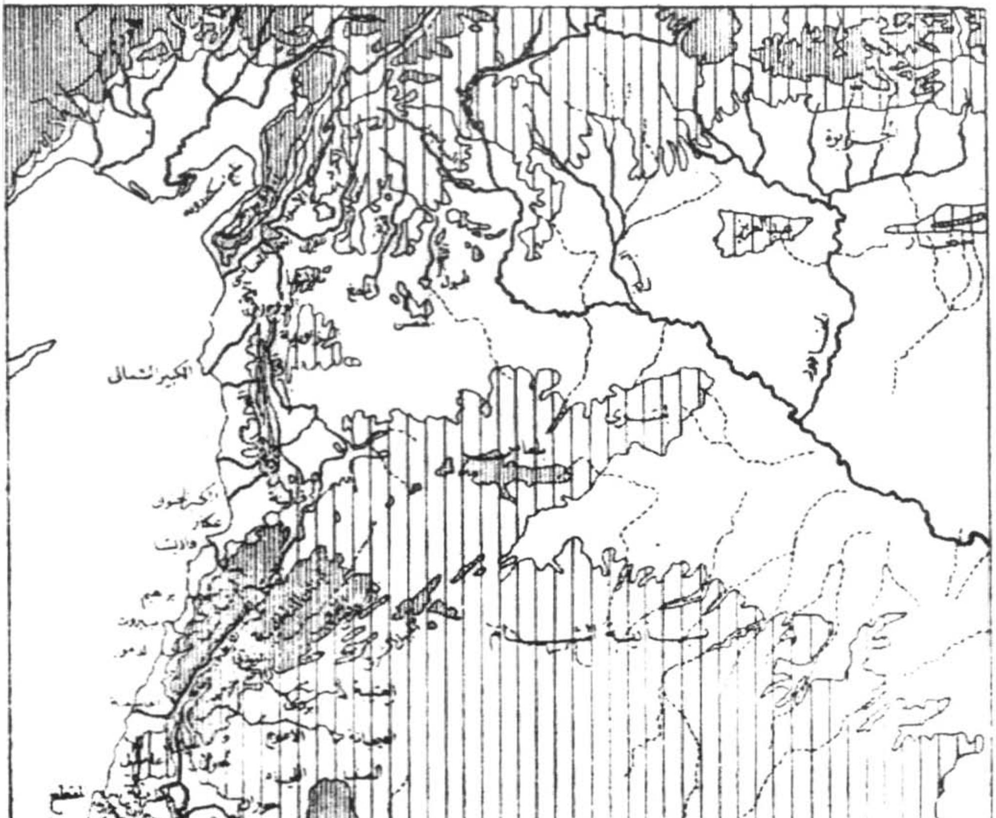
(1) **مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – المجلد(٧) – العدد(٢) – مارس ١٩٦٤م.**

ومورفولوجية تتعاقب من الساحل حتى الداخل، فبعد السهل الساحلى نتتبع خط المرتفعات الغربية ثم خط الوادى والأخدود البينى ثم خط المرتفعات الشرقية إلى أن نصل إلى مسطح الهضبة الداخلية فى بادية الشام.

أولا: السهول الساحلية

هذه السهول شريط يدق جدا فى الشمال ويتسع كثيرا فى الجنوب حتى يصل أحيانا إلى ٣٠ كم. وهى تضيق فى الشمال حتى تختفى محليا لاقتراب الجبال الغربية من الساحل وتتسع فى الجنوب لابتعادها عنه وللقرب من إرسال تيار البحر المتوسط الجنوبى، ولهذا نجد أن طبيعة خط الساحل تختلف من الشمال إلى الجنوب: فهو وإن كان قليل التعاريج بوجه عام ولا يتعمق فيه البحر أو يتوغل كثيرا، إلا أن هذه السواحل فى الشمال صخرية عميقة كثيرة الرعوس والخلجان الهلالية العميقة نسبيا، ولكنها رسوبية طينية أو رملية ضحلة خطية فى الجنوب، وقد كان لهذا أثره الكبير فى الملاحة ونمو الموانى: فكل المرافئ والموانى الرئيسية مركزة فى الشمال ولو أنه لما كانت الرياح السائدة هى الجنوبية الغربية فليس لكل الخلجان أهمية ملاحية: فلابد من لسان بارز من الجنوب للحماية وإلا كانت الميناء مفتوحة للعواصف، ولقد كان القطاع الشمالى مهدا لبيئة بحرية كبرى فى التاريخ والوقت الحالى، بينما كان ظهير القطاع الجنوبى معزولا منطويا على نفسه فى ظل توجيه برى داخلى، كذلك كانت الأنهار الساحلية فى الشمال قليلة وقصيرة، ولكنها تتعدد وتطول فى الجنوب.

فمن الشمال من خليج إسكندرونة تكاد الجبال تحتضن الساحل ويختفى السهل ونهايات الجبال الفجائية هى التى ترسم محاور التعاريج وتحدد الرءوس:



مورفولوجية الشام

كرأس الخنزير الذى يفصل بين خليج إسكندرونة وخليج السويدية الذى يصب فيه نهر العاصى. وعند رأس ابن هانى تقوم اللاذقية وخلفها سهول العلويين بقسميها سهول اللاذقية حيث يجرى النهر الكبير الشمالى وسهول جبلة، ثم يعود الشريط إلى الاتساع خلف خليج عكار حيث توجد سهول طرسوس – عكار طرابلس – والتى تأخذ شكل مثلث قاعدته خليج عكار ورأسه تل كلخ فى سورية ويزيد عرضه عن ٢٥كم، ويختطه النهر الكبير الجنوبى، وتقوم إزاء طرسوس جزيرة أرواد وهى من الجزر الساحلية القليلة فى الشام والوحيدة المسكونة بينها وخليج عكار – مشترك بين سوريا ولبنان، ونهايته اللبنانية هى رأس المينا حيث تقوم طرابلس وخلفها يصب نهر قاديشا وإزاءهما كانت توجد عدة جزر صغيرة ظلت مسكونة حتى القرن ١٣ حين خسفها زلزال.

ثم يدق السهل الساحلى لاقتراب جبل لبنان، والواقع أن السهول الساحلية تضيق إلى أدناها فى القطاع اللبنانى خاصة فى وسطه حتى تحتم فى نقط منه – مثل رأس الشقعة – شق نفق فيه للسكة الحديدية والطرق ولهذا أيضا تكثر الرءوس والخلجان بينما تقل السهول وتتضاءل. أما الخلجان فمنها خليج جونية حيث يصب نهر الكلب ثم خليج مارجرجس الذى يحدده رأس بيروت وتقوم عليه المدينة.

ورأس بيروت كان أصلا جزيرة منفصلة عن الساحل ثم اتصلت بواسطة الرواسب النهرية التى جلبها نهر بيروت، ولا زالت آثار الشواطئ القديمة ترى فى شرق المدينة ولسان رأس بيروت بهذا يخلق مرفأ حيويا بحيث يصبح خليج مارجرجس أهم ظاهرة فى الشاطئ اللبنانى بل الشاطئ كله، ثم جنوبا تعود السهول فتتسع نوعا فنجد سهول أنهار الشويفات وخلد ونهر الدامور ثم سهول صيدا ثم سهول صور، والأخيران يتسعان نوعا لأن بينهما يصب نهر الليطانى، ويحدد رأس الناقورة الحدود بين لبنان وفلسطين.

أما فى فلسطين فيتحول الساحل إلى خط قوسى لا يقطعه إلا خليج عكا فى الشمال، ويتكون من امتداد لسان جبل الكرمل باسم رأس الكرمل وتقوم عليه عكا وحيفا، وهاتان الميناءان يدينان بوجودهما لاعتراض كتلة جبل الكرمل العرضية، وحتى الحدود المصرية يستمر الساحل ضحلا رسوبيا يمتاز ببعض المستنقعات وبخط من الكثبات الرملية قد يرتفع إلى ٤٠ مترا أحيانا وهو من صنع التيار البحرى بجنوب البحر المتوسط الذى يحمل الرمل ورواسب دلتا النيل، ولهذا لا يصلح هذا الساحل للملاحة تقريبا ومعظم موانيه صناعية كيافا ــ تل أبيب، بينما فى غزة حاولت الإدارة المصرية أخيرا إنشاء رصيف عميق فى البحر للرسو ولكنه تآكل باستمرار، أما السهل الساحلى فينبسط باضطراد حتى يمثل أكبر منطقة سهلية واحدة فى الشام، وتطول المجارى المائية فيه، ولكن نظرا للجفاف المتزايد جنوبا تصبح معظمها أودية فصلية أكثر منها أنهارا دائمة، وتنقسم هذه السهول الساحلية الخصبة بواسطة جبل الكرمل العرضى إلي قسمين: فى الشمال سهول عكا أى من رأس الناقورة حتى حيفا، ويختطها نهر النعامين الذى ينبغ من جبال الجليل ويصب جنوب عكا، ثم يتصل بها من الجنوب الشرقى سهل مرج بن عامر (أو سهل إسرائيل Plain of Esdraelon) الذى يرويه نهر المقطع (أو قيشون) نابعا من جبال الناصرة وصابا شمال حيفا، والسهل يأخذ شكل مثلث زاويته الجنوبية بلدة جنين والغربية نهر المقطع والشرقية جبل الطور (أو جبل الزيتون)، وهو سهل شديد الخصوبة تربته تكونت عن فتات التكاوين البركانية البازلتية المنقولة من جبال الجليل ولذا اشتهر بالحبوب، والسهل ثغرة فى جبال الشام الغربية ولذا يمثل بوابة جنوبية خطيرة إلى الداخل حيث يتصل بغور الأردن وأصله انخفاض تكتونى حدث بالهبوط.

أما فى الجنوب فهناك سهل صارونة (شارون) حتى يافا وفيها أكبر أنهار فلسطين الساحلية نهر العوجة (العوجاء) ٢٦كم ويصب شمال المدينة ثم تلى

فلسطين جنوبها Philistia القديمة، التى يظن أن اسمها مشتق من اسم العناصر الإغريقية المهاجرة التى عمرت المنطقة فى البدء وهى العناصر البلازجية (المورة) Peloponnese, Pelasgian ومن مجاريها نهر روبين ووادى غزة ورافده الشمالى وادى الشريقة.

ثانيا: الجبال الغربية

هذه السلسلة التواء ساعدت فى تشكيله الانكسارات لا سيما فى الشرق ولذا كانت كل أجزائها وئيدة الانحدار نحو الغرب شديدته نحو الشرق، وهو العمود الفقرى فى النظام الجبلى الشامى لأنها أكثر ارتفاعا وطولا واتصالا فيها أعلى قمم الإقليم وهى أعلى ما تكون فى الوسط. أما من حيث الامتداد فهى تتشعب لتصل إلى طوروس فى ناحية وإلى قبرص فى ناحية أخرى. وأما من حيث الاستمرار فهى متصلة رغم تعدد الفتحات والممرات التى تضاعف أهميتها البشرية، والسلسلة كذلك أكثر وحدات الشام الطبيعية قيمة بشرية لأنها لارتفاعها ولموقعها وممراتها أكثرها مطرا وينابيعا ونباتا وزراعة ومواصلات، ولذا فهى أكثفها بشريا واقتصاديا، ويمكن أن نتتبع فيها وحدات الكتل الآتية وسيلاحظ فيها جميعا أنها تنحدر بشدة شرقا وتدريجيا غربا وأن كلا منها أعلى دائما فى الشمال وتقل ارتفاعا كلما اتجهنا جنوبا.

جبال أمانوس (أو اللكام):

تتفرع عن طوروس الخلفية كسلسلة طولية ضيقة طولها ٦٠ كم وعرضها ٢٠ ــ ٢٥ كم، على محور شمالى شرقى جنوبى غربى ويقل ارتفاعها جنوباً، ولو أنها تعود إلى الظهور فى قبرص فى شكل جبال ترودوس Troodos يحدها خليج الإسكندرونة حيث تنتهى عند رأس الخنزير وخليج السويدية ويحدها شرقا النهر الأسود ومنخفض العمق، وجنوبا ثنية نهر العاصى، ينصف السلسلة فتحة منخفضة

هامة هى ممر بيلان (أو شعب بيلان) الذى يعتبر المدخل الحقيقى التاريخى من آسيا الصغرى إلى الهلال الخصيب ويشطر الممر السلسلة إلى جزءين: الشمالى أعلى هو جبل الكافر Kavir dagh (كاور داغ)، والجنوبى أوطى هو قيزيل داغ أى الجبل الأحمر الذى تتمه زائدة فى أقصى الجنوب هى جبل موسى، وسلسلة الأمانوس غزيرة المطر صخورها غير مسامية ولذا فهى رطبة كثيفة الأحراج.

الجبل الأقرع (أوكاسيوس):

طوله ٥٠ كم وعرضه ٣٠ كم على محور موازى للأمانوس. يقع داخل كوع العاصى الذى يفصله عن الأمانوس، ممتدا من أنطاكية حتى النهر الكبير الشمالى جنوبا حيث يقل ارتفاعه كثيرا، ويستمد الجبل اسمه من خلوه من النبات.

جبال النصيرية (أو العلويين):

تمتد على محور شمالى جنوبى بطول ١٣٠ كم وعرض من ٢٥ إلى ٣٥ كم، أى من النهر الكبير الشمالى حتى النهر الكبير الجنوبى، يحدها غربا سهل ساحلى واسع، وشرقا حفرة الغاب ونهر العاصى. قليلة الارتفاع، فأعلاها قمة النبى يونس" ١٥ مترا فى الشمال ويقل ارتفاع السلسلة ــ كما فى سابقتيها ــ كلما اتجهنا جنوبا، لقلة ارتفاعها كانت فقيرة المطر، لكنها مع ذلك كانت لبراكينها الصخرية وخلوها من الممرات من أشد جبال سوريا وعورة، ولهذا كانت معقلا حصينا للمنشقين: الإسماعيلية قديما، والعلويين، والصليبيين، والثائرين على الدولة العثمانية، وينعكس هذا فى كثرة القلاع بها (قلاع الحصن) والكهف وكسيب وبنى إسرائيل وصهيون) ولذلك فالطرق التى تصل بين الساحل والداخل لا تقطع السلسلة وإنما تدور حولها: شمالا بطريق فتحة النهر الكبير الشمالى إلى جسر الشغور على العاصى، أى فتحة اللاذقية ــ جسر الشغور ــ أدلب، وجنوبا بطريق مصياف أى فتحة بانياس ــ مصياف ــ حماه ــ أو بطريق صافيتا أى فتحة طرطوس ــ صافيتا ــ حماة.

جبال لبنان الغربية:

هى أعلى وأهم جبال النظام الشامى كله حتى غطيت قممها بالثلوج طول العام فصارت بيضاء كاللبن فسماها الآراميون لبنان من اللبن. التواء محدب واحد يعود إلى المحور الشمالى الشرقى الجنوبى الغربى ممتدا كالحائط العظيم مسافة ١٧٠ كم من النهر الكبير الجنوبى أى فتحة طرابلس ــ حمص فى الشمال حتى نهر الليطانى فى الجنوب، وككل السلاسل السابقة يقل ارتفاعها كثيرا كلما اتجهنا جنوبا ولهذا فهى ترقى من فتحة طرابلس حمص عموديا إلى ارتفاع هائل ــ متوسط ٢٠٠٠ متر ــ مرة واحدة، ولكنها تنحدر إلى الليطانى منخفضة مدرجة جدا حيث لا يزيد متوسط الارتفاع عن ٧٠٠ متر فقط كذلك يقل اتساعها جنوبا من ٥٠ كم فى الشمال إلى ٢٥ كم فى الجنوب، تترك سهلا سهليا ضيقا عامة ولكنه أوسع فى الشمال والجنوب وأضيق فى الوسط، والسفوح الغربية تدريجية الانحدار، تكثر بها المدرجات ويوجد عليها وتقطعها بعض الوديان الصغيرة القليلة التى أهمها النهر البارد الذى يصب فى خليج عكار، وقاديشا الذى يصب عند طرابلس ويشتهر بالصواعد والنوازل، ونهر إبراهيم (أدونيس) والكلب وبيروت والدامور ويلاحظ أن أجزاء الجبل ــ جبل لبنان ــ تعرف بأسماء محلية متعددة تحددها الممرات وأودية الأنهار الصغيرة: فنجد من الشمال إلى الجنوب: جبال عكار ــ المكمل ــ المنيطرة ــ صنين ــ الكنيسة ــ الباروك ــ ينحا ــ الريحان ــ عامل. وتكثر بالسلسلة القمم التى تزيد عن ٣٠٠٠ متر لا سيما فى الشمال، فنجد منها فى جبال المكمل ٣ قمم تحيط بغابة الأرز المشهورة عند بشرى: القرنة السوداء ٣٠٨٨ مترا (١٠٠٠٠قدم) أعلى قمم الشام والواقعة إزاء طرابلس، ثم قمم الميزاب، ثم ظهر القضيب، وفى الوسط قمة صنين إزاء بيروت، وليست السلسلة كثيرة الممرات وأهم ممراتها ظهر البيدر الذى يتوسطها ويصل بيروت بدمشق، وممر بشرى المرتفع فى الشمال ويصلها ببعلبك شرقا، ثم ممر مرجعيون فى أقصى الجنوب ويصلها بصيدا غربا، ونظرا لشدة الارتفاع، فالمطر غزير ويزداد كلما ارتفعنا على السفوح الغربية، ولذا

فبينما لا يسود على الكنتورات السفلى إلا شجيرات الماكى الباهتة اللون تغزر الينابيع والقرى وتسود الغابات على الكنتورات العليا وكلها هنا من زرع الإنسان ولكن على القمم العليا فوق خط الأشجار والمياه ــ حوالى ١٥٠٠ متر تقل النباتات وتصبح القمم جرداء لا سيما على الأطراف الشرقية ولذا تسمى (بالجرود) لخلوها من الغطاء الغابى، ولو أن الأمر لا يخلو من بقايا أرز لبنان القديم كغابة إهدن الواسعة الشهيرة، وتنفرد جبال لبنان فى النظام الشامى بظاهرة خاصة فى العلاقة بين المطر والتركيب الصخرى فالطبقة العليا من السلسلة تتألف من صخور جيرية مسامية أسفلها طبقة من صخور رملية غير منفذة، بحيث إن مياه المطر التى تتخلل الطبقة المسامية العليا تستقر على سطح الطبقة السفلى الكاتمة، فتتجمع المياه حتى تخرج حيث تتعرض على السفوح الغربية على شكل عيون عديدة على ارتفاع ٣٠٠٠ ــ ٥٠٠٠قدم، وهذه "العيون المعلقة" فريدة فى الشرق الأوسط، وبعضها لا تغذى مجارى فحسب بل أنهارا تمكن لزراعات واسعة، ولهذا كان للارتفاعات الوسطى من جبال لبنان قيمة زراعية واقتصادية كبرى تساهم فى اقتصاد الدولة، ولهذه الظاهرة أيضا قيمة خاصة فى السكنى والتعمير منذ القدم، فالطبقة السفلى الكاتمة حولت التعرية سفوحها الغربية إلى منحدرات وعرة قاسية صعبة الولوج من الساحل، بينما تمثل سفوح الطبقة العليا المسامية هضبة بيدمونتية أكثر سهولة وخصوبة، ولذا أمكن للجماعات الدينية والأقليات المضطهدة أن تلجأ إلى مستوى الطبقات العليا حيث يكونون فى مأمن من جماعات الساحل وفى ظل خيرات زراعة العيون، ولذا كانت من مناطق الحماية والالتجاء وحفظت أقلية دينية هامة والآن تنتشر فى الصوامع والأديرة والمدارس، إلى جانب مراكز السياحة الصغيرة.

جبال الجليل:

ابتداء من هذه الجبال يظهر التغير الكبير فى الارتفاع فى السلسلة الغربية، فهذه المرتفعات متواضعة الارتفاع تتراوح بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠ قدم، فهى امتداد

لجبل عامل فى لبنان، وهى تمتد عبر الحدود اللبنانية الفلسطينية حتى تنتهى فى فلسطين شمال مرج ابن عامر، وتتألف فى معظمها من التكوينات الكلسية وتكثر بها الظاهرات الكارستية، وكسابقاتها تنخفض جنوبا باضطراد، ولذا فأعلى قممها جبل الجرمق يقع فى شمالها مشرفا على صفد، ولا يزيد ارتفاعه عن ١٢٠٨ أمتار، وهو بذلك ومع ذلك أعلى قمم فلسطين، وهناك أيضا جبل حيدر غربى صفد، أما فى الجنوب فتغطى السلسلة المنخفضة بصخور بركانية كما تتمزق إلى هضاب وجبيلات مدورة ملفوفة منها تل طابور قرب الناصرة، الذى تمثل نهايته جبال الجليل والذى لا يزيد ارتفاعه عن ٥٠٠ متر ولكن يبدو بارز الارتفاع بالنسبة لسهول مرج ابن عامر، ولذا لعب دورا حربيا هاما فى التاريخ، والمنطقة غنية بالمطر والينابيع والتربة الخصبة الناشئة عن تحلل العناصر البازلتية البركانية فى الجبال، ولذا فهضبة الجليل زراعتها خصبة بالنسبة لبقية فلسطين ولكنها بمثابة مقدمة الصحراء بالنسبة للبنان، ولقد كانت الجليل فى العهد الرومانى أكثر سكانا منها الآن، وكانت تسمى "بحر البيوت".

جبل الكرمل:

ينفرد هذا الجبل فى كل النظام الشامى باتجاهه العرضى القاطع للمحور العام: فهو يمتد لمسافة ٢٠ كم فى الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى محددا لمرج ابن عامر وكمقدمة أو امتداد لكتلة اليهودية الكبرى العالية مناظرا لذلك تل طابور بالنسبة لكتلة الجليل ويلاحظ أن اقتراب أو ابتعاد هذين العلمين هو الذى يحدد اتساع سهل مرج ابن عامر والسلسلة ليست بمرتفعة ولا تزيد عن ٥٠٠ متر، ولكن إليها يرجع الفضل فى تكوين المرفأ الجيد الوحيد فى فلسطين – خليج حيفا بفضل رأس الكرمل، والسلسلة مقدمة وامتداد لكتلة يهودية إلى الجنوب، ولكنها تنفصل عنها بوادى اللجون.

جبال السامرة:

مرتفعات فلسطين كتلة من التلال الجيرية الجافة شبه الجرداء، تمتد على طول اللد بعرض ٥٠ ــ ٦٠ كم وبارتفاع يتراوح بين ٦٠٠ ــ ١٠٠٠ متر والكتلة ممزقة بالوديان والتعرية عامة وهى فقيرة فى مجموعها فى المطر والنبات ولذا تبدو موحشة عامة وتحمل اسما عاما هو كتلة يهودية Judea وهى تنحدر فى مدرجات تدريجية غربا نحو سهور صارونة وفلسطين بواسطة حافة تليّة لطيفة تتراوح بين ٧٠٠ و١٠٠٠ قدم هى تلال شفالة (شفى الله) التى أصلها انكسارى، والتى نالتها التعرية بشدة لغزارة المطر للموقع الغربى، وقد غطاها هذا بتربة خصبة فكانت غنية بالزراعة والسكان، متباينة فى هذا مع الهضبة الخلفية نفسها على أن هناك فوارق محلية بين أجزاء الهضبة المائدية فهى تزداد فقرا فى المطر والنبات جنوبا، ولكن اتجاه الارتفاع والوعورة العام نحو الانخفاض جنوبا ينعكس فى وسطها، وعلى هذا تنقسم إلى عدة وحدات متمِايزة أولها جبال السامرة (السامرية) التى يحدها شمالا جبال الكرمل، وتمتد جنوبا بطول نهر الأردن وتنتهى عند رأس البحر الميت وهى تلال متوسطة الارتفاع معتدلة السطح لا تمنع الحركة بل كانت إقليم مواصلات تاريخى فيها كثير من الأودية التى تسهل الحركة: وادى الشعير الذى يصل نابلس بالسهل الساحلى، ووادى جريوت الذى يصل رام الله بالساحل، ووادى الصرار وتتبعه سكة حديد يافا ــ القدس. والسامرة وإن كانت أقل غنى من الجبل بالمطر وكان الرعى لذلك يسودها، فهى أغنى بدورها من كتلة الجليل التى تليها جنوبا.

جبال الخليل (أو يهودية):

تمتد بطول البحر الميت تقريبا من رأسه إلى شمال نهايته أى من منطقة مدينة القدس حتى منطقة مدينة الخليل، وعلى العكس من الاتجاه العام السابق، نجد

أن جبال الخليل تعود إلى الارتفاع عن مستوى سابقتها السامرة فتزداد وعورتها ويقل ماؤها وتمثل لذلك القلب الموحش الجدب الحقيقى فى فلسطين ومنطقة العزلة الحقة فيها، ولذا سميت قديما بصحراء اليهودية، وكانت فى أيام المسيحية الأولى قليلة السكان والبيوت كثيرة الرهبان والأديرة، وهى تزداد ارتفاعا جنوبا: فجبل الزيتون ـ الذى كان كثيفا بأشجار الزيتون، والذى يسمى أيضا جبل الطور ـ ويشرف على مدينة القدس لا يزيد عن ٨٠٠ متر بينما تصل الكتلة إلى أعلاها قرب مدينة الخليل (خليل الرحمن أو حبرون) إلى ١٠٠٠متر.

مرتفعات النقب:

النقب ـ أى الجنوب بالعبرية ـ يمتد من قاعدة البحر الميت وغزة حتى رأس خليج العقبة يحده وادى عربة شرقا وسينا غربا يحتل نصف مساحة فلسطين الكلية وهو مثلث هضبى متوسط الارتفاع، هو تدرج نحو الانخفاض لجبال الخليل، وسطحه غير منظم ولكنه أكثر استدارة وأقل حدة والواقع أن هضبة النقب أقرب فى تكوينها وبنيتها إلى الكتلة الغربية منها إلى الالتواء الألبى، ولكن النقب إذا كان أقل وعورة من الخليل، فهو أكثر طردا لأنه صحراء جافة أو شبه جافة لابتعاده عن البحر المتوسط واقترابه من صحراء العرب فيغطى بالكثبان لاسيما فى الجنوب ويقل السكان ويسود الرعى الفقير. ولكن هناك أجزاء فى الشمال تغطى بتربة من اللويس الغنية بالقوة إن لم يكن بالفعل، وهى التى عليها تعتمد مشاريع الاستعمار الصهيونى: إلا أن العامل العائق هو الماء لأننا الآن وصلنا إلى صحراء حقيقية.

ثالثا: الوادى والأخدود

بين السلسلتين الجبليتين الغربية والشرقية وادٍ طويل يمتد من أقدام الهضبة التركية وطوروس حتى خليج العقبة وكان الفرض السائد أن هذا الوادى برمته أخدود انكسارى كجزء من الأخدود الإفريقى العظيم، ولكن القطاع الشمالى منه

ليس إلا أخدودا كاذبا، إذ ليس له إلا حافة ــ هورست ــ واحدة فى الغــرب أمــا الجانب الشرقى فهضبى وقد أثبت دى فوماس حديثا أن الأخدود الانكسارى حقيقــة قاصرة على القسم الجنوبى بين حرمون وخليج العقبة، أما شمال ذلك فمجرد التواء مقعر، ولا يرتفع قاع الوادى عن قاع البحر كثيرا فى مجموعه، ومســتواه غيــر متجانس بل وليس الوادى متصلا باستمرار فهو مثلا ينقطع بين حمص وحماه كما يتلاشى جنوب ثنية نهر الليطانى ولكنه بوجه عام يقل عمقا شمالا، ولكــن هــذا لا يمنع من تعاقب الاختلافات فى ميل السطح المحلى مما يفسر تعاقب الاختلافات فى مسارات الأنهار: مرة إلى الشمال وأخرى إلى الجنوب وتنحدر الجبال الجانبية إلى الوادى فجأة بانحدار شديد، وفى الوادى بطبيعة الحال مياه الإقلــيم ولــذا تختطــه المجارى والأنهار تتجمع فى كل أجزائه وهى أطول وأهم أنهار الشام جميعا وتمتاز بأنها تتغذى إلى جانب المطر من مصدر هام آخر هو الينابيع الكثيرة؛ ولذا يغطــى الوادى بتربة رسوبية حديثة خصبة فى أغلب الأحيان ــ إلا من ســوء الصــرف: وسوء الصرف ظاهرة تفسد هيدرولوجية الوادى فتكثر فيه المستنقعات على طــور الأنهار الجارية أو البحيرات الملحة حيث تسكن المياه وبالتالى الملاريــا، ولــيس البحر الميت الداخلى إلا قمة لهذه الحالة، ويلاحظ أن الصرف فى الشــمال يأخــذ صورة أنهار جارية وإن حفت بها المناقع وقطعتها بعض البحيرات العذبة ــ بينما يأخذ فى الجنوب صورة بحيرات ملحية راكدة، ولا يرجع هذا الفارق إلــى تزايــد العمق جنوبا فحسب وإنما كذلك إلى غزارة المطر فى الشمال وتناقصه بسرعة فى الجنوب والواقع أنه لولا فتحات عرضية فرضت فرضا على المحور العــام لكــان الوادى كله منطقة صرف داخلى ــ لكان بحرا ميتا أكبر. من هنا تبدأ كل مشاريع الاستصلاح الحالية وتلك الفتحات العرضية هى التى مدت ساحل البحر المتوســط بالشام بأهم أنهاره ــ أنهار الوادى الأخدودى ولولاه لكانت كل أنهاره مجارٍ سيلية

قصيرة تافهة، ويحمل الوادى أسماء محلية متعددة، كلها تعكس حقيقته الجغرافية الغائرة.

سهل العمق:

منخفض التوائى واسع يأخذ شكل المعين، يصل إلى ٤٠ كم عرضا، ويعلو قاعه عن البحر ١٣٠ ــ ١٥٠ مترا ينحصر بين جبال الأمانوس غربا وجبال الكرد وسمعان شرقا، ولغزارة الأمطار بحكم الموقع الشمالى، يتحول الحوض إلى مجمع للمياه والأنهار: العاصى من الجنوب، ورافده النهر الأسود (قرة صو) ونهر عفرين من الشمال، ويلتقى الجميع فى مستنقع كبير ــ أو بالأحرى تتوسطه بحيرة العمق، ولقد كان هناك مشروع لتجفيف مستنقعات العمق وصرف سهل حمص معا، ولكنه توقف بعد اغتصاب لواء الإسكندرونة.

سهل الغاب:

يتمم سهل العمق جنوبا حوض نهر العاصى (الأورنط) أو بالأحرى الجزء الأكبر منه بعد حماة والذى يعرف بالغاب، ويمتد ٦٠ كم بين جبال العلويين غربا وجبل الزاوية شرقا بعرض يتراوح بين ١٠ ــ ٢٠ كم ولكن قاعه أعلى من قاع سهل العمق ١٨٠ ــ ٢٠٠ متر، ولهذا فهو أقل سوءً فى صرفه، ويبدو أنه كان بحيرة آخذة فى الصرف والتجفف وإنما يعجل الإنسان الآن بآخر مراحلها فى صورة مشروع الغاب الاستصلاحى، وطول نهر العاصى ٤٥٠ كم فهو أطول أنهار سوريا، منه ٥٠ كم فى لبنان، وهو ينبع قرب بعلبك ويصب فى خليج السويدية بعد أن يمر بثلاث مدن داخلية هامة ــ حمص، حماة، أنطاكية وقبل حمص يعترض النهر بحيرة حمص (أو القطينة) والتى نشأت نتيجة اعتراض سد عرضى بركانى من أطراف جبال العلويين للمجرى، وقد أفاد الإنسان من هذه البحيرة منذ أقدم العصور فى الرى، وهناك مشروع لزيادة التخزين فيها، وبعد

حمص يتلاشى الوادى حتى حماة ولهذا يرسم قوسه المشهور شرقا فى حركة حرة ويتكون فى وسطه شلال صغير عند الرستن هو شلال الغجر الذى يولد الكهربـاء لمدينتى حمص وحماة ويكون النهر هنا عميقا بالنسبة للهضبة فتظهـر "النـواعير" الضخمة لرفع مياهه للرى عند حماة، وبعد القوس يعود النهر إلى الوادى، وتبـدأ مستنقعات الغاب الحقيقية بنحو ٤٠ كم طولا و١٠ كم عرضا وقد تولـد مسـتنقع الغاب مباشرة لاعتراض كتلة بركانية مماثلة لتلك التى حبست بحيـرة حمـص ـ لمجرى النهر فى نقطة بين العلويين وجبل الزاوية، هى عتبة كركـور (قرقـرة). وبعدها يستمر النهر شمالا حيث يسمى السهل فى منطقة جسـر الشـغور بسـهل الروج، وله مشروع خاص للصرف، وفى النهاية يرفده من الشمال عفرين والأسود عند العمق، حيث ينثنى فى زاوية قائمة إلى البحر، مارا بين الأمانوس والأقـرع، والاستفادة من العاصى قليلة حتى الآن فى لبنان ولكنها على نطـاق واسـع فـى سوريا.

سهل البقاع:

وادٍ التوائى أيضا رغم وجود بعض الانكسارات فى هوامشه، ينحصر بـين جبال لبنان الغربية وجبال لبنان الشرقية وحرمون، وهو يمتد ١٢٠ كـم بعـرض يتراوح بين ٨ ـ ١٤ كم ويشمل أعالى العاصى والليطانى ومستوى قاعـه أعلـى بكثير من أعالى وأواسط الغاب: فتتراوح بين ٥٠٠ و١١٠٠ متر، فالجزء الشمالى منه شبه هضبى تقريبا، وهو يزداد عمقا ويقل اتساعا وخصبا نحو الجنوب، ونهر الليطانى ينبع عند بعلبك، التى هى بذلك أعلى نقطة بين الغـاب والبقـاع (١١٠٠ متر) وبذلك خط التقسيم بين العاصى والليطانى، وطول الليطانى ١٦٠ كم، ويظـل متجها جنوبا حتى مرجعيون حيث يكون واديا عميقا شديد الانحدار ثم بلدة المطلبة على الحدود اللبنانية الفلسطينية ثم يستفيد من فتحة بين هضاب لبنان وجبل عامـل فينفذ منه إلى البحر شمال صور حيث يسمى القاسمية وإلا لصـار إلـى صـرف

دخلى، والنهر فى كل مجراه لبنانى، فهو نهر لبنان بالضرورة، كما أن الجزء الأكبر منه وادى البقاع وادٍ لبنانى، ولكن الوادى يفيد قليلا من النهر فى الرى، لانخفاض قاعه بينما هو كثير الأخطار لشدة فيضاناته مما يغرق كثيرا من القرى.

الغور:

ينتهى سهل البقاع جنوبا بأرضية مرتفعة نوعا تفصلها عن تتمة الوادى، الذى يأخذ اسم الغور ويبدأ كأخدود انكسارى حقيقى، والغور يشمل حوض الأردن والبحر الميت، ولكن الأخدود يستمر جنوبه إلى خليج العقبة أى بطول ٢٦٠ كيلو مترا وعرض ٣ ـ ٥ كم، ويبدأ الغور من الشمال فى مستوى سطح البحر تقريبا ثم ينخفض إلى ما تحته بسرعة حتى يصل سطح البحر الميت إلى ٣٩٢ مترا تحت سطح البحر، ولكن الأخدود يعود فيرتفع ثانية فى طريقه إلى خليج العقبة، وليس الغور فقط هو الأخدود الحقيقى فى النظام الشامى ولكنه أيضا منطقة الصرف الداخلى بالضرورة، وإذا كانت تشغله الآن بضعة بحيرات ونهر، فإنه كان قديما تحتله بحيرة واحدة داخلية هذه بقاياها، وقد خلفت مراحل تفريغ هذه البحيرة القديمة شواهدها على شواطئ المنخفض: مجموعة من المدرجات البحرية المتراصة إلى ارتفاع ٢٤٠ مترا عن سطح البحر، بل لازالت التغيرات فى منسوب البحيرات الحالية مستمرة كما هو الحال فى البحيرات الأرمينية فهو آخذ فى الارتفاع لزيادة الأمطار فى فلسطين فى النصف قرن الأخير، ويبدأ الغور بسهل الحولة الذى يمتد بين بلدتى بانياس السورية والمطلة الفلسطينية وبين بحيرة الحولة، وتربته الرسوبية من مفتتات بازلتية ولذا كانت من أخصب أجزاء فلسطين، وفى السهل يبدأ نهر الأردن ويبلغ طوله ٢٥٠ كم ويعتبر بذلك من المناطق القليلة التى تعرف فيها فلسطين المياه الجارية، يبدأ من اجتماع ثلاثة روافد تنبع من كتلة حرمون وهو الحاصبانى وبانياس واللدان، فينبع الحاصبانى بالقرب من بلدة بانياس فى سوريا وبعد أن يتكون النهر يتجه جنوبا ليكون بحيرة الحولة، وهى صغيرة مثلثية ضحلة عزبة يغطيها البردى الكثيف فكانت مشتلا للبعوض والملاريا، وهى ترتفع عن

سطح البحر (٢ متر فوقه)، وقد جفف معظمها أخيرا وبعدها يسمى النهر بالأردن وينحدر بشدة نحو بحيرة طبرية (أو بحيرة الجليل) إلى مستوى ٢٠٩أمتار، وهى بحيرة واسعة عميقة وماؤها أقل عذوبة من الحولة وبها كثير من الأسماك، وقد تحددت مواضع كل من البحيرتين بالسدود التى تعترض النهر من آثار الطفوح البازلتية بالمنطقة، ويخرج النهر من بحيرة طبرية عند بلدة سمخ من فتحة ضيقة منحدرة تستغل لذلك فى توليد الكهرباء، وبعدها يسمى النهر بالشريعة أى المتدهور ويمتاز بكثرة تعرجاته وانحناءاته رغم عمق واديه حتى تغطى شواطئه بالأثل والصفصاف والنباتات المائية، وحتى ليصبح الجزء الجنوبى منه "كالأراضى الرديئة".

وعمق الوادى يحول دون الاستفادة الواسعة من مياهه فى الرى، كما لا يستفاد منه فى الملاحة لقلة عمقه هو، ولا قيمة بشرية للوادى فهو يخلو من المدن والقرى لشدة الحر فيه لعمقه وعزلته الداخلية، ولكن على هوامشه توجد بعض السهول الهامة مثل سهل بيسان وسهل أريحا فى الغرب.

وللأردن روافد هامة لا سيما من الهضبة الشرقية الأغزر مطرا: فيأتيه اليرموك من هضبة حوران جاريا فى سوريا فى مناطق خربة كانت عامرة قديما، ثم يعترض مجراه شلال اليرموك الذى يناهز ٣٠ مترا، وبعد رحلة ٤٠ كم يصب فى الأردن عند جسر المجامع، وكان اليرموك يستخدم قديما للرى والزراعة ولازالت بقايا القنوات المرفوعة التى يصل بعضها إلى أطوال كبيرة كانت تغزى حوران. أما الآن فوادى اليرموك طريق هام للمواصلات بينما شلالاته مصدرا للطاقة الكهربائية، أما نهر الزرقاء فينبع من قرية الزرقا شمالى عمان ويصرف مياه مرتفعات شرق الأردن ويستخدم واديه فى المواصلات، أما فى الغرب فيأتى نهر جالود مارا من غرب بيسان، أما البحر الميت (بحر لوط) فبحيرة طولها نحو ٧٥ كم ــ أى مثل بحيرة جنيف ــ وعرضها ١٥ كم ومساحتها فوق الــ ١٠٠٠كم (١٠٥٠) ويقع سطحها على مستوى ٣٩٤ مترا تحت سطح البحر ورغم أن البحيرة

مخزن يتلقى كل مياه الأردن بروافده وأمطار حوض البحيرة إلا أن شدة الحـرارة تؤدى إلى شدة البخر وتزايد الملوحة حتى لتصل نسبة الأملاح إلى خمس أمثالها فى البحار، ولئن كان هذا مصدر ثروة معدنية حاليا فإنه وأد الحياة العضوية فى ميـاه البحر وعلى جانبيه: فالبحر يستمد اسمه من انعدام الأسماك فيه، كما أن شـواطئه سبخات ومناقع ملحية لا قيمة لها، ولذا كانت غير مأهولة، هذا ويصب فى بحيـرة البحر الميت نفسها عدة روافد صغيرة لا سيما من الشرق أهمها: الموجب وينصفه تقريبا، ثم وادى الكرك إلى الجنوب من الموجب ويصب فى البحر بـدلتا صـغيرة تسمى غور المزرتمة أو اللسان، وأخيرا يأتى وادى الحسا فى طرف البحر الجنوبى الأقصى مكونا منطقة تعرف بغور الصافى، على أن هناك وادى عربة الذى يـأتى من الجنوب متمما الأخدود إلى العقبة، وهو يبدأ عند البحر الميت عند سطح البحر، ولكن على بعد ٨٠ ميلا منه يكون قد وصل إلى مستواه، وبعدها يرتفع حتى ينتهى بهضبة تبلغ ١٠٠٠ متر تقريبا.

رابعا: المرتفعات الشرقية

توازى المرتفعات الغربية امتدادا ولكن لا تناظرها علوا فهى عمومـا أقـل ارتفاعا وأكثر تقطعا حتى إن بعض أجزائها لا يكاد يبين علـى سـطح الهضـبة السورية المجاورة ولأن موقعها داخلى فى ظل المطر كانت أجف بكثير وأقل نباتا من الغربية، أعلى فى الشمال منها فى الجنوب، ولكنها تختلف عن السلسلة الغربية فى نقطة هامة، فقطاعها الجنوبى أعلى فى مجموعه من نظيره فى السلسلة الغربية مما كان له أثر مناخى وبشرى محلى هام جدا، والسلسلة كلها تنحدر بعنف طبعـا إلى الوادى والأخدود وبالتدريج إلى البادية:

جبال الكرد (كرد داغ):

توازى أمانوس، ويفصلها النهر الأسود، ويحدها شرقا نهر عفرين الذى ينبع من الشمال من هضبة عنتاب ثم ينثنى غربا ليلتقى بالأسود فى سهل العمق، طولها

٤٥ كم وعرضها ٢٠ كم، فهى أقصر من أمانوس، كما أنها أقل ارتفاعا، تزداد انخفاضا جنوبا، وليست السلسلة إلا امتدادا للجبل الأقرع، ويخترقها ممر واحد هو ممر راجو الذى تتبعه سكة حديد حلب استنبول.

جبل سمعان:

يقع إلى الشرق من كرد طاغ ونهر عفرين، آخذا نفس المحور ولكنه أقل ارتفاعا بكثير ويحده شرقا نهر قويق الذى ينبع من هضبة عنتاب أيضا.

جبال باريشا والأعلى والدويلة:

يتمم خط جبال الكرد جنوبا كتلة من الجنوب المتوازية الصغيرة المتوسطة الارتفاع هى باريشا والأعلى والدويلة، ويفصلها عن الكرد منخفض العمق بينما يفصلها جنوبا منخفض الروج وسهل إدلب وذلك عن كتلة جبل الزاوية.

جبل الزاوية:

يمتد جنوب أدلب وشرق العاصى، وهو أقرب إلى الكتلة العريضة المتوسطة الارتفاع وهو وعر قليل الممرات، وبعده جنوبا تنقطع السلسلة مسافة طويلة فى ثنية العاصى حتى نصل إلى جبال لبنان الشرقية.

جبال لبنان الشرقية أو الداخلية:

تمتد موازية لجبال لبنان الغربية من جنوب حمص حتى وادى بردى وسهل الزيدانى وهى أكثر اتساعا وتعقدا من جبال لبنان الغربية، وتبدأ فى الشمال والجنوب فجأة وبلا تدرج، ولكنها أقل ارتفاعا من لبنان الغربية: ٢٥٠٠ متر فى المتوسط وقمتها العليا فى وسطها: طلعة موسى ٢٦٠٠ متر، وقمم هذه السلسلة تؤلف الحدود السياسية بين سوريا ولبنان ــ فيما عدا وادى الزيدانى السورى. وتنتهى الجبال جنوبا بانكسار عرضى حولته التعرية المائية إلى خانق ضيق يحتله

وادى الزيدانى وممر سرغايا وواى بردى، وتعتبر جبال بلودان النهاية الأخيرة لجبال لبنان الشرقية، وممر سرغايا ووادى القرن يقابلان ممر ظهر البيدر فى لبنان الغربية ويخترقهما خط دمشق ـ بيروت الحديدى والبرى، ومطر جبال لبنان الشرقية قليل لا سيما على السفوح الشرقية، ولذا لا تظهر الينابيع فى الجبال، بل تمتص الأرض معظم أمطارها لتعود إلى الظهور على طول القاعدة الشرقية للسلسلة فى عدد من الجداول التى تجرى شرقا إلى صحراء الشام لتنتهى فى أحواض محلية، وأهم هذه الجداول بردى والأعوج.

جبل الشيخ (حرمون):

على امتداد جبال لبنان الداخلية، بل يعتبره البعض الجزء الجنوبى منها، يمتد من وادى بردى حتى القنيطرة وبانياس فى سوريا ووادى الحصبانى فى لبنان، ويتماز بأنه أعلى من جبال لبنان الداخلية، إذ يصل إلى ٢٨٠٠ متر، بل هو أعلى أجزاء خط الجبال الشرقية كما أنه أعلى من جبال لبنان الغربية فى عروضه، وهو لذلك أغزر مطرا، إنما على سفوحه الغربية، حيث تكثر الينابيع ويتأصل نهر الحصبانى، أما سفوحه الشرقية فجرداء عارية، وجبل الشيخ يمثل الحدود السياسية بين سوريا ولبنان، وجزء كبير منه غير مسكون إلا بالدب البرى وابن آوى والذئاب.

هضبة الجولان وحوران:

تنتهى حرمون فى الجنوب فجأة، تاركة مكانها لهضبة أو سهل مرتفع يمتد ٧٠ كم حتى اليرموك، حيث تنتهى وتعود الأرض إلى الارتفاع فى خط مرتفعات شرق الأردن، وتبدأ تظهر هنا آثار الظاهرات البركانية الواسعة الانتشار إلى الجنوب الشرقى من دمشق، فقد غطت اللافا البازلتية هذه الهضاب التى تحللت إلى تربة حمراء أو حمراء مسودة، تعتبر فى غاية الخصوبة، ويمكن أن تتحول إلى منطقة إنتاج عظيمة إذا توفرت المياه، كما كان الحال أيام الرومان، وتنقسم هذه

الهضبة إلى قسمين: الجولان فى الشمال والغرب وهى حلقة وصل هامة بين الساحل والداخل وبين سوريا الوسطى والجنوبية وكانت موطن الحضارة الآرامية والغساسنة، ثم هناك حوران فى الجنوب والشرق ٤٠٠ ــ ٧٠٠ متر، وكانت حقلا من أهم حقول روما، وتعتمد على المطر وأوديتها تصرف إلى اليرموك، ويمكن استغلال مياهها الباطنية فى الزراعة.

جبال عجلون:

بعد انخفاض الجولان ــ حوران النسبى تعود الجبال على طول شرق الأردن بارتفاع متوسط ١٠٠٠ ــ ١٢٠٠ متر أى على من مرتفعات فلسطين الغربية مما كان له أكبر الأثر فى الحياة المائية والبشرية، والسلسلة لوفرة أمطارها كثيرة الأودية، هذه التى تنتهى بالأخدود وتمزقها هى إلى كتل متتالية، فتبدأ السلسلة فتصل إلى ١٢٥٠ مترا ولذا كانت غزيرة المطر والأحراج والغابات والمراعى وكانت أخصب أجزاء سلسلة شرق الأردن كما قامت بها أكبر مجموعة من القرى فى شرق الأردن.

جبل البلقاء (السلط والصلت):

تنحصر بين وادى الزرقا ووادى الموجب الذى يصب فى وسط البحر الميت تقريبا ويعتبر من أعمق وديان الشام، والكتلة، أقل ارتفاعا من عجلون فلا تزيد عن ٩٠٠ متر، وهى لذلك أقل مطرا وخصبا وتذكر نوعا ما بجبال الخليل على الضفة الغربية، ولقد كانت البلقاء مع عجلون تعرف فى الماضى ببلاد جلعاد التى كانت أكثر سكانا وعمرانا وكان من أشهر مدنها Gerasa وهى حرش الحالية.

جبال الكرك (مؤاب):

إلى الجنوب من وادى الموجب حتى وادى الحسا الذى يصب عند الطرف الجنوبى للبحر الميت وهى لا تزيد ارتفاعا عن البلقاء ولكنها أكثر خصبا لوجود رقع من التربة الحمراء ولذا تكثر فيها الأودية الخصبة.

جبال الشراة:

إلى الجنوب من وادى الحسا حتى رأس خليج العقبة تعود السلسلة الجبلية إلى الارتفاع فلا تقل عن ١٢٠٠ مترا وتزداد كلما اتجهنا جنوبا حتى تصل أحيانا إلى ١٨٠٠ مترا وتصبح بذلك أعلى أجزاء شرق الأردن، وهى تستمر حتى رأس خليج العقبة باسم جبال الشراه عامة وبعدها تتصل بجبال السراه فى مدين الحجاز، وقد كانت تمثل فى الماضى بلاد الأدوميين وهى تنتهى شرقا إلى صحراء الحمد، وغربا يحدها وادى عربة. وتنقطع السلسلة بأودية عديدة من الشرق أهمها وادى موسى فى الوسط وهو الذى كانت تقوم فى أعلاه مدينة البتراء (سلع - الرقيم) التى كانت تسمى "تدمر الجنوب". وهذا الوادى العميق يقسم السلسلة إلى قسمين: جبال الطفيلة فى الشمال بين وادى الحسا ووادى موسى وتتراوح حول ١٢٠٠ مترا، ولا تخلو من الأحراج، ثم جبال رم فى الجنوب، وقد يقصر عليها البعض اسم جبال الشراه، وتتراوح بين ١٢٠٠ و١٥٠٠ متر وتصل أحيانا إلى ١٨٠٠ وتصبح بذلك أعلى أجزاء شرق الأردن. ولكن الظروف الصحراوية تبدأ هنا تسود بوضوح، حتى تصبح قاسية حول خليج العقبة فى منطقة الحصمة، التى يتوقف مستقبلها لذلك على استغلال وتنمية ميناء العقبة.

خامسا: الهضبة الشرقية

إلى الشرق من خط الجبال الداخلى وحتى الحدود السياسية وبعدها تمتد هضبة مترامية تنحدر تدريجيا نحو الشرق نحو الفرات بوجه عام، ولكن سطحها ليس متجانسا مستويا، بل تتدفع عليه بعض المرتفعات الداخلية، أو تستقر فى بطنه بعض المنخفضات والسهول المحلية الداخلية، ومن مجموع هذه المرتفعات والمنخفضات يتمزق سطح الهضبة إلى عدد من الأحواض والوحدات، وتتعقد الصورة نوعا فى جوار الجبال الشرقية. ويمكننا أن نتتبع الهضبة من الغرب والشمال أولا ثم نتجه شرقا، فنجد الوحدات الآتية:

سهول أو هضبة حلب أو الشمال:

يحدها غربا جبال سمعان ومجموعة باريشا وأخواتها وجبل الزاوية ومن الشمال أقدام الهضبة التركية ومن الشرق نهر الفرات ومن الجنوب بعض التلال البركانية مثل جبل الأحمص وشبيت وهى تحتل سدس مساحة سوريا وهى سهول بسيطة التموج كلسية، لا يزيد ارتفاعها حول حلب عن ٤٠٠ متر، ويختطها نهران رئيسيان من الشمال إلى الجنوب نابعان من هضبة عينتاب: فى الغرب نهر قويق الذى تقع عليه حلب وينتهى ببحيرة المتخ المستنقعية الملارية، ولا يزيد طوله عن ١٥٠ كم كما يكاد يجف صيفا، وكان يمد مدينة حلب بالمياه والرى حتى حوله الأتراك واستغلوا كل مياهه فى أراضيهم وإلى الشرق من نهر فويق نهر بيد مونتى. آخر مواز نهر الذهب الذى ينتهى بالمثل إلى مستنقع هو سبخة الخيول شرق سبخة المتخ، وتقسم التلال الداخلية السهل الهضبى إلى عدة سهول مثل سهل إدلب بين بريشا والزاوية، وسهل حلب نفسه، وسهل أعزاز، وسهل منيح غرب الفرات، والسهول ككل صالح نصفها للزراعة ولكن الماء مشكلتها فهى لا تستطيع

الإفادة من مياه الفرات لانخفاضها هى عن مستواه هو بكثير، ولهذا فهناك مشروع ضخم لرفع مياه الفرات ونقلها إلى حلب وتصفيتها للشرب.

هضبة حماة ــ حمص:

إلى الجنوب والغرب من سهول حلب، ومنفصلة عنها بكتلة جبل الزاوية، تمتد سهول أو هضاب حماة ــ حمص التى يتوسطها حوض العاصى الأوسط، وهى لا تختلف عن سهول حلب فى متوسط ارتفاعها، وتتكون مثلها من صخور كلسية تختلط بتأثيرت بازلتية فى الغرب، وهذه هى الهضبة التى تتطوح غربا حتى تقطع استمرار سلسلة الجبال الشرقية بين جبل الزاوية وجبال لبنان الشرقية.

منخفض دمشق:

إلى الشرق من ملتقى لبنان الداخلية بحرمون يتحول سطح الهضبة الشرقية إلى حوض منخفض تحتله واحة دمشق، فالجداول الصغيرة التى تظهر عند أقدام السلسلة متعددة أهمها بردى والأعوج وقد كون كل منهما من مفتتاته الجبلية واحة ذات تربة خصبة تنتهى شرقا إلى الصحراء بمنافع ملحية، فكون بردى غوطة دمشق الفيحاء طولا ٣٠ كم وعرضها ١٠ كم ويقع قاعها المستوى على ارتفاع ٧٠٠ متر فوق سطح البحر وتحيط بها المرتفعات من كل الجهات وتنقسم واحة دمشق إلى قسمين: ثلث غربى هو الغوطة التى تتوسطها المدينة وتختص بالبساتين والفاكهة، وهى تنقسم بدورها إلى الغوطة الغربية والشرقية بالنسبة للمدينة ثم هناك الثلثان الشرقيان باسم المرج، وتختص بالحقول والحبوب وتنتهى شرقا بمستنقعات بحيرة العتيبة الذى يصب فيها نهر بردى وتملأها آجام القصب أما نهر الأعوج إلى الجنوب فكون واحة أصغر من واحدة دمشق، هى غوطة الكسوة الزراعية وينتهى ببحيرة ملحية ينتشر عليها القصب هى بحيرة الهيجانة، ويفصل الغوطتين جبل المانع، وبعض الجغرافيين يعتبرهما غوطة واحدة، تنتهى أخيرا بقيام جبل حرمون.

جبل الدروز:

إلى الجنوب الشرقى من دمشق وبعيدا عنها كثيرا ــ فى أقصى الحدود الجنوبية لسوريا ــ تقوم كتلة جبل الدروز الاندفاعية، على شكل بيضاوى طوله ١٣٥ كيلو مترا وعرضه ١٢٠ كم، وتنحدر عامة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، والكتلة مع حوران تمثل شذوذا تركيبيا خاصا فى كل الشام، فهى كتلة بركانية تماما ومركز الظاهرات البركانية فى كل المنطقة هو قبة بازلتية تعلوها القمم البركانية والفوهات الجامدة، مما يضاعف الارتفاع، ولذا تصل قمة تل فينة إلى ١٨٠٠ متر وتل قليب (كليب) إلى ١٧٠٠ متر، والتضاريس فى غاية الوعورة والصعوبة لكثرة الجلاميد؛ ولذا كانت معقلا منيعا للالتجاء، ونظرا للارتفاع ترتفع الأمطار رغم الموقع الداخلى، وهذا يفسر إمكانيات الزراعة فيه وكثرة السكان فى العهد الرومانى، وإلى الشمال الشرقى والغربى من جبل الدروز يمتد غطاءان من اللافا البركانية هما الصفا واللجا، فهما جارتان (لابتان) ليس عليهما تربة بمعنى الكلمة ولا يكاد يكون بهما سكان، فالصفا فى الشرق أكثر بركانية وصحراوية، وليست الصفا خالية تماما من الإنسان فقد أصلحت بعض مواطنها وتزرع قليلا وبها بعض بقايا من المدن الرومانية، أما اللجا فتنتشر حتى مشارف دمشق على شكل موجات داكنة، تنقطها حفر وكهوف لافية كانت تتخذ ملاجئ منها هذا الاسم ــ ولازال يأوى إليها الخارجون عن القانون وقطاع الطرق.

جبال البادية (بادية الشام):

من مشارف الجبال الشرقية وفى عروض دمشق ــ حمص تخرج ألسنة جبلية ترسم خطا متقطعا متجها إلى الشمال الشرقى أى موازيا تقريبا للحدود السياسية الجنوبية لسوريا، منتهية عند دير الزور على الفرات، ويبدأ هذا التقاطع بسلسلة القلمون ــ شرق دمشق وهى التوائية رقيقة ضيقة ولكنها تتفرع كأصابع اليد

فى ٣ سلاسل: الجبل الغربى ويلتصق بجبال لبنان الشرقية، ثم الجبل الوسطانى، ثم الجبل الشرقى أو السلاسل التدمرية وكلها تتراوح بين ١٢٠٠، ١٨٠٠ متر، وكلها فقيرة فى النبات ويسودها الرعى، وتلتقى سلاسل القلامون فى الشمال بالخط القاطع الآخر الذى يبدأ فى عرض حمص ويجرى شمال تدمر. وهو يتألف من كتلتين. فى الغرب جبال البلعاس وهى أكثر ارتفاعا (١٢٠٠ ــ ١٣٠٠ متر)، تغطيها بعض الأحراج والغابات، وفى الشرق جبل بشرى فى غرب دير الزور وهو أقل ارتفاعا ٧٠٠ متر، هذا هو القاطع الذى يعتبر لسانا من الخطوط الجبلية الرئيسية فى اللفانت والذى سيستمر عبر الفرات ولكنه يضعف باضطراد وهو يتوسط هضبة بادية الشام التى تشمل ثلث أراضى سوريا الداخلية ويقسمها إلى قسمين: الشامية فى الشمال وهى أقل ارتفاعا وأكثر أودية وتنوعا فهى سهول، والحمادة فى الجنوب وهى أكثر ارتفاعا وصحراوية، والمياه فى بادية الشام عامة قليلة، وأهمها كبريتى مثل تدمر والسخنة وأهم واحاتها تدمر الواسعة المنخفضة الرسوبية التى تسقى من نبع كبريتى غزير أعطى موقعها أهمية كبرى كمحطة صحراوية.

سهول الفرات:

تمتد على طول النهر على الجانبين خاصة بين مسكنه والبوكمال، على ارتفاع حوالى ٢٠٠ متر فهى من أخفض أراضى سوريا ويصل عرضها أحيانا إلى ١٥ كم.

سهول الجزيرة:

كل المثلث المحصور بين الفرات والدجلة، وتنحدر إلى الفرات وهى سهول رسوبية حديثة منبسطة تكونت تربتها من روافد الخابور والبلخ، ويندفع على سطح السهول خط جبلى هو امتداد متدهور لجبال بادية الشام، فنبدأ بجبل عبد العزيز

غرب الخابور متدهور غرب الحسجة على الخابور، ويمتد ١٠٠ كم، وقمتـــه ٩٠٠ متر ـــ قمة الغارة، وعبر الخابور جبل صغير بركانى منفرد هو جبل كوكب. ثـــم شرقا يقع جبل سنجار، ولكن لا يقع منه فى سوريا إلا طرف صغير والباقى فـــى العراق، وهذا الخط الجبلى فى مجموعه يقسم سهول الجزيرة إلى قسمين فى الشمال الجزيرة العليا وهى شديدة الخصب؛ ولذا لعبت دورا تاريخيا هاما، وفى الجنـــوب سهول رقيقة التربة قليلة الخصب.

المراجع

1 – R. Blanchard, L' Asie Occidentale, Géog. Universelle, t. VIII, 1929.

2 – P. Birot & J. Dresch, La Méditerranée et le Moyen- Orient, Paris, 1956.

3 – L. Dubertret & J. Weulersse, Manuel de Géog. Syrie, Liban etc., Beyrouth, 1940.

4 – W.B. Fisher, The Middle East, Lond., 1950.

5 – L. de Vaumas, "Structure, du Proche Orient," Bull. Soc Géog. D'Egypte, t. XXVI, 1953.

6 – J. Eddé, Géog. Du Liban et de la Syrie, Beyrouth, 1941.

٧ ـــ بسام كرد على، أنور شاكل، مصطفى الرفاعى، جغرافية الـــبلاد العربيـــة. دمشق ١٩٤٩.

٨ ـــ داود صليبا، مصطفى الحاج إبراهيم، العالم العربى، دمشق، ١٩٥٨.

الزراعة فى سوريا[1]

تلعب الزراعة فى الاقتصاد السورى الدور الرئيسى، فهى الأساس المـادى للمجتمع فنحو ٧٠% من السكان يعتمد عليها مباشرة، يضاف إليهم نسبة أخـرى تعتمد عليها بشكل غير مباشر، ويعمل فيها نحو ٢ مليون من مجموع السكان العاملين، أى أكثر من عدد المشتغلين بكل بقية الحرف الأخرى مجتمعة، وهى تقدم نحو نصف الدخل القومى وحدها، كما تمثل عماد التجارة الخارجية: فتقدم ¾ مجموع الصادرات، كما تمثل أساس معظم الصادرات الصناعية: ولكى نحلل هذه الحرفة الحيوية سنعالجها من ثلاث زوايا كبرى هى أولا استغلال الأرض أى صراع المحاصيل على رقعة الأرض الزراعية المتاحة ثم ثانيا ضوابط الزراعة أى العوامل الجغرافية والبشرية التى تدخل فى تحديدها وتوزيعها، وأخيرا وثالثا نعرض للمركب الزراعى Crop complex أى مجموعات وعائلات المحاصيل جملة وتفصيلا.

استغلال الأرض Land use

المساحة الزراعية

	المساحة الكلية	القابل للزراعة	المزروع	قابل للزراعة غير مزروع	مراع	غابات	صحارى وجبال
بالهكتار	١٨,٣ مليون	٦,٦ مليون	٣,٢	٣,٤	٦,٤ مليون	٠,٥	٤,٨
بالفدان	٤٤ مليون	١٥,٩ مليون	٧,٧	٨,١	١٥,٣ مليون	١,٢	١١,٥
بالهكتار			٣,٥	٣,٨			
بالكم^2	١٧١,١٠٤	٣٣,٥٠٠	٣٢,٨٦٠	؟	٣٦,٩٣٨	٤٠٣٢	٧٣,٧٣٣
%	١٠٠	٢٠	٢٣,٣	؟	٢١,٩	٢,٢	٤٢,٦

[1] مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – المجلد(٩) – العدد(١) – ديسمبر ١٩٦٥م.

فقد نمت مساحة الزراعة فى سوريا فى الفترة الأخيرة نموا كبيرا ـ يكاد يكون ثوريا. ففى سنة ١٩٤٦ كانت المساحة المزروعة لا تزيد عن ٢,٣ مليون هكتار، ولقد بلغت بعد ذلك (١٩٥٥) ٤ ملايين هكتار.

ولكن مع ذلك تعتبر هذه المساحة ضئيلة بالنسبة للمساحة العامة والمساحة القابلة للزراعة. فأولا تزيد مساحة بادية الشام عن نصف مساحة البلاد (٩٠ ألف كم[٢]). وكل إمكانيات البادية أن ثلثها (٣٣ ألف كم[٢]) مراعٍ للبدو. أما فى النصف الباقى من سوريا فتحتل الغابات والأحراج والمناقع والمراعى الحدية المطر نسبة كبيرة بحيث لا يتبقى صالحا وقابلا للزراعة سوى ٣٣,٣% من كل مساحة سوريا أى الثلث، لكن المزروع فعلا هو ١٣,٣% من كل مساحة سوريا أى نحو ١/٧ المساحة الكلية (ويعطى البعض رقما أكبر ١٧%)، بينما القابل للزراعة ولكن لا يزرع فعلا هو ٢٠% أى ١/٥ المساحة الكلية، فالمزروع فعلا هو ١/٧ المساحة الكلية، ويناهز ٤ ملايين هكتار أو أقل قليلا، أو ما يزيد زيادة ملموسة عن مساحة المزروع فى مصر مثلا، وإمكانيات التوسع تزداد نوعا عن مساحة المزروع فعلا.

المساحة المحصولية

لكن العبرة ليست بالمساحة المطلقة، فالغالبية العظمى من هذه المساحة يزرع زراعة واسعة، ويعتبر أراضى حدية، والسبب فى هذا نوع الزراعة. فالغالبية العظمى من الزراعة السورية زراعة مطرية (بعلية) لا زراعة رطبة (رى مروية مسقية). والأولى لا تزرع إلا زراعة واحدة فى السنة، ففى ١٩٤٦ حين كان مجموع المزروع ١٣,٣% من المساحة الكلية لسوريا كانت نسبة البعل ١١,٧%، والسقى ١,٦%. ولا تزيد نسبة زراعة الرى من مجموع المزروع حتى اليوم عن العشر تقريبا، ولكن البعض يقدره بنحو ١/٧ المزروع، والبعض يعطى ١١ ــ ١٢% من مساحة المزروع.

ضوابط الزراعة

من الواضح أن تحديد مساحة ونوع الزراعة يأتى نتيجة لعدة ضوابط أو عوامل محددة Limiting Factors منها الطبيعى والبشرى.

المناخ

يمكن اعتبار المطر المسئول الأول عن تحديد الزراعة السورية فالمطر فصلى، شتوى، بحيث تحددت المحاصيل السائدة بالمحاصيل الشتوية التى هى غالبا محاصيل غذائية أهمها الحبوب، أما المحاصيل الصيفية النقدية الهامة فإمكانياتها محدودة ومتوقفة على الرى وتوفيره، ثم إن هذا المطر الشتوى شديد التفاوت والتذبذب غير مضمون فى معظم جهات سقوطه مما يجعل الاقتصاد الزراعى وكل ما يترتب عليه ويرتبط به بعيدا عن الاستقرار. وأخيرا فهذا المطر الفصلى المتذبذب قليل الكمية فى مجموعه، ففى أكثر من نصف الأرض السورية نجد نقصا دائما فى التساقط الفعلى، ويضاعف من هذا النقص درجة الحرارة المرتفعة عامة والرياح الصحراوية خاصة فالحرارة فى سوريا أعلى منها بوجه عام فى حوض البحر المتوسط فالبخر الشديد يقلل من فاعلية المطر R. Effectiveness ويقدر البعض فاقد المطر بالبخر فى سوريا بنحو ٤/١ كمية المطر المتساقط، بينما يقدرها البعض الآخر بنحو النصف!.

أما من حيث التوزيع فيتحدد نتيجة التفاعل بين المطر والتضاريس. فالمطر الفصلى فالمحدود يقل من الساحل إلى الداخل بسرعة وانتظام تحت تأثير الجبال الغربية. وهناك لذلك عدة نطاقات مطرية متوازية تقريبا لكل منها شروطه الزراعية.

ـ فعلى الساحل حتى سفوح الجبال الغربية شريط عرضه ٦٠ كم فى المتوسط يستمر فى الداخل كقوس موازٍ للحدود التركية حتى الزاوية الشمالية

الشرقية ــ رأس البط. متوسط المطر فى هذا النطاق ٦٠٠ ــ ٩٠٠ مم، ومساحته ١٠ % من مساحة سوريا، المطر كاف وفصل الجفاف قصير، ولكن لا بأس من الرى فيها.

ــ الجبال الغربية، المطر غزير والثلج عدة شهور مما يجعلها "خزانات للمياه". المتوسط + ١٠٠٠مم، والمساحة ٢%، لا حاجة إلى الرى. يتوزع فى جبل النصيرية ولبنان والشيخ.

ــ يلى ذلك إلى الداخل نطاق السهب السورى الخالص. مطر الشتاء ٥٠٠ ــ ٢٥٠مم، تكفى للزراعة الشتوية لاسيما الحبوب، لكن لابد من الرى لضمان المحصول الشتوى، ولتوفير المحصول الصيفى، المساحة ٤٠% من سوريا.

ــ يلى السهل الصحراوى المحيط، المطر ٢٥٠ ــ ١٠٠مم لا يكفى للزراعة الجافة كالحبوب، وإنما يكفى للمراعى، تقوم بعض الواحات كدمشق والنبك المساحة ٢٠% من سوريا، لابد من الرى.

ــ الصحراء (الحمد). المطر ــ ١٠٠ مم، المساحة ٢١% من سوريا. الرى مستحيل. المصدر الوحيد للزراعة هو الماء الباطنى.

المياه الباطنية

اتجهت الزراعة السورية منذ الرومان إلى استكمال نقص المياه السطحية بالباطنية، وهناك شبكة قديمة كاملة من القنوات والمجارى الباطنية الصناعية كالفجارات والكهاريز، لاسيما فى المناطق المنحدرة، وكثير منها كبير التصريف، ولقد أهملت معظم هذه الشبكة وانطمرت أو انهدمت من الزلازل ولكن عادت الزراعة الحديثة إلى استعمال بعضها، وهى تدل على ثروة مائية جوفية هامة، وهناك رأيان متعارضان فى طبيعة وأصل المياه الباطنية فى سوريا فهناك نظرية عن مياه باطنية غزيرة مصدرها أمطار مرتفعات أرمينيا الغزيرة التى تتسرب

وتتحرك من الشمال إلى الجنوب تحت أعماق الصحراء السورية أما النظرية الثانية – نظرية ديبرتريه Dubertret – فتقول بأصل محلى موضعى للمياه الباطنية السورية، بمعنى أنها تنشأ عن الأمطار المحلية القليلة على الصحراء السورية، ومعنى ذلك أنها محدودة غير كافية، ويؤيد هذا أن كمية المياه الباطنية ونوعها تختلف من منطقة إلى أخرى بحسب كمية المطر، أى أن المياه الباطنية انعكاس مباشر للأمطار السطحية، ولهذا فشدة الضغط عليها تؤدى إلى تخفيض مستواها، كما قد لا يكون الحفر العميق إليها عملية اقتصادية دائما وأيا ما كان فإن قدرا كبيرا من هذه المياه الباطنية يتسرب إلى الأنهار والمناقع والبحر ويضيع على الزراعة، ولو أمكن حفظة لوفر الرى لنحو ١/٣ مليون هكتار على مدار السنة.

الرى

الرى فى سوريا شبه الجافة الحدية هو صمام الأمن للزراعة، وكل توسع زراعى حقيقى لابد أن يعتبر ويعتمد على الرى الصناعى، وكل توسع فى المحاصيل النقدية التى هى الصيفية عادة لابد أن يتم على أساس الرى. والواقع أن قصة نمو زراعة القطن هى قصة تطور الرى الحديث ولهذا تطور الرى سريعا فى الفترة الحديثة، فقد بلغ الآن ٤٠٠ – ٥٠٠ ألف هكتار أى نحو ١١% من الأراضى المزروعة، بعد أن كان منذ عدة سنوات لا يزيد على ٢٥٠ ألف هكتار. وقد كان هذا على أكتاف المشاريع الحكومية والفردية لاسيما الأخيرة. ولكن إمكانيات الرى على أهميتها لها حدودها: فمجموع الأراضى القابلة للرى نحو ٧٥٠ ألف هكتار كما أن قدرا كبيرا من مياه الرى يضيع بالتسرب والبخر.

ومصادر مياه الرى فى سوريا إما الأنهار الجارية السطحية وإما الينابيع والآبار الباطنية. وأهم هذه المصادر على الإطلاق – من حيث إمكانياتها المائية والمساحة التى ترويها على الأنهار أولا (حوالى ٨٠%) ثم النيابيع ثم الآبار، وأهم

الموارد النهرية هى نهر الفرات والبلخ، فالأول وحده يمد سوريا بنحو ٨٣% من كل مياهها النهرية، والاثنان معا يمثلان نحو ٩٠% ومن مزايا الفرات أنه النهر الوحيد فى سوريا الذى يفيض فى فصل الصيف فصل الجفاف، ولكن من العقبات أن سوريا ليست مطلقة اليد فى مياهه، بل للعراق فيه نصيب، كما أن كل أنهار سوريا موسمية، أما عن الينابيع والآبار فهى لا تقدم إلا نحو خمس مياه الرى، وهى هامة أساسا فى نواة الساحل خاصة فى نهر حلب وحمص لا نوية الجزيرة الداخلية، وكثير منها ترتبط بالكهاريز والفجارات.

ولكن مما يعيب رى الأنهار والينابيع والآبار على السواء أنها فى أغلب الأحيان عميقة عن مستوى الأرض المراد ريها، ومن ثم لابد من رفعها آليا، ولهذا فإن نسبة الرى بالراحة محدودة، وحوالى النصف (٢٥٠ ألف هكتار من ٤٠٠ — ٥٠٠ ألف) يروى ريا بالطلمبات والآلات. ففى الفرات آلاف الطلمبات الحديثة، وفى العاصى الغائر آلاف النواعير الضخمة (منطقة حمص خاصة). هذا ويلاحظ أن كل مشاريع الرى فى سوريا تختلف عن مشاريع الرى الضخمة الكبرى فى البيئات الفيضية كالنيل والسند، فهى أساسا مشاريع صغيرة الحجم والقدرة، متعددة مبعثرة بشدة، ولقد كانت شبكة الرى فى الماضى أفضل منها بكثير حاليا ولكنها أهملت وفسدت فى العصور الأخيرة. وبقايا هذه الشبكة يستعمل ويُستَحيَا حاليا فى بعض الجهات، وهناك من الأدلة ما يشير إلى أن قنوات قديمة كانت تنقل مياه العاصى إلى أبعاد مثل تدمر والقريتين..

الملكية

يعتبر نظام الملكية الزراعية من عوامل تأخر الزراعة السورية، لأنه فى مجموعه كان نظاما إقطاعيا إلى أن ألغى أخيرا، وقد وجد أن الحد المعقول للملكية الزراعية هو ١٠ هكتارات للأسرة، ولكن الملكيات minimifundia القزمية هى

السائدة من ناحية والأبعاديات الضخمة Latifundia من ناحية أخرى والملكية تشكل صورة الفقر الزراعى فالملكية الأولى تسبب تأخر الزراعة، والثانية على مزاياها الاقتصادية لها عيوبها الاجتماعية الخطيرة فالملكية الكبيرة أرقى تكنيكيا واقتصاديا، لكنها أحط اجتماعيا.

وقد تطورت الملكية حديثا إلى الاتجاهين المتعارضين: اطراد الاتجاه إلى الملكية الصغيرة مع وراثة الملكيات، وتزايد الملكية الضخمة باستغلال أراض جديدة فى الجزيرة والفرات أساسا. ولتوزيع أنواع الملكية أساسه الجغرافى. فالملكيات الصغيرة تسود فى المناطق الجبلية حيث التربة متقطعة، وحول المدن حيث الزراعة البستانية بالضرورة، وفى المناطق المروية حيث الأرض ثمينة، أما الملكيات الكبيرة فتسود فى المناطق قليلة السكان والأراضى المستغلة حديثا أى الأراضى الجديدة ـ بوجه خاص فى الجزيرة والفرات: هذا وتعرف الأقاليم الحدية كحوران وهوامش حلب وحمص نوعا خاصا من الملكية هو المَشَاع ـ وأساسه استثمار فردى فى ملكية جمعية ـ أى كالمير الروسى القديم Mir.

ويتوقف شكل الاستثمار الزراعى على نوع الملكية. ففى الملكية الصغيرة يسود الاستثمار المباشر، وهو فى المناطق المروية وحول المدن يوفر حياة معقولة للفلاح كما فى غوطة دمشق وإدلب، وعادة يرتبط بالزراعة الكثيفة البستانية من خضر وفاكهة، أما فى الملكيات الكبيرة فيسود نظام الزراعة melayage بكل مساوئه المعروفة، بينما يقل نظام الإيجار المعاشى جدا وكلما قلت الأمطار قلت نسبة الإيجار أو المزارعة بالنسبة للمالك، بينما تزداد نسبة أو حصة صاحب الطلمبة إذا كان غير المالك كما هو الغالب. على أن نظام الاستثمار الرأسمالى قد دخل حديثا فى الملكيات الكبيرة وهذا أساسا فى الجزيرة والفرات حيث لا تعتبر الأرض أساس الملكية الضخمة وإنماء الآلة الزراعية فمالك الآلات هو المسيطر الحقيقى على الزراعة الكبيرة، ويحقق أرباحا خيالية إذ ينخفض إيجار الأرض إلى

أدناه ويرتفع إيجار الآلات إلى أقصاه، ولكن من عقبات الآلات ارتفـاع تكـاليف الوقود لشدة تعمق الجزيرة عن مصدر الوقود.

العمل

يؤثر العمل فى كفاية وإنتاجية الزراعة السورية من عدة نواحٍ: فهنـاك أولا نقص عام فى الأيدى العاملة بسبب تفريط السكان underpopulation ولهذا فليس هناك حتى الآن مشكلة ضغط السكان على الأرض الزراعية، بل المشكلة هى فـى أساسها سوء توزيع الملكية الزراعية فيما يرفع الإيجارات، بل يقدر أن استغلال كل الأراضى القابلة للزراعة والرى مما يمكِّن سوريا أن تمتص قدر السكان الزراعيين والبدو حاليا.

ثم هناك ثانيا سوء التوزيع الجغرافى للعمل كنتيجة لتوزيع كثافة السكان ففى النواة النووية كثافات مكتظة نسبيا كاللاذقية وغوطة دمشق، بينمـا تنـدر الأيـدى العاملة فى المناطق الحدية كحمص وفى نوية الجزيرة ـ الفـرات. وقـد ظلـت الجزيرة طويلا مخلخلة السكان كنتيجة لسياسة الانتداب الموضوعة التـى جعلـت المنطقة حرام على السوريين ومنعتهم من الهجرة إليها لعزلهـا وتمهيـدا وتغذيـة للانفصالية فى الجزيرة، حتى اضطر ضغط ظروف الحرب الأخيرة الإنتاجية إلى تحطيم هذه القيود.

وتحل مشكلة نقص العمل فى النوية وحمص حاليا بالتراحيل الموسمية للعمال من النواة النووية الكثيفة. كما يتحول بعض البدو الرُحَّل إلى العمل الزراعى فـى فصل الحصاد، وفى الشمال يهبط الأتراك والأكراد من جبال الأناضول للعمل فـى سهول حلب.

النقل

منذ توسعت الزراعة السورية إلى نطاق الزراعة الواسعة فى نوية الجزيـرة الفرات، بدأ اتساع المسافات والأبعاد بين الداخل والساحل، بين الإنتاج والتصريف،

يتضح. وأصبحت مشكلة النقل حرجة جدا فى تكاليف الإنتاج الزراعى والتصدير. لنقل المحاصيل الحبوبية أولا، وضرورة التصدير ثانيا، فطرق السيارات على كثرتها غير كافية وتغلق موسميا مع البعد السحيق عن موارد البترول فى مصفى طرابلس لاسيما أنه يباع فيها بسعره فى خليج المكسيك + نفقات الشحن من الخليج إلى طرابلس مما يجعل سعره ٣ أمثاله فى الولايات المتحدة!! كما أن الاعتماد على السكة الحديد التركية غير اقتصادى وغير سليم وفى كلا الحالتين فالمشكلة الحقيقية هى الرحلة الطويلة غير المنتجة عبر قطاع اللامعمور، أما الأنهار فأغلبها غير صالح للملاحة وشديد العمق أو سريع التيار. ولا يؤدى إلى الوجهة المطلوبة، والنتيجة ارتفاع تكاليف نقل الحبوب كالقمح من الجزيرة لدرجة خطيرة، ويكفى أن نفقات نقل القمح من الجزيرة إلى حلب تزيد على نفقات نقله من أستراليا إلى بيروت.

المركب الزراعى

تمتاز الزراعة السورية بمركب عظيم التنوع؛ لأن المناخ الانتقالى يمكن لمدى واسع من المحاصيل المدارية والمعتدلة إلى جانب المتوسطية، كما يمتاز بأن إدخال الرى الصيفى مكّن لإدخال محاصيل صيفية جديدة فى المركب بصورة تشبه الثورة، وهذا يقابل الثورة التوسعية فى مساحة الزراعة نفسها، من أهم هذه المحاصيل الجديدة القطن والبنجر والأرز. ورغم أن المركب الزراعى التقليدى كان أساسا لاقتصاد "معاشى غذائى" Subsistence إلا أنه تطور ليصبح أساسا لاقتصاد تجارى تبادلى exchange، فالمركب الزراعى ينقسم إلى ثلاث مجموعات: الزراعات الغذائية، والبساتين (الخضر والفاكهة)، والصناعية.

والقيم المتغايرة لهذه المجموعات تلخص بإيجاز تطور الزراعة السورية، فحتى حوالى ١٩٤٩ كانت مساحة الغذائيات الحبوبية ٨٢% من مجموع مساحة

المزروع، ولكنها هبطت إلى ٧٠% أخيرا، وحتى الآن لا يطرح فى الأسواق من الناتج الحبوبى إلا ٣٠ ـ ٤٠% من الإنتاج، مما يؤكد صفة الاقتصاد المعاشى، هذا بينما كانت مساحة المحاصيل البستانية حين كانت نسبة الحبوبيات ٨٢%، هى ١٦% للبستانيات أغلبها للفاكهة، ٢% فقط للصناعيات ولكن الاتجاه متزايد نحو زيادة الصناعيات والبستانيات على حساب الغذائيات، فقد تضاعفت فى فترة ما بعد الحرب مساحة البستانيات، كما أنه فى الغذائيات متجهة باطراد إلى التصدير بدل الكفاية الذاتية.

وأخيرا يلاحظ أن المركب الزراعى السورى ككل ينفصل أساسا عن حرفة الرعى ومراعى الألبان وذلك وظيفيا وتوزيعيا، فالاقتصاد الرعوى قاصر على البدو الرحل، ولا يلعب دورا مكملا فى الاقتصاد الزراعى الذى هو لذلك بعيد عن الزراعة المختلطة Mixed farming. كذلك يلاحظ أن المركب الزراعى السورى ينفرد مع الاقتصاد اللبنانى بين اقتصاديات الدول العربية بعدم سيادة محصول معين فيه سيادة مطلقة بل بمركب شبه متوازن من العناصر شبه المتكافئة ولو أن هناك اتجاها حديثا متزايدا نحو سيادة المحصول الواحد. كذلك يلاحظ التوجيه الجغرافى فى الإنتاج الزراعى بحسب العلائق المكانية. فالمحاصيل الغذائية تشير إلى مناخ المناطق المعتدلة، أما البستانية فتؤكد صبغة البحر المتوسط، بينما المحاصيل الصناعية تبرز أثر المحاصيل الجنوبية من جهة ومحاصيل شرق أوربا من جهة أخرى.

المحاصيل الغذائية

هذه فى الواقع ترادف الحبوب، وهى تحتل ٣/٤ المزروع أو نحو ذلك. وهى تنتشر فى كل أجزاء سوريا ولكن بصفة خاصة فى نوية الجزيرة ـ الفرات، ثم الهامش فى سهول حمص وحلب وحماة وحوران، ثم البقاع والسواحل. ومنها

الشتوى وهو الأساسى كالقمح والشعير والشوفان، ومنها الربيعى كالذرة والسمسم وهى أقل أهمية وتتركز فى رقع صغيرة معينة وتتحمل الكنتور المرتفع.

القمح

أهم الحبوب إطلاقا، يحتل ٢/١ أراضيها، يزرع فى كل أجزاء سوريا لكن بصفة خاصة فى الجزيرة ــ الفرات ثم حلب وحمص ودمشق وحوران (حقل روما) وجبل الدروز البركانى التربة، وسعة انتشاره الجغرافى تمكن من تعدد أنواعه فيوجد الصلب واللين، مما يمكن لكل الأغراض والاستعمالات. ولكن الصلب هو السائد.

هذا وقد زادت مساحته باطراد شديد إلا إذا دهمه الجفاف:

١٩٣٨	٤٧٣,٠٠٠ هكتار	(١,١٨٢٠٠٠ فدان)	٤٥٩٠٠٠ طن
١٩٥٣	١,٤١٤,٠٠٠ هكتار	(٣,٢٨٥٠٠٠ فدان)	٩٦٢,٠٠٠ طن
١٩٥٦			١,٠٥١,٠٠٠ طن
١٩٥٨			٥٦١,٠٠٠ طن

فهذا التوسع الهام وصل بالمحصول إلى علامة المليون طن، ولكن فجأة تدهور إلى النصف بسبب الجفاف، ولقد كانت جبهة التوسع الرئيسية هى الجزيرة ــ الفرات. التى أصبحت الآن تنتج وحدها ٢/١ قمح سوريا كله والقمح بعلى (مطرى) أساسا، ولهذا تخضع مساحته ومحصوله لذبذبات عنيفة غير مضمونة بحسب النبض المناخى، فإذا كان المحصول قد وصل المليون طن فى ١٩٥٦ فإنه فى العام السابق ١٩٥٥ هبط إلى ٤٣٨,٠٠٠ طن ثم عاد فهبط من مليون إلى نصف مليون فى عام ١٩٥٨ فمعامل الارتباط بين إنتاج القمح والمطر وثيق جدا بل يمكن وضع جدول إحصائى يبين العلاقة الطردية الوثيقة بين كمية الصادر من القمح (أو المستورد منه!) وكمية المطر. وبوجه عام لا يمكن تصدير القبح إلا حين يزيد المطر عن ٤٠٠ مم. وإذا كان القمح محصولا يستهدف التصدير أساسا، إلا أن

نسبة الصادر شديدة التفاوت، تتراوح بين ١/٣، ١/٤ المحصول، بل تضطر سوريا إلى الاستيراد أحيانا كما كان الحال قبل ١٩٣٩، ولما كـان متوسـط الاسـتهلاك المحلى هو ٧٠٠ ألف طن سنويا، فحين يقل الإنتاج عن ذلك يمنع التصدير كما فى ١٩٥٨، بل لولا أن نسبة كبيرة من السكان تتغذى بالشعير والذرة لاحتاجت سوريا بدل التصدير إلى استيراد ١/٤ مليون طن من القمح سنويا حتى وقت قريب ولكـن مع زيادة المساحة العامة أخيرا أصبحت هذه الحالة نادرة.

ومعظم صادر سوريا من القمح يأتى من الجزيرة والفرات أساسا، ولكن نقطة الضعف هنا هو البعد الجغرافى عن المخرج الساحلى، ومما يساعد علـى توجيـه القمح السورى إلى التصدير أنه لعروضه الجنوبية ينضج مبكرا عن قمـح أوربـا وأمريكا بنحو شهر، فيكون الطلب على أشده فى السوق العالمية. كمـا أن القمـح السورى يزيد سعره فى السوق العالمية بنحو ٢٥ ــ ٣٠% عن القمح اللين ولقـد كان القمح حتى عهد قريب جدا أهم محاصيل سوريا لأنـه كـان يتصـدر قائمـة الصادرات فكان والشعير فى ١٩٥٣ يمثل ١٩% من قيمة الصادرات، ولكن فـى ١٩٥٨ هبطت نسبة الحبوب جميعا فى الصادرات إلى ١٧% وذلك لتدهور الإنتاج مع الجفاف.

وهكذا فقد تلك المكانة أخيرا للقطن، ويعتبر محصول الفـدان مـن القمـح ضئيلا، وهناك مجال كبير للزيادة، فقدر أن محصول الحبوب يمكن أن يزيد ٤٠% حتى ١٩٦٠، بل قدر فى ١٩٤٦ أن من الممكن الوصول إلى ٦ أضعاف الإنتاج أى ٣ مليون طن بتحسين الوسائل وتوسيع المساحة.

الشعير أهم الحبوب بعد القمح ويحتل ١/٤ الأراضى المزروعـة، يتنـاوب الأرض مع القمح أو يزرع فى الأراضى الفقيرة الهامشـية، ومحصـوله مذبـذب

كالقمح، حتى ١٩٤٦ كان متوسط المحصول ١/٣ مليون طن، ولكــن فــى ١٩٤٧ كان نصف ذلك، وقد نمت زراعته كالآتى:

١٩٣٨	٢٧٥,٠٠٠ هكتار	(٦٨٧٠٠٠ فدان)	٢٦٠,٠٠٠ طن
١٩٥٣	٤٢٨,٠٠٠ هكتار	(١,٠٧٠,٠٠٠ فدان)	٤٧٥,٠٠٠ طن
١٩٥٤	٥٤٣,٠٠٠ هكتار		٦٣٥,٠٠٠ طن
١٩٥٧			٧٢١,٠٠٠ طن
١٩٥٨			١٧٩,٠٠٠ طن

واضح أنه ظل يزيد، ولكنه عاد فانتكس فى ١٩٥٥ ثم ارتفع فى ١٩٥٦ إلى نحو ١/٢ مليون طن ثم بعد أن سجل ٣/٤ مليون طن فى ١٩٥٧ هــبط فجــأة ــ كالقمح ــ فى ١٩٥٨ إلى أقل من ١/٥ مليون طن بسبب الجفاف.. ويستهلك عادة، ولكنه قل أخيرا، كما أن نسبة الصادر مذبذبة كقيمة الإنتاج.

الذرة: محصول صيفى ثانوى، منه البيضاء أو الرفيعة أو الــدخن الهنــدى والصفراء أو الشامية، والأولى أهم وأكثر غلة تتحمل الأراضى الفقيــرة ولكــن لا تزرع فوق كنتور ١٠٠٠ متر، والثانية أقل أهمية ولكنها أكثر تحمــلا للظــروف الصعبة وتزرع حتى كنتور ١٥٠٠ متر، والجدول يوضح تطور الإنتــاج بــآلاف الأطنان.

	٥٢ ــ ١٩٥٦	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨
رفيعة	٩٨	٧٥	٥٢	٣١
شامية	٢٠	١٥	١٥	١٣

الشوفان: أقل الحبوب الشتوية أهمية، ومعظمه يزرع للعلف. يتركز فى حلب واللاذقية (وشمال لبنان).

الأرز: محصول صيفى رطب (مروى)، أدخل حديثا جدا فى ظل ظــروف الحرب الأخيرة لتعذر الاستيراد، يرتبط أساسا بالجزيرة والفــرات وفــى الدرجــة الثانية بحلب وجولان حيث أدخل أخيرا: لكن المساحة والمحصول محدودة جــدا، وقد انخفضت مساحته رغم ذلك لمشاكل الصرف المرتبطة به فهبط إنتاجــه مــن

متوسط قدره ١٢ ألف طن فى الفترة ٥٢ ــ ١٩٥٦ إلى ٦ آلاف فى ١٩٥٦ إلى ألفين فى ١٩٥٧ إلى ألف فى ١٩٥٨، ولازالت سوريا لذلك مستوردة للأرز أساسا (ومن مصر خاصة).

البقول: تمثل مساحة هامة نسبيا ويذهب معظم الإنتاج إلى الاستهلاك المحلى. وهذا تطور بآلاف الأطنان.

	٥٢ ـ ١٩٥٦	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨
عدس	٥٧	٧٥	٧٧	٤٨
جلبانة	٤٦	٤٩	٥٥	٣٥
فول	١٠	٧	١٠	٨
حمص	١٧	١٤	١٢	٧

وواضح فى حركتها جميعا أنها تتبع نفس خط سير الحبوب الرئيسية من انكماش أو اتساع، وذلك مع الجفاف.

المحاصيل البستانية

تشغل الفواكه والخضراوات، هى الثانية فى الأهمية المساحية بعد الحبوب. نحو ١٦% من المزروع أى نحو الـ ١/٦، وهى آخذة فى التوسع فى المساحة وكمية المحصول، فمجموع المحصول يبلغ نحو ١/٢ مليون طن أى قدر محصول الشعير أو نصف محصول القمح، والمحاصيل البستانية تلعب دورا هاما فى التصدير سواء محفوظة أو طازجة.

الفواكه أكثر أهمية، وهى محصول تقليدى قديم ذو شهرة خاصة طوال التاريخ فى الشام المتوسطى والشام بعامة "حديقة العرب" وتحتل ١٠% من المساحة المزروعة ويبلغ المحصول نحو ضعف محصول الخضراوات وزنا. ولما كانت معظم الفواكه شتوية مطرية، ولما كانت أكثر حاجة إلى المطر من الحبوب الشتوية، فهى تتركز فى الأجزاء الغربية من البلاد، لا سيما أن المحاصيل الشجرية

تلائم بطبيعتها الأراضى المرتفعة المضرسة التى تسود فى تلك القطاع وأهم محاصيل الفاكهة الكروم والزيتون، فمساحة كل منهما واحدة تقريبا (١٠٠ ألف هكتار تقريبا)، ولكن محصول العنب أعظم بكثير من حيث الوزن كما أن عدد أشجار العنب يفوق بكثير جدا عدد أشجار الزيتون (٧٠ مليونا مقابل ١٣ مليونا).

هذا وقد تطورت زراعة الزيتون بسرعة أخيرا ــ فلم يكن هناك إلا ٦ ملايين شجرة فى ١٩٣٧. وهناك ــ منذ ١٩٦٠ ــ خطة لزيادة عدد أشجار الزيتون من ١٣,٥ مليونا إلى ١٨ مليونا فى بحر سنوات حتى يرتفع الدخل منه إلى ١٠ ملايين من الليرات سنويا. والزيتون يتوزع فى صافيتا وأنطاكية وحارم وإدلب والغوطة، حيث لا يروى إلا فى الأخيرة ولكن ٤/٣ المحصول يأتى من محافظة حلب وحدها. وبعض المحصول يستهلك محليا وبعضه يصدر، ولكن الـ ٤/٣ يذهب إلى المعاصر لاستخراج زيت الزيتون أما العنب فأوسع انتشارا كما يزرع حتى كنتور ١٥٠٠ متر، فنجده فى دوما وداريا قرب دمشق، وفى جبال العلويين والقلمون وحمص وحماه وحلب، ولكن حوالى ٧٠% من المحصول يأتى أيضا من منطقة حلب وحدها. وعدا الاستهلاك المباشر. يجفف أو يقطر خمرا أو عرقا ويصدر إلى الخارج.

ويلى العنب والزيتون من حيث وزن المحصول التين. ثم هناك مجموعة متعددة من الفواكه الأخرى كالحمضيات التى نظرا لأنها لا تتحمل برودة الشتاء فى الهضاب والسهول الداخلية تقتصر على السواحل حول اللاذقية، أما المشمش فتتركز ٢/١ مساحته وأشجاره و٤/٣ محصوله فى غوطة دمشق، وتأتى سوريا ثالثة دول العالم فى إنتاج المشمش بعد الولايات المتحدة وإيران. أما التفاح والكمثرى فتتركز أساسا فى الزيدانى ثم اللاذقية وحلب. أما الموز فلا تصلح له سوريا لأنه يحتاج إلى الحرارة والرطوبة والأرض الرملية معا ولذا لا يوجد إلا فى البطيحة (الزاوية). أما الجوز واللوز والفستق فنجد الجوز يتركز أغلبه فى الغوطة

(٣/٢) بينما يتوزع اللوز فى حلب وحماه وحمص، فى حين يتركز الفستق فقط فى حلب، والجدول الآتى يوضح تطور إنتاج الفواكه الرئيسية فى السنوات الأخيرة مقدراً بآلاف الأطنان.

	٥٢ ـ ١٩٥٦	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨
عنب	٢١٤	١٩٤	٢٤١	٢٢٧
زيتون	٤٥	٧٨	٣٩	١٠٠
تين	٥١	٤٨	٥١	٥٥
مشمش	١٧	١٠	٢٤	٢٠

أما الخضراوات فهى أقل مساحة ومحصولا من الفواكه ـ حوالى النصف. ولكنها مع ذلك محصول هام، فمساحتها ووزنها يعادل تقريبا مساحة ووزن كل المحاصيل الصناعية، ويعتبر توسعها الملحوظ ظاهرة حديثة، ترتبط مع نمو السكان الحديث وظهور المدن الكبرى، وإذا كانت الفاكهة أساسا مطرية شتوية، فالخضروات أساسا صيفية مروية. ولارتباطها بالاستهلاك المحلى أولاً تميل ـ فيما عدا محاصيل معينة تتخصص محليا كالبطاطا فى القلمون إلى التوزع العام بحسب كثافة السكان ولكن أساسا حول المدن الكبرى حيث تتوفر الأيدى العاملة وماء الرى والأسمدة وسوق الاستهلاك، وهناك مجال كبير للتوسع لاسيما فى سواحل اللاذقية وحوض العاصى والفرات والجزيرة، ولقد كانت سوريا تصدر كميات كبيرة من الخضر إلى فرنسا وفلسطين قبل الحرب الأخيرة، ثم ضعفت هذه الصادرات أثناءها، وعادت إليها بالتدريج، وأهم محاصيل الخضراوات الطماطم (البندورة) والبصل، وقد انتشرت مصانع تعبئة الخضراوات لكنها تشكو من رداءة الأصناف.

المحاصيل الزراعية

هذه طفرة جديدة تماما فى الزراعة السورية، دخلت مع الرى وترتبط به توزيعا، وهى لذلك محاصيل صيفية، ولكنها لا تحتل إلا نسبة تافهة جدا من مساحة الزراعة ـ ٣% إلا أنها من ناحية القيمة برزت بسرعة إلى الصدارة حتى

اكتسحبت المحاصيل الأخرى، لا فى التجارة الخارجية لسوريا فقط، وإنما كذلك فى أسس الصناعة الداخلية، ولكنها كمحاصيل تخدم التصدير أساسا، نجدها تخضع لذبذبات السوق الخارجية: ولهذا انخفضت مساحتها أثناء الحرب إلى ٢% لحساب المحاصيل الغذائية، ولكنها ارتفعت بقوة أثناء الحرب الكورية التى كانت موجة رخاء بالنسبة للإنتاج الأولى فى الخامات الزراعية خاصة الزراعات الصناعية فى كل العالم. وأهم هذه المحاصيل القطن والتبغ والبنجر والقنب.

القطن

كانت سوريا فى العصور الوسطى فى مقدمة بلاد العالم فى إنتاج القطن، فهو محصول قديم فى سوريا ولكنه ظل يتضاءل حتى نهاية العثمانيين، ثم أخذ ينمو من جديد، وهو أكثر ثورة فى الزراعة السورية، وحديث جدا على هذا الأساس ـــ كما يبدو من الأرقام:

	المساحة بالهكتار	الإنتاج بالطن
قبل الحرب	٣٠,٠٠٠	٥٤٠٠
١٩٤٥	١٧,٠٠٠	٤٣٠٠
١٩٤٦	٥٤,٠٠٠	٤٨٠٠
١٩٥٠	٧٨,٠٠٠	
١٩٥١	٢١٧,٠٠٠	
١٩٥٢	١٨٩,٠٠٠	
١٩٥٣	١٢٧,٠٠٠	٤٧,٠٠٠
١٩٥٤	١٨٠,٠٠٠	
١٩٥٦ ـ ٥٢		٦٩.٧
١٩٥٦		٩٢.٨
١٩٥٧		١٠٧.٣
١٩٥٨		١٢٤.٠
١٩٥٩		٩٦.٥
١٩٦٠		٩٨,٥

هكذا زادت مساحته منذ الحرب حتى منتصف القرن (٤٥ ــ ١٩٥١) بنحو ٨٠٠% ولكن يلاحظ أن خط نموه مذبذب تحت ضغط الجفاف والدودة داخليا، والسوق خارجيا، ومع ذلك فسيرى أنه وحده من بين كل محاصيل سوريا الزراعية تقريبا الذى يرتفع فى ١٩٥٨ وهى سنة جفاف خطيرة، ولكنه للأسف تراجع فى السنتين التاليتين وهما أيضا سنتا جفاف مشهور.

وقد أصبح القطن الآن ينتج نحو ١٠٠ ألف طن أى نحو ١,٥% من الإنتاج العالمى، وهو يمثل بهذا أهم عنصر فى قائمة الصادرات، فقد انتزع المكان الأول التقليدى للقمح فأصبح يمثل وحده ١/٣ قيمة الصادرات (٣٥% فى ١٩٥٣ ــ هو وبذرته ــ ترتفع إلى ٦٠% فى ١٩٥٨ بما فى ذلك الخام والغزل والنسيج) كل هذا رغم أنه لا يحتل إلا ١/١٠ مساحة القطن، ويقدر أن المساحة التى يمكن أن تزرع قطنا فى سوريا تصل إلى ٢,٥ مليون هكتار، منها ٨٠٠ ألف بالرى والباقى بعليا، وقد أصبح القطن من قبل هدف الزراعة السورية، ولكنه ليس بَعْدُ محورها بالدرجة التى تميزه فى المركب الزراعى المصرى مثلا.

وأنواع القطن فى سوريا ثلاثة ــ البلدى موطنه إدلب وهو السائد زراعة وأقلها جودة، والمصرى وهو أجودها، والأمريكى وهو أوسطها (لون ستار) ومحصور القطن السورى بوجه عام من النوع المتوسط أو قصير التيلة، ولكنه أجود مما تحتاج إليه الصناعة السورية، ولذا فسوريا تصدر قطنا وتستورده.

وحقل القطن الرئيسى فى سوريا هو بالضرورة سهل مثلث حلب ــ حمص ــ حماة، الذى أنتج فى ١٩٥٣ ٣/٤ محصول البلاد جميعها، والباقى يأتى من الجزيرة والفرات (الخابور) ودمشق، ويتراوح استهلاك سوريا المحلى من القطن حول + ١٠,٠٠٠ طن، فبلغ فى ١٩٦٠ نحو ١٢,٠٠٠ أو حوالى ١٢,٢% من الإنتاج الكلى.

التبغ: محصول تقليدى قديم هام فى الدخل الزراعى ودخل الدولة، ولكنه احتكار صارم لإقليم معين كما هو لشركة معينة، فمركزه الأول الذى ينتج معظم الإنتاج تقريبا هو اللاذقية خاصة فى اللاذقية وجبلة والحفة، ثم هناك رقع ثانوية فى حلب خاصة فى إدلب وحارم وجسر الشغور، وهناك نوعان رئيسيان: أبو ريحة ويصدر إلى الولايات المتحدة، وشك البنت للاستهلاك المحلى.

البنجر: (الشوندر ــ تحريف لكلمة Chanvre) محصول جديد حديث، لازال محدود المساحة كثيرا.

١٩٥١	٥٠٠ فدان
١٩٥٤	١٦,٠٠٠ فدان

ولكنه ثقيل ــ فمحصوله نحو نصف محصول القطن وزنا، وهو آخذ فى التوسع بنشاط. ولكنه مركز الإنتاج لم يتحدد بعد تماما فكان أساسا فى حلب، ولكنه الآن فى حمص ودمشق، وهو يغذى صناعة السكر فى حمص خاصة، رغم أن تكاليف الإنتاج أعلى من السكر المستورد، والمقترح التوسع فى زراعته فى اللاذقية، وحمص حيث دلت التجارب على جودته فيها، وفى أراضى الروج والغاب بعد استصلاحها، وفى الفرات الجزيرة مع إنشاء مصنع جديد فى القامشلى للبعد الكبير عن مركز حمص.

محاصيل ثانوية: قليل من القصب فى اللاذقية لأن المناخ عامة لا يصلح له. ثم هناك الخروع فى حلب ويصدر بذره إلى فرنسا، والعرقسوس فى الشمال فى منطقة أنطاكية والباب ومنبج ودير الزور، وفى الغوطة والمرج بدمشق، وكان يطحن فى الإسكندرونة أو دمشق ويصدر إلى أمريكا، وهناك القنب فى مرج الغوطة أساسا، والواقع أن مجموعة الطباق والعرقسوس والخروع تذكر بقوة العلاقات والتوجيه المناخى نحو جنوب شرق أوربا، البلقان ــ تركيا، فى هذا الجزء الشمالى من الشام.

المصادر

ـ أحمد السمان: اقتصاديات سوريا، القاهرة، ١٩٥٥.

ـ سنى اللقانى: الإقليم السورى واقتصادياته: دراسة مقتبسة مترجمة من تقرير البنك الدولى للإنشاء والتعمير.

ـ داود صليبا، مصطفى الحاج إبراهيم: العالم العربى. دمشق ١٩٥٨.

ـ بسام كرد على، مصطفى شاكر، أنور الرفاعى: جغرافية البلاد العربية، دمشق، ١٩٤٩.

ـ محمد فاتح عقيل: "إمكانيات النمو الاقتصادى فى سورية" محاضرات الجمعية الجغرافية المصرية. ١٩٥٧.

ـ محمد لبيب شقير: الجوانب الاقتصادية للوحدة المصرية السورية. القاهرة. ١٩٥٨.

ـ البنك الأهلى المركزى، النشرة الاقتصادية، مجلد ١١ عدد ٣ ـ ١٩٥٨.

ـ البنك الأهلى المصرى، النشرة الاقتصادية، مجلد ١٣ عدد ١ ـ ١٩٦٠.

- W.B Fisher, The Middle East Lond, 1950.

- Royal Instutute of International Affairs, The Middle East, Lond., 1958.

- P. Birot & J. Dresch, La Mediterranée et le Moyen- Orient, Paris 1956.

- L. Dubertret & J. Weulersse, Manuel de Géographie, Syrie, Liban, etc, Beyrouth, 1940.

الصناعة السورية[1]

أولا ـ تطور الصناعة السورية

رغم أن الأساس الاقتصادى لسوريا كان إما الزراعة وإما التجارة بحسب العصور، بينما كانت الصناعة دائما فى المرتبة الثالثة، فإن لسوريا شهرة تاريخية قديمة فى الصناعة عامة وفى صناعات تقليدية خاصة، وفى الدولة العثمانية كانت سوريا تلعب دورا صناعيا هاما، وكانت تجد سوقا هامة فى مصر والعراق وتركيا، بل كانت إلى حد ما "مصنع الإمبراطورية".

وكان للصناعات النسيجية موضع خاص لا سيما الحريرية حيث كانت دمشق مركزا تاريخيا لها ــ وحيث كانت مصر السوق الطبيعية التاريخية لحريريات سوريا. والواقع أن الشام أعطى من أسماء مدنه لأكثر من نوع من المنسوجات الحريرية: الدمقس من دمشق "والكريشة" Gauze من غزة.. كذلك كانت الحرف الفنية كصناعة الجلود والحفر والترصيع على الخشب والمعادن النحاسية والزجاج فنونا متقدمة، ولكن كل هذه الصناعات الموروثة كانت صناعات وسيطة "بالضرورة: حرف بازار يدوية، "وصناعات منزلية"، واقتصاديات صغيرة، وقد قدر أن ١٠ ــ ١٥% من السكان كان يعيش على الصناعة، وأن نحو ١٠٠ ألف عامل كان يعمل فى نسج الحرير والقطن والصوف، ولكن المصانع كانت ورشا حرفية صغيرة، قليلة العدد.

وكما حدث فى كل الشرق كالهند ومصر، كان لابد لهذه الصناعة الحرفية الوسيطة أن تصطدم بالصناعة الآلية الحديثة الغربية وتتحطم على صخرتها مع الاحتكاك الحضارى الشديد الذى تبلور مع الحرب الأولى، ولذا فتلك الحرب كانت

---

[1] مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – المجلد(٩) – العدد(٢) – مارس ١٩٦٦م.

بداية انهيار الصناعة السورية القديمة ـ إذ أدى تمزيق الدولة العثمانية إلى حبس الصناعة السورية فى سوقها المحلية الضيقة وفقدان الأسواق التاريخية فى مصر والعراق والأناضول كما أن تخلف الصناعة المحلية عن الذوق الجديد المستعار وعجزها عن التكيف بدأ يتضح. ومن ناحية أخرى وأدت الصناعة الأوربية الرخيصة بإنتاجها الضخم الصناعة الوطنية على الرغم من رخص اليد العاملة وتوفر الخامات. وقد قوى هذا الاتجاه الانتداب الفرنسى، فقد فرض الانتداب أفضلية جمركية لأعضاء عصبة الأمم دون أن يكون لسوريا مثل هذا الحق فيها، أى فرض سياسة "الباب المفتوح"، ومن ناحية ثالثة نظرت فرنسا إلى سوريا شأنها فى ذلك شأن انجلترا فى مصر والسودان لحساب ليفربول ومانشستر ـ كمورد للمواد الخام للقطن والحرير لمصانع ليل وروبيه وليون، وكسوق لمصنوعات فرنسا ولهذا اتبعت خطة مقننة لكبت الصناعة المحلية فوجهت رأس المال الأجنبى الفرنسى إلى استثمارات عمرانية لا صناعية كالكهرباء والمواصلات والمياه، أى استثمارات استهلاكية غير منتجة لا رأسمالية منتجة، ولذا لم يمكن لصناعة سورية تكرر الصناعة الفرنسية أن تستمر: النسيج، والجلود، فمثلا هبط عدد أنوال النسيج عامة ومعامل الحرير خاصة فى كثير من المراكز إلى الربع مما كانت قبلا، كما هبط إنتاج الصابون إلى النصف، وهكذا.. ولم تفلت فتزاحم إلا "صناعات الضرورة" التى تتحدى تكلفة النقل من الخارج: الأسمنت "والكونسردة" (المحفوظات).

وهكذا ظلت الصناعة المحلية عامة تنهار، وكادت تصفى لولا إدخال قدر من الحماية الجمركية فقط عند ظهور سياسة "الإغراق" اليابانية والألمانية، ولم يكن يقصد بإدخالها حماية الصناعة السورية بقدر حماية الاحتكار الفرنسى، وهنا بدأ الاتجاه يتغير بالتدريج، هذا عدا أن نمو السكان المتزايد، وإغلاق باب الهجرة إلى العالم الجديد وارتفاع مستوى المعيشة فى المدن كل أولئك كانت ضغوطا كامنة نحو الصناعة. وأتى هذا التحول ابتداء من ١٩٣٠ تقريبا ـ نفس تاريخ التحول المماثل

فى مصر! وكان هذا التحول إلى الصناعة الآلية الحديثة واستخدام القوة الكهربائية فى الصناعة، فى صورة اتجاهين: تجديد الصناعة القديمة وإدخال صناعات جديدة. تجديد القديم فى النسيج ثم الدباغة ثم المطاحن ثم الجلود على الترتيب. وإدخال الجديد فى الغزل والأسمنت. حتى إذا كانت الحرب العالمية الثانية كانت الصناعة السورية قد بدأت تسد جانبا من الاستهلاك المحلى وتكون ٢٠% من قيمة الصادرات..

لكن الحرب الثانية كانت كما عرفت مصر ــ نقطة التحول الحقيقية. فإذا كانت الحرب الأولى نقطة انهيار الصناعة السورية، فإن الحرب الثانية هى نقطة انطلاقها وازدهارها. والسبب فى ذلك عاملان أساسيان. الأول تكتل رأس مال هائل فى البلد كنفقات ومصروفات جيوش الحلفاء أثناء الحرب ــ تماما كما حدث فى مصر وهنا نلاحظ أن عنصرى الخدمات والتجارة أى الحرف الثالثة والأخيرة منه مركز هام فى سوريا بحكم موقعها العبورى الهام over- tertiarisation، قد قدمت رأس المال الذى قامت عليه الصناعة: السبب الثانى هو الاستقلال السياسى الذى أدى إلى الاستقلال الاقتصادى وبالتالى انتهاء سياسة "الباب المفتوح" القاتلة وبدء سياسة الحماية الوطنية والتشجيع والتخطيط الصناعى. ولذا حدثت موجة مدية من التصنيع السريع البعيد المدى. فتكاثرت الشركات وتعددت الصناعات وتنوعت المصانع كالصناعات الخفيفة التريكو والجوارب والداخليات، وتكرير السكر، والكبريت، وتكرير البترول، بينما توسع جدا إنتاج الزيوت النباتية والصابون والأغذية المحفوظة والأسمنت والمطاحن والزجاج والأحذية والمسامير لاسيما أن تقدم الزراعة وتطويرها وتنوعها قدم خامات لصناعات جديدة هامة كما وسع نطاق الصّلات القائمة.

وكان لابد فى هذه المرحلة الزاحفة من أخطاء ومبالغات وبالتالى حالات فشل وخيبة أمل، ولكن هذه المرحلة التجريبية قد مرت واستقرت الصناعة السورية إلى

حد كبير. ولا شك أن النشاط الصناعى بالنسبة لحجم سوريا كبير، وأنه وإن لم يكن من الممكن أن نقول إن سوريا قد أصبحت الآن بلدا "مصنِّعًا" إلا أن نمو الصناعة خلال العقد الأخير كان يرجح النمو الزراعى. ورغم أن معظم الإنتاج الصناعى نحو ٨٠% يستهلك محليا، إلا أنه يساهم ـ وخاصة المنسوجات ـ بنصيب يقرب من ١٥% من صادرات البلاد كما أن سوريا وصلت إلى الكفاية الذاتية فى كثير من النواحى ـ كالمنسوجات القطنية. بينما وصلت إلى حد تصدير الفائض فى منسوجات الحرير الصناعى، وهكذا وصلنا إلى أن الصناعة فى سوريا تقدم الآن نحو ١٠% من الدخل القومى أو أكثر.

ويصر بعض الكتاب الغربيين على أن يشير إلى أمثال الصناعة السورية "بالصناعات السياسية" تميزا لها عن الصناعات الجغرافية"، وهم يقصدون أنها فرض من إملاء "الوطنية الاقتصادية economic iationalism" لا انبثاق طبيعى من وحى الجغرافيا. والحقيقة أن هذه نظرة لا تتضح بالواقعية بقدر ما تطفح بالدعاية. الحقيقة أيضا أنها لون مقنع ولكنه مكشوف من الحتم الجغرافى، والنظرية الاقتصادية الحديثة لا تقبل التفرقة بين دول زراعية، بطبيعتها هكذا وإلى الأبد وبين دول صناعية، ولكنها تميز بين مراحل تطورية على منحنى متصل يبدأ بالدول المتخلفة ويمر بالدول النامية وينتهى بالدول الناضجة.

ثانيا ـ ضوابط الصناعة

١ ـ **المادة الخام**: تتوفر فى سوريا مجموعة غنية من الخامات الزراعية والصناعية التى تصلح وتقدم مادة أولية للصناعات التحويلية. ولكن الأساس هو الخامات الزراعية بلا شك. وقد ازدادت إمكانياتها بعد توسع الزراعة توسعا كبيرا. ففى الخامات الزراعية نجد المحاصيل الغذائية كالحبوب وعليها تعتمد المطاحن السورية الكثيرة التى تطحن القمح وتوزعه فى الداخل والخارج، وعليها تقوم

صناعة النشا والمعجنات، وهناك المحاصيل البستانية كالفواكه والخضراوات وعليها تقوم صناعات التجفيف والتقطير والعصر والزيوت والصابون والتعليب (الكونسردة) التى تشتهر بها سوريا كثيرا، ثم هناك المحاصيل الصناعية كالقطن وتقوم عليه صناعة النسيج بكل ملحقاتها، وكالتبغ وتقوم عليه صناعة السجاير، والبنجر وتقوم عليه – إلى جانب السكر الخام المستورد – صناعة تكرير السكر، والسمسم والعرقسوس وبذرة القطن والخروع وعليها تقوم صناعات الطحن وعصر الزيوت وما يترتب عليها. ويرتبط بالخامات الزراعية الخامات الرعوية وتقوم عليها صناعات الألبان والمصارين المجففة والصوف والصناعات الصوفية، والحرير وصناعته.

فالخامات الزراعية هامة، ويجب التركيز عليها لتكون قاعدة الصناعة السورية. أما استيراد الخامات الزراعية كالسكر الخام لتكريره فغير سليم ولا يعيش إلا على حماية شديدة، ولا ينتظر أن يمكنه منافسة السكر الوارد حتى بعد توسيع مزارع البنجر. وقبل أن تتوسع زراعة القطن كان يشك فى قيمة صناعة النسيج على القطن المستورد. كما أن صناعة الجلود لا تزال تعتمد على الجلود المستوردة.

أما الخامات الصناعية فأقل تنوعا وغنىً بكثير، بل هى نقطة ضعف ملحوظة. فرغم أن الدراسة الجيولوجية ناقصة، إلا أن سوريا فقيرة عامة فى المعادن، فالتركيب الجيولوجى لا يعنى بطبيعته إلا ثروة معدنية فقيرة، فالتكوينات البركانية بازلتية قاعدية لا حمضية جرانيتية ومن ثم لا تحمل مركبات فلزية ثمينة كالحديد، والقليل من المعادن الموجودة أغلبها من المعادن الثانوية الصغرى ومركز فى الشمال الغربى: قليل من الحديد فى منطقة اللاذقية.

ومن بيريت الحديد فى مرتفعت غرب حمص، ولكن رصيد هام من الكروم شمال غرب اللاذقية امتدادا لمنطقته الكبرى فى تركيا، وكذلك المنجنيز فى شمال

غرب اللاذقية. وهناك بعض النحاس فى اللاذقية وجبل الأربعين وعفرين وجبل عبد العزيز، وبعض الرصاص فى حرمون ومصياف، والفضة فى مصياف، وهناك بعض الفوسفات فى المقارن على الحدود الأردنية وفى السخنة وجبل الشيخ إبراهيم، وبعض الكبريت فى جسر الشغور وتدمر ورأس العين، ولكن معظم هذا بكميات صغيرة غير اقتصادية التعدين، وهناك الملح فى انكسارات الأخدود الصحراوية كالجبول وتدمر وجيرود وبوكمال. وهو يستغل بكثرة نسبية من الجبول وجيرود ثم هناك أحجار البناء كالحجر الجيرى والرخام والبازلت والرمل التى تصلح لصناعة الأسمنت والرخام والتى تستغل لهذا قرب دمشق وحلب، ولو أن من عيوب صناعة المرايا والزجاج فى دمشق أن الرمل لابد أن يستورد من مسافة وهناك الأسفلت فى كفريا شمال اللاذقية وجبل بشرى شرق سوريا، ويستخرج لرصف الطرق، هكذا سوريا فقيرة معدنيا بحيث لا يمكن قيام الصناعة الثقيلة مطلقا، وليس من مجال إلا للصناعات الخفيفة.

والحقيقة كما قيل إن سوريا لا تملك معادن بقدر ما تملك عينات معادن فكل تلك القائمة الطويلة المرهقة من المعادن لا تعنى ولا تغنى شيئا من الناحية الاستغلالية.

وهكذا نرى أنه بينما تمتلك سوريا خامات أولية زراعية ومعدنية للصناعة إلا أنها ينقصها بعض الخامات الضرورية، فتستوردها مما يرفع تكاليف الإنتاج أحيانا بدرجة غير اقتصادية، مثال ذلك السكر الخام، والقطن سابقا، والأخشاب والمعادن للصناعات الخشبية والمعدنية، والجلود ومواد الدباغة والصباغة.

٢ ـ الوقود والقوة المحركة:

تعد القوة المحركة حتى الآن نقطة ضعف حقيقية فى كيان الصناعة السورية فليس هناك إلا أساسان رئيسيان: البترول والقوة الكهربائية، أما الفحم فمفقود عمليا

فى سوريا فهى لا تملك منه إلا القليل من الليجنيت فى عرفة ولكنه غير اقتصادى، أما الفحم البتيومينى فلا وجود له كما أن هناك قليل من الغاز الطبيعى جنوبى الحسكة، أما البترول فيستخدم على نطاق واسع كوقود صناعات عدة كالأسمنت والزجاج فى توليد الكهرباء فى المصانع الخاصة والمؤسسات العامة. وحتى قريب كانت سوريا تعتمد على الزيت المستورد من مصفى طرابلس، ولكن الغريب أن سعره يعادل سعره فى خليج المكسيك مضافا إليه نفقات النقل من الخليج إلى طرابلس أى فى النهاية يعادل ٣ أمثال سعره فى الولايات المتحدة! فسوريا التى تقع فى أعظم حقل بترول فى العالم ـ الشرق الأوسط ـ كانت تشترى الزيت بأغلى من الولايات المتحدة وفرنسا، وبأغلى منه فى مصر بنسبة ٥٠%.. وإذا كان هذا يعرقل الزراعة والنقل الزراعى، فإنه يعجز الصناعة ويرفع تكاليفها إلى درجة تعجزها عن المنافسة. لاسيما أن هناك أدلة على أن الزيت الصناعى لا يستغل إلى أقصى طاقته لسوء الاستغلال وقلة الخبرة. ولكى تتخلص سوريا من مشكلة غلاء الزيت أقامت مصفى خاصا بها فى موقع متوسط من الإكيومين هو حمص يعتمد على بترول أنابيب العراق. ولكن اكتشف أخيرا رصيد بترولى ضخم فى حقل قرة تشوك فى الشمال الشرقى فى الجزيرة أى فى نفس الإطار الجيولوجى العام لبترول كركوك والموصل، وقدر رصيده بنحو ١٥٠ مليون طن سنويا، والاستهلاك الحالى لا يزيد عن مليون طن.

أما القوة الكهربية فى سوريا فقد زاد توليدها زيادة هائلة منذ نهاية الحرب، فمثلا ارتفع بين ٤٥، ١٩٤٧ إلى ٢٦٠%، ومع ذلك فقد قصر هذا دون حاجات الصناعة حتى عجزت البلديات عن مد المصانع، فاضطرت هذه إلى توليد قوتها بمولداتها الخاصة، مما رفع التكاليف جدا حتى أصبح ثمن الوقود والقوة المحركة فى كثير من الصناعات يبلغ نسبة ضخمة من تكاليف الإنتاج أحيانا ٣٥% فى بعض الصناعات، لا سيما الأسمنت مما يبعثر الإنتاج ويشتته. وقد زاد من ارتفاع

تكاليف توليد الكهرباء عامة التشتت الأيكيومينى الواضح وتعذر توحيد الشبكة الكهربية، ولكن أمام سوريا إمكانيات هامة لتوليد الطاقة تتمثل فى انحدار المجارى المائية فى مشاريع سد يوسف باشا على الفرات ثم العاصى والغاب بما فيه مركز سد الغجر، ثم بردى، فروافد اليرموك فروافد الخابور، ومن حسن الحظ أن هذه المشاريع موزعة توزيعا عادلا بحيث يمكن لكل منها أن يخدم منطقته، فمثلا الفرات لحلب والشمال، وبردى واليرموك لدمشق..

٣ ـ **العمل**: تمتاز سوريا بوفرة العمال الذين لهم خبرة حرفية يدوية موروثة لا تنكر، وقد تحول كثير منهم إلى الصناعة الآلية، ولكن لازال هناك مدى كبير حتى يتوفر العامل الماهر الحاذق Skilled، وتعتمد الصناعة السورية فى هذه القطاعات الفنية التكنيكية على الخبراء الأجانب.

كما يمتاز العامل السورى بارتفاع أجوره النسبى بالقياس إلى إنتاجيته ومهارته، كذلك لا تخلو الإدارة من عنصر نقص الكفاية والخبرة. ولكن معظم هذه المثالب عابرة يمكن التغلب عليها، ويقدر أن قوة العمل فى المصانع الآلية تصل إلى ٤٠ ألفا، ترتفع إلى ١٠٠ ألفا إذا أضيف عمال الصناعة اليدوية، أى أن حوالى ٢٠% من مجموع السكان العاملين فى سوريا يشتغل فى الصناعة والحرف والغالبية العظمى فى المدن وهذه نسبة متواضعة لاشك بالقياس إلى قوة العمل الزراعى، ولكن الإنتاجية الصناعية عامة أكثر من أن تتناسب مع هذا القياس.

٤ ـ **رأس المال**: تعانى الصناعة السورية من نقص رأس المال المحلى باستمرار، ولقد كان الميزان التجارى الخاسر بإزمان عنصرا هاما فى استنزاف رأس المال الدفين فى البلد فى الفترة الحديثة منذ الانتداب. ولقد كان على الزراعة والتجارة السورية أن تمول عملية التصنيع، ورغم دور التجارة التاريخى الهام فى هذا الصدد فى سوريا قديما، إلا أن الضعف العام فى القرن الأخير قلل من هذه

الإمكانية. أما الدفعة الحقيقية فجاءت مع الحرب الأخيرة حين خلفت جيوش الحلفاء فى البلد رأسمال ضخم مقابل الخدمات والخامات التى قدمتها سوريا، فكان هذا نقطة البدء فى التصنيع الجدى. ولكن لازالت الصناعة فى حاجة إلى مزيد من رأس المال، وهى تسعى إليه عن طريق القروض الأجنبية الطويلة الأمد.

٥ ــ **السوق**: وكانت الصناعة السورية قبل الحرب الأولى تجد لها سوقا طبيعية تقليدية فى مجال الدولة العثمانية خاصة مصر والعراق والأناضول. ولكن التمزيق السياسى حصر السوق فجأة فى القوقعة المحلية. مما وأد الصناعة إلى حد بعيد. والسوق المحلية السورية مليئة بنقط الضعف: فهى صغيرة جدا بالنسبة للإنتاج الاقتصادى، فكثير من الصناعات تعمل على وحدات حجمية أقل من الحجم الأنسب، فتكون غير اقتصادية بل أحيانا تضطر كثير من المصانع إلى التوقف عن الإنتاج فترات طويلة أو قصيرة فى السنة، كما فى حالة صناعة الصابون والكبريت ثم إن القدرة الشرائية محدودة لانخفاض مستوى المعيشة النسبى، هذا بينما الأسعار مرتفعة للغلاء والتضخم النقدى. لذا كان لابد من حماية الصناعة المحلية ابتداء من ١٩٤٥ بصورة عنيفة حتى منع استيراد أنواع عديدة جدا من السلع.

ولقد كان تنمية الصناعة السورية فى ظل هذا الإطار الاصطناعى من أقوى دوافع ومحركات الانفصال الجمركى بين سوريا ولبنان لأن لبنان التجارى الحر كان معناه وأد صناعة سوريا: هذا شعاره "الاستيراد أو الموت" وهذا شعاره "**التصدير أو الموت**": تعارض جذرى بين تقاليد التجارة وضرورات الصناعة، انتهى معه الزواج الاقتصادى بين البلدين وإن كفل للصناعة السورية الحماية اللازمة، ولذا فلا قدرة للصناعة السورية على النزول إلى السوق الخارجية.

وقد أدركت الصناعة السورية أن سوقها الخارجية الممكنة هى الدول العربية، ولكن هذه تعانى من نفس الصعوبات تقريبا وقد عقدت سوريا مع كل من لبنان

والسعودية اتفاقيات خاصة لتسهيل تصريف صناعاتها، كما اشتركت مع كل الدول العربية الأخرى منذ ١٩٥٣ فى تخفيض التعريفة الجمركية فى عدد كبير من الصناعات. أما السوق العربية المشتركة فلا زالت بعيدة، ولكن حتى بالنسبة لهذه فإن قدرة الصناعة السورية على التصريف محدودة نوعا: لارتفاع ثمن الخامات الزراعية المحلية وتكاليف النقل الداخلى وأجور العمل السورى.. إلخ. حتى لقد وجد أن أسعار الغزل السورى تعادل أسعار إنجلترا مرتين أو ثلاث مرات! كما أن معظم دول المنطقة تتجه إلى نفس المركب الصناعى السورى تقريبا، أى لا تعدم قدرا من صفة تنافسية.

ثالثا: تركيب الصناعة السورية

١ ـ هيكل الصناعة:

تمتاز الصناعة السورية بخصائص واضحة تعطيها شخصية خاصة، فهى أولاً انتقالية أى تمثل تطورا من الصناعة الوسيطة اليدوية الصغيرة إلى الحديثة الآلية الضخمة، ولهذا يتعاصر فيها القديم والحديث، المصنع الضخم والمعمل القزم، وكل الصناعات تقريبا يصدق عليها هذا، ومن العوامل التى تستبقى القديم أنه يخدم طلبا لازال قائما فى المناطق والطبقات التى لم تتطور حضاريا بعد كالقطاع الرعوى البدوى من السكان مثلا، والصناعة السورية ثانيا صناعة خفيفة أساسا لانعدام مقومات الصناعة الثقيلة الفنية، فالصناعة الخفيفة "معدية" عالمية استهلاكية ولهذا تبرز فيها الصناعة النسجية والزراعية وصناعات الضرورة وكمعظم بلاد الصناعة الخفيفة الناشئة تمتاز قطاعات وخطوط الإنتاج فيها بترتيب معين يدل فى حد ذاته على مرحلة أولية: فثمة تأتى فى المقدمة صناعات الأغذية. صناعات النسيج وبعدها صناعات المعادن التى تكون عادة أقرب إلى معنى الحدادة والسمكرة منها إلى الصناعات الهندسية المتطورة. ذلك هيكل مألوف فى كل البلاد حديثة

التصنيع، وليست سوريا بشذوذ، ثالثا الصناعة السورية ككل الصناعات الخفيفة فى كل البلاد الانتقالية حضاريا صناعة مدن كبرى أساسا ومن ثم فنحن نجد "صناعات مدن" لا "مدن صناعية" وبعد هذا نجدها محتكرة فى عدد قليل من المدن، ولذا فـلا قدرة للصناعة السورية على النزول إلى السوق الخارجية. فالغالبية العظمى من كل صناعة فى سوريا تتركز بصرامة فى دمشق وحلب أولاً وحمص وحماه ثانيا، أما نصيب المدن الصغرى والقرى من الصناعة الحديثة الحقة فتافه جدا، والحقيقـة أن الصناعة كبقية المظاهر والنشاطات الحضارية تتركز فى سوريا فى محور المـدن الأربع ولكنها تستقطب بعنف فى القطبين الشمالى حلب والجنوبى دمشق: احتكـار ثنائى حاسم. وهذه الخاصية تعنى أن توقيع الصناعة السورية يتبع السوق أساسـا ولو أن هذا يعنى فى نفس الوقت موقع رأس المال والعمل والقوى الكهربية.. إلخ. وأخيرا فالصناعة السورية صناعة لا تقوم إلا على الحماية الشديدة، ولـولا ذلـك لانقرضت. ويرجع ذلك إلى نقط ضعف خطيرة فى مقوماتها وضوابطها. وإلى ما قبل فرض الحماية ١٩٤٥ فى ظل ظروف حرب أو عزلة وانهيار تحت ضـربات المنافسة الأجنبية. وقد وضعت الحماية الجمركية بقصد الاكتفاء الـذاتى صـناعيا كجزء من سياسة الاستقلال الاقتصادى (الوطنية الاقتصادية) ويترتب على هذه شدة تنوع وتعدد المركب الصناعى السورى رغم مرحلته الانتقالية الحرجـة، ورغـم سياقه خط أو خطين رئيسيين على الإنتاج الصناعى.

٢ ــ المركب الصناعى:

يمكن أن نحلل المركب الصناعى السورى إلى التصنيف الآتى: الصـناعات النسيجية، فالغذائية، فالكيماوية، فالعمرانية، فالمعدنية، فالكمالية (الشخصية).

الصناعات النسيجية:

هذه أقدم وأبرأ الصناعات فى الماضى وأهمها فى الحاضر فمنذ قرون اشتهرت سوريا بالمنسوجات لا سيما الحرير ويعمل فى هذه الصناعات بفرعيها الغزل والنسج حوالى ٦٥ ألف عامل وهو أكبر عدد من العمال يشتغلون فى صناعة واحدة فى سوريا ويصل الرقم إلى ١٠٠ ألف إذا أضيف العمل اليدوى الريفى ولقد كانت الأولوية قديما فى العصور الوسطى للحرير، ولكن القطن الآن هو أساس الصناعات النسيجية أما الصوف فكان دائما قليل الأهمية فأما الحرير.. إلخ.

فقد كانت تربية دودة القز فى مناطق زراعة التوت فى الساحل الغربى لا سيما فى صافيتا وجبل لبنان أساس لصناعة حريرية تقليدية حتى سميت أنواع منها بأسماء سورية مثل الدمقس (دامسكو) أو أعطيت اسما إفرنجيا رغم الأصل السورى البحت مثل البروكار. ولكن أهمية الصناعة الحريرية قلت كثيرا ابتداء من الحرب الأولى ثم فى الأزمة العالمية ١٩٣٠، حتى أصبحت نسبة مغازل الحرير فى ١٩٥٣ تتراوح بين ١٥، ٢٠% من المجموع الكلى للمغازل، كما أن الصناعة تحولت أساسا من الحرير الطبيعى إلى الصناعى فلا تقوم صناعة الحرير الطبيعى إلا فى الأنواع التقليدية الثمينة المحدودة كالبروكار، أما الحرير الصناعى فتستورد خامته من خيوط وغزل من الخارج، ويعاد تصدير جزء كبير كغزل أو نسيج.

أما القطن فقد أصبح أساس الصناعة النسيجية منذ عهد قريب. وكانت الصناعة تعتمد أولا على القطن المستورد، ولكن كان هذا عقبة خطيرة، فمثلا كان سعر الخام المستورد فى لبنان الساحلى ٢/٣ السعر فى سوريا الداخلية ثم بدأت الصناعة تعتمد بالتدريج على الخام المحلى، ولكنها ظلت طويلا تعانى من فارق كبير فى الطاقة بين الغزل والنسج، فقد كانت قوة الغزل متخلفة كثيرا عن قوة النسج، مما اضطر الصناعة إلى استيراد الغزل ورفع تكاليف الإنتاج، ووصلت

الصناعة السورية قبل الحرب الأخيرة إلى مد السوق بنحو ٣/١ استهلاكه، ولكن الإغراق اليابانى، ثم انقطاع ورود الغزل أثناء الحرب، أخر النمو، والإنتاج كله يعتمد الآن على القطن المحلى، وكان يستهلك حتى قريب نحو ٦/١ المحصول، ففى ١٩٥٣ استهلكت الصناعة حوالى ١٠ ألف طن من القطن المحلوج وصدر الباقى وقدره ٥٠ ألف طن، أما الآن وقد وصل الإنتاج إلى نحو ١٠٠ ألف طن والاستهلاك لازال فى حدود ١٠ ـ ١٢ ألف طن، فقد هبطت نسبة الاستهلاك المحلى إلى ١٠%.

ويستهلك معظم الإنتاج النسيجى محليا بل يوجد فائض للتصدير إلى البلاد العربية المجاورة كالسعودية والأردن والعراق ـ بلغت قيمته حوالى ٢٠ مليون ليرة فى ١٩٥٣، وهكذا نجد أن صناعة القطنيات قد خطت إلى الأمام كثيرا فهناك ٦ مصانع كبرى لغزل ونسج القطن والحرير منها ٢ فى دمشق، ٤ فى حلب، هذا عدا المصانع الصغرى المبعثرة والأنوال اليدوية التى تلعب دورا هاما فى القطنيات خاصة لأنها اللون الذى يمكنها ممارستها، حتى لقد كانت إلى وقت قريب تنتج حوالى ٣/٢ المنسوجات القطنية، ويرجع بقاؤها واستمرار أهميتها إلى أنها تخدم حاجات وأذواقا تقليدية لازالت هامة للعناصر البدوية، هذا وتتفرع عن صناعة الغزل والنسج خاصة القطنية صناعات مرتبطة كالتريكو والجوارب والملابس الداخلية وصلت إلى حد الكفاية الذاتية.

كما أن صناعة حلج القطن تعتبر مرحلة سابقة لكل الإنتاج النسيجى، وهى تعطى نحو ١٧٥ ألف طن من المحصول الزهر الخام تغل نحو ٦٠ ألف من القطن الشعر، وتتم أغلبها بالآلات الحديثة ومن الصناعات المرتبطة صناعة الطبع والصناعة التى أقيم لها مصنع ضخم جديد فى حمص.

أما الصوف فلم يكن له دور هام فى الصناعات النسيجية بسوريا، لأنه خشن لا يصلح للغزل والنسج إلا إذا خلط بثلاثة أمثاله من الصوف الجيد المستورد، ولذلك فالقليل من هذه الصناعة يعتمد على الغزل الأجنبى، ولم ينشأ مغزل للصوف للآن أما الغزل المحلى القليل فيدوى ويصنع بسطا وسجادا خشنا أو منسوجات خشنة ريفية، أما معظم الخام المحلى فيصدر إلى أمريكا ويلاحظ أن صوف العراق خشن كصوف سوريا، ولكن العراق نجح فى إنشاء مصانع لغزله.

وهناك أخيرا صناعة غزل القنب التى تقوم على آجام المرج فى غوطة دمشق، وكان الخام يصدر، ولكن نسبة كبيرة منه تصنع الآن محليا والصناعة كلها تتركز فى دمشق.

أما من حيث التوزيع والتوقيع الجغرافى لهذه الصناعات فأغلبها فى المدينتين الأوليين حلب ودمشق، والأولى تفوق الثانية عامة فى هذا الصدد. ونحو نصف الإنتاج يتركز فى حلب، حيث تبلغ نسبة أنوال القطن من المجموع العام لحلب نحو ٣٥%، ونسبة أنوال الحرير ٦٥% كذلك تحتكر حلب كل صناعة الصوف بفضل موقعها على هامش البادية مصدر الخام الرئيسى، تماما كما تحتكر دمشق صناعة القنب الأقل أهمية، ويلى حلب ودمشق فى الصناعات النسيجية كل من حمص وحماه.

الصناعات الغذائية:

تحتل الصناعات الغذائية المرتبة الثانية بعد النسيجيات فى الصناعات السورية، مما يدل على تركيب أولى ناشئ، وأغلب هذه الصناعات قديم له جذور عميقة فى تاريخ سوريا، ولكن بعضها حديث ابن الانقلاب الزراعى والصناعى المعاصر، وكلها يستمد مبرر وجوده من المادة الخام الزراعية من ارتفاع الأثمان والنقل وانحطاط النوع، ثم من نقاط ضعف الصناعة من ضيق السوق المحلية

وأجور العمال ويمتاز كل فرع منها عادة بالتركيز الواضح فى مدينة كبيرة بعينهـــا دون المدن الأخرى.

صناعة الدقيق: تنتشر مطاحن الغلال انتشارا واسعا فى كل أنحـــاء ســـوريا ومعظمها من الوحدات الصغيرة، فيما عدا حلب ودمشق، والإنتاج يغطى الاستهلاك المحلى ويترك فائضا للتصدير، وتقوم على صناعة الـــدقيق صـــناعة المعجنـــات كالمكرونة والبسكويت، ومعظمها فى دمشق، كما يرتبط بها صناعة النشـــا، وقـــد كانت فى الماضى واسعة الانتشار وتقوم على القمح ولكنها تدهورت إلى أن أنشأت شركة السكر بحمص مصنعا للنشا من الذرة ولكن تعانى كل الصناعات القائمة على الدقيق ارتفاع أسعار الحبوب داخل سوريا.

حفظ الفواكه (الكونسردة): لسوريا شهرة قديمة فى الفواكه والخضـــراوات، جعلت صناعة حفظها من أولى الصناعات الحديثة ظهورا ونموا، وقـــد تضـــاعف الإنتاج أثناء الحرب مع طلب الجيوش، ولكنها تأزمت مع المنافسة الخارجية التـــى تبيع بنصف الثمن! والسبب ارتفاع أثمان الخام المحلى، وأجور العمـــل، وتكـــاليف النقل، وغلاء صفيح العلب المستورد، ولكن أولا ارتفـــاع أســـعار الســـكر ســـواء المستورد أو المحلى، وهذه الصناعة تستهدف التصدير لأن السوق الداخلية لا تقبل على المحفوظات. كما أنهم لا تهتم إلا بالمشمش المطلوب فى أوربا والـــذى يمثـــل ٦٥% من الإنتاج، ومما يعوق الصناعة طبيعتها الموسمية الصارمة التـــى تتـــرك معظم السنة فصل بطالة، ومركز الإنتاج الوحيد الفعلى هو دمشق على أساس بستان غوطتها الكثيف. ومع ذلك فهناك إمكانيات لتقويم وتوسيع هذه الصناعة، وربما كان تصدير المحفوظات بدون سكر كالفواكه المجففة وقمر الـــدين وغيرهـــا وعصـــير الطماطم تحل مشكلة السكر العائق، وترتبط بالصناعة صناعة "السكر" كالشيكولاته والحلوى والمربى إلخ، ومركزها أيضا دمشق.

صناعة الزيوت: صناعة قديمة فى سوريا، تقوم على المعاصر العتيقة المرتبطة موقعا بحقول الزيتون، ثم بدأ الإنتاج الكبير فى دمشق وحلب ثم أخيرا فى حمص تبع شركة السكر وصحبه تطور فى النوع: فبعد أن كانت السيادة لزيت الزيتون، أدخل وتفوق زيت بذرة القطن، حتى أصبح يمثل ٧٠% من محصول الزيت، ويستعمل زيت الزيتون فى الغذاء وصناعة الصابون وتصدر سوريا فائضا كبيرا من زيت الزيتون والقطن، وكان الاتجاه يميل إلى الإكثار من زيت الزيتون للإفادة من أسعاره المجزية والاستعاضة عنه بالزيوت الأخرى ولو أن الذوق التقليدى كان عقبة فى سبيل هذا التحول، كذلك يصدر كثير من كُسْبِ بذرة القطن المعصورة، وإلى جانب هذه الزيوت هناك زيت السمسم لعمل الطحينة والحلاوة، وزيوت الخروع والكتان والكوبرا.

صناعة السكر: كانت سوريا تستهلك كل سكرها من الخارج، لأنها ليست بلد زراعة قصب السكر، ولما كان السكر عاملا هاما فى صناعات المحفوظات، فقد أدخلت زراعة البنجر ليخدم مصنعا لسكر أقيم فى حمص منذ ١٩٤٩، بلغ إنتاج البنجر فى ١٩٥٣ أكثر من ٥٠ ألف طن، تنتج سبعة آلاف طن سكر، ونظرا لأن هذه الصناعة موسمية، فالمصنع يوجه إلى صناعة النشا والزيوت والكحول، كما يستورد السكر الخام ليكرره، ومجموع الإنتاج من الصناعة والتكرير يكفى الاستهلاك المحلى، ولكن فى ظل حماية شديدة، كما تصدر بقايا تكرير البنجر كعلف، هذا وسيقام مصنعان جديدان فى دمشق وفى الفرات لحل مشاكل النقل والتوزيع.

صناعة منتجات الألبان، معظمها يخرج من البادية بطرق بدائية، ومركز التجميع الرئيسى حلب، ووفرة زيت الزيتون من قديم عامل فى تأخر نمو هذه الصناعات.

الصناعات الكيماوية:

الصابون: صناعة قديمة على زيت الزيتون، لخلوه من الدهن الحيوانى، لكنها قاست كثيرا من المنافسة الأجنبية، حتى اضطرت مصانع كثيرة إلى التوقف.

الكبريت: يقوم على الأخشاب المحلية والمستوردة، ومركزه الرئيسى دمشق حيث يتوافر الخشب، وهى تحقق كفاية ذاتية.

الدباغة: قديمة العهد والطرق، المصانع الكبيرة الحديثة فى دمشق وصلت إلى الكفاية الذاتية لكن المنافسة الأجنبية ـ الفرنسية خاصة ـ وأدتها ثم عادت إلى التوسع بعد الحرب الثانية، تعتمد على الجلود والكيماويات المستوردة، يقوم عليها صناعة الأحذية فى المدن الكبرى وتحقق الكفاية الذاتية.

الصناعات العمرانية:

يقصد بها صناعات البناء والمعمار كالأسمنت والزجاج.

الأسمنت: قبل ١٩٣٠ كان الاعتماد الكلى على الوارد ثم أنشئ مصنع تدمر قرب دمشق حيث تتوافر المادة الخام الصالحة، وأثناء الحرب كفى هذا المصنع وبقى فائض كبير للتصدير. وبعد الحرب أنشئ مصنع آخر فى حلب لخدمة الشمال، قفز الإنتاج من ٣٨ ألف طن ١٩٥٢ إلى ٢٢٧ ألف فى ١٩٥٣، وقوة دمشق ضعف حلب، وقد وصل الإنتاج فى ١٩٥٧ إلى ٣٢٥ ألف طن وهناك خطة لرفع الإنتاج، ومشاريع لإقامة مصانع فى حمص وحلب واللاذقية.

الزجاج: صناعة قديمة شهيرة فى سوريا، حتى نهاية الحرب الأخيرة ظلت بدائية تعتمد فى مادتها الخام على الزجاج الخردة المكسر، ولكنها أدت مهمتها أثناء الحرب ثم تدهورت بعدها، ثم أقيم مصنع ضخم حديث فى دمشق يعتبر أحدث ما

في الشرق الأوسط، وهو يكفى الاستهلاك المحلى ــ ولكن مما يعيبــه أن الرمــل ينبغى أن يستورد من مسافة.

الصناعات الكمالية:

السجاير: احتكار للدولة، الصناعة فى المدن، دمشق حلب حمص، تضـــاعف الإنتاج أثناء الحرب، **العطور**، على الاستيراد.